مجاني الغرر

لكتاب القرن التاسع عشر

وهو يشتمل على كل ما راق من المقالات المفيدة الشائقة . والخطب النفيسة الرائقة
التي يستفيد منها الطالب . ويستعين بها كل كاتب . مدبجة بيراع اشهر
كتّاب العصر . الذين لهم علينا الفضل ويحق لنا بهم الفخر

المجلد الثاني

من القسم النثري

جمعه

يوسف صفير

وهو يباع في مكتبته المسماة

مكتبة المدارس

« الكائنة شرقي ساحة البرج على طريق النهر في بيروت »

طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٤

مجاني الغرر

لكتاب القرن التاسع عشر

وهو يشتمل على كل ما راق من المقالات المفيدة الشائقة · والخطب النفيسة الرائقة التي يستفيد منها الطالب · ويستعين بها كل كاتب · مدبجة بيراع اشهر كتّاب العصر · الذين لهم علينا الفضل ويحق لنا بهم الفخر

المجلد الثاني

من القسم النثر

جمعه

يوسف صفير

وهو يباع في مكتبته المسماة

مكتبة المدارس

« الكائنة شرقي ساحة البرج على طريق النهر في بيروت »

طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠٤

مقدمة

« لجامع الكتاب »

شان الكتابة شان الزهور يومٌ زهوٌ ويومٌ ذبول· وقد مرَّ على اللغة العربية مرحلةٌ من حياتها كانت أَليفة التأخر وحليفة الانحطاط حتى كادت اللغة الفصحى تندثر من بين القوم لولا بعض افاضل قد حافظ عليها محافظة المرءَ على روحهِ وناضل عنها مناضلة الجندي الامين في ساحة الكفاح · اذ جل ما كان يعتنى به اذ ذاك من ضروب الكتابة واساليب الانشاء بضع عبارات ركيكة وتعابير سخيفة يانف من تسطيرها صبيان العصر

ولكنَّ العناية أَبت ان تنزل بهذه اللغة الشريفة فامطرت عليها من صيّب الرحمة ومزن الرضوان ما انعشها واحياها ونهض بها من سبات خمولها وسابق تقهقرها ودفع بابنائها ليضارعوا ابناءَ اللغات الاخر كتابةً وتأْليفاً

واول نور بزغ من ضياء نهضتها كان في النصف الاول من القرن التاسع عشر اذ قام لاحيائها في سوريا قوم من الفضلاء نشأُوا لها المدارس والمعاهد ودأَبوا في نشر مباديها وبث روحها الشريف بالمؤلفات الحديثة المتعددة بينما وجه الطيب الأَثر محمد علي باشا عنايتهُ لتعزيزها في مصر فمذ ذاك الحين اخذت الكتابة تتسربل بحلل الاتقان· والانشاء يزهو بحلى الافكار الجميلة الثاقبة والآراء الرائقة الصائبة فكثرت المطابع والجرائد

وتعددت الكتب والمكاتب وامتلأت المدارس من الطلاب وصرنا بحالة لم نكن بها في الامس نفاخر بزمن راجت فيه عندنا سوق الادب وكثر منا الكتاب والمنشئون فانتشر صوتهم في انحاء المعمور في كل مكان وطأته ارجل من نطق بالضاد فاشير اليهم بالبنان وافتخر بهم كل لسان

ومعلوم ان للمرء حاجات ضرورية وكمالية وما كان يعدُّ قبلاً كمالياً اصبح اليوم ضرورياً نظراً لذوق العصر وترقي ابنائه وزيادة تمدنهم وعمران بلادهم وهكذا صار العلم من ضروريات الانسان لا غنى عنه بشيء لنجاحه وتوفير ثروته وراحته وبالاحرى لتجمله بصفات الانسانية الحقة . ولاذاعة المبادي الموجودة في ادمغة العلماء والكتّاب يقتضي الكتابة على صفحات الجرائد والكتب ونشرها بين ايادي الناس نزهة العبارات سامية المواضيع

فالكتب خير ما يقتنى والكتابة صناعة سماوية يراد بها وباستيداعها صفحات الكتب والجرائد نشر الافكار الآيلة لترقي البشرية ولخير الانسانية ولحفظ اثار فضلاء القوم للتشبه بهم والحذو حذوهم ولتقبيح كل عمل شائن مضر

ولما كان للانسان غايتان : مادية وادبية . وكانت الاولى خير من الثانية لانها من موجبات النفس فاحسن خدمة يقوم بها الانسان لبني قومه هي الخدم الادبية اذا لم يستطع الاثنتين

فعلى هذا المبدا عزمنا ان نجمع بعض ما جادت وتجود به اقلام كتابنا البلغاء وعلمائنا الافاضل من منثور ومنظوم واصدارها مجلدات متتابعة خدمةً للمدارس وطلاب الادب من شبيبة العصر

اصدرنا المجلد الاول من كتابنا هذا الموسوم بمجالي الغرر منذ بضع

سنوات فلاقى اقبالاً من الطلبة فوق ما كنا نتوقع وقد قدمنا منهُ بعض نسخ الى نخبة جرائدنا ومجلاتنا العربية في سوريا ومصر فذكرته بما املاه عليها الضمير والمعرفة. فأخذ علينا البعض عدم تحرّينا اثبات اجود ما جادت به خواطر اولئك الكتاب او بعبارة اخرى اننا لم نحسن الانتخاب فهذا يردعليه بان لكل انسان نظر في الشيء فما يستحسنه زيد يستهجنه عمرو وكلاهما قد يكونان مصيبين اذا نظر كلٌّ من وجهته وما الحكم في هذا الامر سوى رواج الكتاب والاقبال عليه من محبي الادب ومريديه. وانكر علينا البعض الآخر اغفالنا نشر مقالات لكتّاب آخرين مشاهير فهذا كان لان المجلد الواحد لا يمكن ان يستوعب مقالات لكل كتبة العصر. على اننا قلنا في مقدمة ذلك المجلد وختامه ان من فاته شيء في المجلد الواحد لا يفوته في الآخر كما سيرى من ينتظر الى النهاية اذا قدرنا الله على اتمام عملنا بنهاية جميلة

ولربما ينكر علينا بعض من يطلع على المجلد الثاني اهمالنا نفثات اقلام بعض كبار العلماء المبرّزين وجمع بنات افكار بعض كتبة حديثين غير مشهورين فيكون في الملامة احدّ وفي العتب اشد. فنجيب اننا قد جعلنا قاعدتنا منذ الان ان لا ننظر لمن قال بل لما قال. نعم عندنا مشاهير من العلماء يبخل بمثلهم الزمان قد قبضوا على أعنّة الكتابة وملكوا ناصية الانشاء انما لجهلهم لغات الافرنج قلما ينسجون على منوال الكتبة الحديثين المطّلعين على افكار كُتّاب الافرنسيس والانكليز وغيرهم من علماء اوربا واميركا وذلك من حيث طلاوة العبارة وسلاسة التعبير وذوق العصر. ولرُبَّ فتىً لا يتجاوز العشرين من سنيه ينشىء مقالات ضافية الذيول تحوز استحسان الجمهور

ويفهمها اكثر من مقالةٍ لعالمٍ كبير على غير الذوق الذي آلفه روح المدارس الحديث نظر متأمل لان الكتابة ذوق فطري وملكته طبيعية فقد يكون الكاتب عالماً وقلما يكون العالم كاتباً · المجيد من الكتابة ما فهمهُ الشعب وترك اثراً في نفس الانسان وسواء كان كاتبها عالماً نحريراً او كاتباً صغيراً · ويجدر بكل مطالع اديب ان ينظر دائماً الى ما يقال لا الى من يقول لان في الزوايا خبايا والرجال تستتر باثوابها

فالى ذوي الالباب ونصراء الادب ونجباء الطلبة نزف المجلد الثاني من هذا الكتاب المشتمل على ما رق وراق من نفثات اقلام الكتّاب الذين يفتخر بهم شبان العصر وينادى باسمهم في كل نادٍ وقطر وتتزين بمداد يراعهم صحف سوريا واميركا ومصر

والى كُتّابنا الافاضل نتقدم بكلمة عذر فان من لا يجد من نفثات يراعه شيئاً في هذا الجزء سيرى في الجزء التالي ما يسره ويرضيه وما الجزء التالي ببعيد

يوسف صفير

الذوق

« بحث فلسفي لجناب يوسف افندي شلحت »

« نقلاً عن المقتطف سنة ١٧ »

الذوق في اللغة اختبار الشيء او الطعام وفي الاصطلاح قوة الذائقة وهي قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بواسطة الرطوبة اللعابية وهي من الحواس الخمس الظاهرة وتطلق لفظة ذوق على قوة باطنة في النفس تدرك المليح والقبيح من المحسوسات والادبيات وتفرق بين المستحسن والمستهجن منها . وقد عرَّف الذوق بعض العلماء بانه ميل النفس الى الجميل في الطبيعة والصناعة . والتعريف الاول اوفى بالمقصود وعليه عولنا في هذه المقالة . واذا دققنا النظر في هذه القوة الباطنة رأيناها فطرة غريزية في بني آدم لا فعلاً من افعال العقل . فان استحساننا للمليح من الاشياء واستهجاننا للقبيح منها ليسا بناتجين عن اكتشاف حقيقة توصل اليها العقل بقوة البرهان والاستدلال بل هما ارتياح ونفور يشعر بهما الانسان بداهةً عند ادراكه الملائم وغير الملائم من الامور . مثل ذلك مثل من يحس بنشاط يطيب لهُ صدره وتلتذ به نفسه حينما يدخل روضة انيقة زاهية الاشجار يانعة الاثمار فهذا النشاط يحصل فيه عن غير فكر وروية . وكذلك النفور الذي نشعر به عند مشاهدتنا رجلاً مصاباً بقروح وبثور شوَّهت وجههُ فذلك يحدث فينا كرهاً لا عن ارادة منا او تبصر . ولا ينتج مما تقدَّم ان لا دخل للعقل في امر الذوق فان العقل كما سنبين في سياق البحث يهذب الذوق ويضبط قواعدهُ واحكامه

ويفصل بين السليم منه والفاسد

ويشمل الذوق المحسوسات من الاشياء مثل الملبوس والمفروش والفنون الجميلة من تصوير ونقش وبناء وغناء والادبيات مثل الانشاء نظماً ونثراً والعوائد المالوفة بين البشر في معاملاتهم اليومية وغيرها · وليست قوة الذوق متساوية في البشر بل الاختلاف فيها يفوق كثيراً ما نعهده في الناس من التفاوت في قوة الادراك وذكاء العقل · وسبب ذلك التباين الذي بيننا في البنية وقوة الحواس الظاهرة والباطنة والاطوار والاميال وخصوصاً الفرق في درجات التهذيب والحضارة

وهذا الاختلاف في الذوق مما يفسر المثل اللاتيني القائل « لا جدال في الذوق » يقاربهُ معنى المثل العربي « ان للناس في ما يعشقون مذاهب » غير ان ذلك لا يعني ان الذوق ليس لهُ ضابط يعوَّل عليه ويرجع اليه في الحكم على المليح والقبيح والاَّ لتساوى الذوق السليم والفاسد وكان الاستحسان والاستهجان للشيء الواحد امراً غير مردود · على ان المعنى المقصود من المثل ان لكل من بني آدم اميالاً فطرية خصوصية تحملهُ على تفضيل شيء على شيء من المحسوسات والادبيات وتجعله يستحب هذا ولا يستملح ذاك منها وهو لا يستطيع في غالب الاحيان ايراد سببٍ كافٍ لبيان وجه الصواب في التفضيل والاستحسان ومن ثمَّ لا سبيل الى مجادلته في ما يحب · غير ان الجدال في الذوق اذا صحَّ امتناعه في المتنوع فليس كذلك في النقيض وبيان ذلك انا اذا حضرنا نادياً دار فيهِ الكلام على الذوق في الازياء واخذت النساء يتناظرنَ في ما هو خاص بهنَّ من الملبوس فمنهنَّ من قالت: ان الثوب العظيم المقبب هو الزي المقبول الذي يروق للعين ويستحسنه ذوو الكياسة

وقالت اخرى : بل الثوب الضيق المسطح له في الملاحة شان كبير يظهر به القد الاهيف والقوام المهفهف. وادعت ثالثة بانها بين بين فلا يعجبها ثوب عظيم اشبه شيء بزق منفوخ ولا ثوب ضيق كانه محراك التنور بل يروق لها ثوب بين الضيق والواسع والمقبب والمسطح لا طويل ولا قصير لان فيه راحة الجسم وسهولة الحركة. فاذا اردنا خصم الجدال بينهنَّ فقلنا « لا جدالَ في الذوق » جاء قولنا هذا حدًّا فاصلاً يقال له قطعت جهيزة قول كل خطيب. وماذلك الاَّ لكون اختلاف الذوق في المتنوع لا يوجب وجود النقيضين معاً. واما اذا دار الجدال مثلاً فيما اذا كان شعر الفارض رقيقاً او لا فلا يصح بذلك اختلاف الذوق واذا تمسك فريق بالايجاب واخر بالانكار فلا يمكن الفصل بينهما بقولنا « لا جدال في الذوق » لان ذلك مما يوهم بان شعر الفارض يمكنهُ ان يكون رقيقاً وغير رقيق في آنٍ واحد وهذا مردود. ومن ثمَّ فبين احكام الذوق واحكام العقل بون بان كل حكم من الاحكام الناتجة من القياسات العقليه ينفي ما يناقضه من الاحكام. وليس كذلك احكام الذوق فقد يصح ان يكون بين حكمين تباين ويكون الحكمان صحيحين وسبب ذلك ان الحق الذي هو موضوع العقل واحد لا يتجزأ اما الجمال الذي هو موضوع الذوق فلهُ اشكال وانواع كثيرة

وقد اختلف العلماء في تعيين ضابط الذوق فمنهم من قال ان لا ضابط لهُ اصح من اتفاق عموم الناس على استحسان مليح واستهجان قبيح فهذا الاتفاق هو المحك الحقيقي الذى يفرق بين الزائف والخالص من الاذواق و يميز السليم من الفاسد. وعليه فكل شيء اجمع الناس على استحسانه فهو مليح وكل شيء اتفقوا على استهجانه فهو قبيح. وعلى ذلك فالذوق الذي هو قوة باطنة في

النفس يشبه الذوق الذي هو حاسة ظاهرة في الجسد· فكما ان الحكم في الطعوم متوقف على اخبار عموم الناس لها كذلك الحكم في المليح والقبيح متوقف على ما يشعر به جميع الناس من هذا القبيل · ومن قال مثلاً ان طعم السكر مرٌّ وطعم الملح حلو كذبناه حتماً وقلنا لهُ ان فيك علة افسدت قوة الذائقة · وكذلك من ادعى مثلاً بان منظر بستان فيه ازهار واثمار تجري فيهِ الانهار وتغرّد الاطيار لمن المناظر الشجية المحزنة التي تزيد في القلب صداء الغم وتبالغ ببواعث الهم نسبناهُ لا محالة الى فساد في الذوق وخبل في العقل

على ان هذا الرأي اي جعل ضابط الذوق الاتفاق العام فيه مشقة وخطاء اما المشقة فعدم امكاننا في اغلب الاحيان التوصل الى معرفة الرأي العام في مسألة مخصوصة من مسائل الذوق · وهذه الصعوبة من شأنها ان تحول دون البلوغ الى حكم باتٍ في مشكل مدارهُ معرفة المستحسن والمستهجن فنمسي احير من ضب لا نميز الغث من السمين ولا نفرق بين السليم والفاسد وهذا اكبر نقص في ضابط من الضوابط العاميةالتي لا يمكنها ايفاء الغرض المقصود منها الا اذا كانت قريبة النوال للداني والقاصي · واما الخطأُ فكونه يجعل المسبب سبباً ويقيم المعلول مقام العلة وبيان ذلك ان اجماع الناس على استحسان مليح ليس هو سبب الملاحة الموجودة فيه بل ان الملاحة في الشيء هي سبب اجماع الناس على استحسانه فاذا قلنا ان المليح مليحٌ لان عموم الناس قد اتفقوا على حسبانه مليحاً نكون قد فسرنا الماء بالماء على قول المثل واخطأنا الغرض في البحث عن العلة الاخيرة للمليح التي هي الضابط الحقيقي للذوق · فاننا في البحث عن هذا الضابط وبيان ماهيته لا تكفينا الاشارة الى

واقعة الحال في امور الذوق بل يجب علينا استقصاء علة هذه الواقعة · اي اننا اذا اردنا الوقوف على ما اذا كان عمل من اعمال الفنون الجميلة او عادة من العوائد المألوفة او تأليف من التآليف الادبية · مليحاً او غير مليح فلا نتم فائدة البحث باستقراء ما قاله الناس او شعروا به من هذا القبيل بل يقتضي لنا امعان النظر في نفس الشيء واطالة التبصر في اجزائه وتركيبه لنرى ما اذا كان مستوفياً شروط الملاحة او حاصلاً على البعض منها او خالياً منها · فان صحة الحكم في ملاحة الاشياء متوقفة على اصابة الراي في تفحص باطن امرها وكنه صفاتها لا على ما يشعر زيد وعمرو بشأنها · وهذا يفسر لنا التقلبات الطارئة على الذوق في توالي الاعصار مع ثبات مبادئه رغماً عن العوارض المخلة التي حاولت حيناً بعد حين نقض اصولها وتشتيت فروعها فاننا كثيراً ما نقرأ في التاريخ عن امم فسد ذوقها وعابت اخلاقها الى درجة ادت بها الى استحسانها القبيح الظاهر واستهجانها المليح الرائع وذلك عن فساد في السياسة او في المذهب او في الآداب · فان الجور في الحكم والتعصب في الدين والخلاعة في الآداب لها كبير تأثير في الذوق وقد تحمل الناس على استحباب شيء وهم لو كانوا راتعين في ظل حكومة عادلة متمسكين بمذهب معتدل متخلقين باخلاق طاهرة لكانوا استشنعوه ونبذوه ظهرياً · غير ان هذا الفساد في الذوق لا يلبث الا مدة زمانية ثم تنهض الاميال السالمة من غفلتها فتشن الغارة على اضغاث الاحلام وتسلط الاوهام وتدور الدوائر على الذوق الفاسد فيتغلب عليه السليم ويبتدأ بدور التهذيب والاصلاح وما ذلك الا لان ضابط الذوق لا يقوم باتفاق قد ينتج عن دافع الشهوات ومطامع الاغراض بل هو كائن في ذوات الاشياء والذوات مستقلة ثابتة

لا تعبث بها العوارض الطارئة عليها

وعلينا ان نرى الآن ما هو هذا الضابط فنقول ان الذوق كما سبق بيانه قوة باطنة تحمل النفس على الميل الى المليح والنفور من القبيح المحسوس والادبي. وهذا الميل والنفور هما في النفس بمقام القوتين الجاذبة والدافعة اللتين نشاهدهما في العناصر الهيولية. غير ان بين هاتين القوتين في المادة وقوتي الميل والنفور في النفس فرقاً بان الاولين تفعلان بالمادة بنوع متساو لحصول الموازنة التي هي من الشروط الضرورية لحفظ الكون اما الاخرين فيختلف مفعولها باختلاف استعداد الافراد واطوارهم وتهذيبهم ودرجة الحضارة التي هم فيها. وقد يحدث كما ذكرنا آنفاً ان الانسان لخلل وقع فيه يميل الى القبيح وينفر من المليح وهذا ما نسميه فساد الذوق ولا يمكننا تمييزه من الذوق السليم ما لم ندرك ما هو المليح الذي يميل الانسان اليه والقبيح الذي ينفر منه. قال القاموس « الجمال الحسن في الخَلق والخُلق وفرق بعضهم بين الحسن والجمال بان الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة اعضائه والملاحة تعمهما جميعاً. فكل مليح حسن وجميل معاً وليس كل حسن جميلاً ولا كل جميل حسناً. والقبيح ذو القبح وهو ضد الحسن يكون في القول والفعل والصورة ». وهذا التعريف اللغوي للمليح والقبيح قاصرٌ كما هو شأن كل تعريف لغوي على بيان وجه الدلالة لا على بيان ماهية المدلول وفيه نوع من الخطاء بانهُ جعل القبيح الذي يطلق على القول والفعل والصورة ضد الحسن الذي يلاحظ لون الوجه وكان حقه ان يجعلهُ ضد المليح لان دلالة المليح اعمّ من دلالة الحسن والجميل لاشتمالها على ما تدل عليه هاتان اللفظتان معاً. وهذا حملنا على استعمال لفظة المليح في هذا

البحث لان الذوق غير مختص بنوع من الجمال بل يشمل كل ما دخل في حيز الملاحة من قول وفعل وصورة · واما تعريف العلماء للمليح فقد استغرق رسالات ومصنفات لو جمعت على حدتها لألفت مكتبة كبيرة · ونحن نلخص هنا ما اجمع عليهِ رأيهم في هذا الموضوع فنقول

ان المليح ما اثار في حواسنا الظاهرة وقوانا الباطنة لذةً ينشرح بها الصدر وتطيب لها النفس وشروطهُ الوحدة والتنوع والتناسب والاعتدال والترتيب والنظام والنقانة والطلاوة وموافقة الاجزاء للمجموع والوسائط للغاية · وليس من الضرورة ان يشتمل الشيء على كل هذه الشروط ليكون مليحاً بل درجة الملاحة في الشيء متوقفة على عدد الشروط المتوفرة فيه · ووضع هذه الشروط مبني على ما استدل عليه العلماء بالبحث المدقق عن طبع الانسان من حيث ادراكه الاشياء وما يحصل له من التأثر عند تمثيله الموضوعات الحسية والادبية · فمن المعلوم المقرر ان كل شيءٍ يؤَثر تأثيرًا لطيفًا في الحواس الظاهرة والقوى الباطنة بحيث يتمكن الانسان من ادراكها لاول وهلة دون تكلف وعناءٍ يثير فينا ارتياحاً ولذة تنتعش بهما النفس · وهذه السهولة في ادراك الشيء قائم بها كنه الملاحة لانها علة ما يشعر به الانسان من الميل الى ما يدعوه مليحاً · وسبب ذلك واضح فان تمثيل الاشياء الخارجية في الذهن هو فعل القوى الممثلة وبهِ يقوم ترويضها وهي لا تميل الا الى ما لا يحمّلها تمثيله تعباً ومشقة وهذا ما جعل بعض العلماء يرتأُون ان الشروط الاساسية للملاحة هي الوحدة مقرونة بالتنوع وتناسب الاجزاء ذلك لما يثير فينا الشيء الذي تتوفر فيه هذه الشروط من التأثرات العديدة والتصورات المتنوعة مع سهولة ادراكها دفعة واحدة · وكذلك الشروط الاخرى السابق

ذكرها تكسب الاشياء ملاحة لانها تقربها الى الحواس وتسهل امر ادراكها وتصويرها في الذهن · فالترتيب مثلاً والنظام والتقانة التي نلاحظها في المحسوسات تروق للعين لسهولة ادراك الباصرة لها من غير كبير امعان ومثل ذلك مثل من دخل بيتاً مفروشاً مزيناً بالاثاث والطنافس والستائر موضوعاً فيه المتاع في المحل المناسب لهُ وهو موافق بعضه لبعض من حيث الحجم والشكل واللون فيروق لهُ منظر هذا البيت و يطيب لهُ القعود فيه لان الباصرة يهون عليها ادراك ما فيه بلمحة وبدون تعب ويشعر بعكس ذلك من دخل بيتاً تجمع فيه المتاع بعضه الى بعض وجعل اكواماً لا ترتيب فيها لينقل الى بيت آخر فيكل النظر من مشاهدته و يسرع من دخله الى الخروج منه تخلصاً من حرج العين · وقس على ذلك موافقة الاجزاء للمجموع والوسائط للغاية في مناظر الطبيعة واعمال الصناعة والتآليف الادبية فالذي يعجبنا مثلاً في ساعة ظريفة من فضة او ذهب ليس فقط بهجة المعدن وطلاوته ودقة الدواليب ورهاجة الحجارة الكريمة التي فيها بل ايضاً موافقة اجزائها للمجموع وتوجيهها الى غاية واحدة وضعت لها هي الدلالة على الوقت · فينتج مما تقدم ان ملاحة الشيء قائمة بتوفر شروط الملاحة فيه وان هذه الشروط ليست بصفات عرضية اصطلح الناس عليها لتعريف المليح بل هي صفات ذاتية موجودة في الاشياء تؤثر في الناس بنوع واحد اذا تساوت طبقاتهم في التهذيب والحضارة وقوة الحواس الظاهرة والباطنة

ولا بأس ان نذكر في هذا المقام ما وقع من الخطأ في تعريف كتاب « دائرة المعارف » للجمال في الصفحة ١١٥ من المجلد السادس حيث قال « وبالاجمال فهو (اي الجمال) امر موهوم بالحقيقة موجود بالعرض فهو

عرض ظاهر تشعر به الحواس او احداها فترتاح اليه وتسر به النفس وينشرح الصدر ويبتهج القلب فهو مشترك بين الحواس جميعاً وقد لا يدرك بالحواس بل بالتصور فيحدث نفس التأثير في النفس من اللذة والارتياح وعلى ذلك يكون مشتركاً بين امور كثيرة حسية وعقلية » فخطاء هذا التعريف غني عن البيان وتكفي الاشارة اليه للعاقل اللبيب · وفي الصفحة نفسها عدد اراء الفلاسفة المختلفة في تعريف الجمال وصفاته فذكر منها رأي اكثر المتاخرين بقوله « واكثر المتاخرين على انه (الجمال) ظهور الغير المرئي بواسطة المرئي في قالب القبول » فنقول ان هذا التعريف معمى عزّ علينا ادراك معناه ولربما من ترجمه او لخصه لم يفهم فحواه والا لما اتانا بهِ بشكل احجية لغوية للعقل شاغلة

فضابط الذوق اذا هو ذات المليح الذي يميل الانسان اليه ومرجع الجدال في امور الذوق البحث عما اذا كان الشيء الواقع الجدال فيه حاصلاً على شروط الملاحة او لا · ونسبة هذه الشروط الى المليح كنسبة شعاع النور الى المنظور · فكما ان المرئي يزداد جلاء كلما ازداد شعاع النور المنعكس فيه كذلك المليح يزداد رونقاً وبهاءً كلما تعددت فيه شروط الملاحة · ووظيفة الذوق السليم ادراك هذه الشروط في الموضوع والاشعار بها والارتياح اليها وبهذا يقوم الاستحسان بل كمال الذوق · ومن ثم لا نصف بسلامة الذوق الا من استطاع الفصل بين شروط الملاحة واداء المليح حقهُ من الالتفات اليه والتلذذ به وتنزيله المنزلة التي هو خليق بها في طبقة الجمال · وننسب الى فساد الذوق من يستسمن ذا ورم فيعد مليحةً اشياء خلت من شروط الملاحة لمجرد استلطافه فيها محاسن وهمية وزخارف ظاهرة لا طائل له

وللذوق السليم مزيتان يقوم بهما كما لهُ هما الرقة والصحة · فالرقة هي قوة الحاسة الفطرية اذا بلغت درجة الكمال بالرياضة و التهذيب وهي اساس الذوق وبها يتمكن صاحبها من ادراك محاسن خفية في الاشياء لا تدركها عين سواه والاكتشاف في زوايا الامور على خبايا من دقائق الملاحة لا يتيسر لغيره الانتباه لها · فصاحب الذوق الرقيق قوي المشاعر سريع التأثر ميّال الى الجمال نفور من المستهجن تؤثر نفسه المليح الحقيقي وترتاح اليه وتلحظ بسرعة عجيبة النقص والعيب والتكلف فتعرض عنها وتشمئز منها · واما الصحة فهي مزية بل ملكة مكتسبة تعصم الانسان من التهور في الحكم بامور الذوق وتجعله يقدر الاشياء قدرها فلا يعتبرها الا قدر ما تستحق ولا يبخسها حقها وصاحب الذوق الصحيح حاكم عدلٌ لا يفوته شيء من المحسوسات والادبيات او عليها من حيث الملاحة وهو كثير الفحص بطيء الرأي يحب التنقيب والانتقاد حرزاً للحقيقة وتحذراً من الخطاء · فالرقة والصحة اذا مزيتان لا غنى عنهما لمن يريد الاتصاف بسلامة الذوق · فالاولى قوة فطرية يزيدها الاكتساب دقة ولطافة والثانية ملكة اكتسابية تعين الفطرة على البلوغ الى شأو الكمال في امور الذوق

وغير خاف على اللبيب ما للذوق من الاهمية الكبرى في الامور البشرية فانه محرر الاعمال الصناعية ومدار العوائد والآداب وبه تعرف درجات التهذيب والحضارة بين الامم المتفرقة على وجه البسيطة · فمن يضرب في البلاد ويجوب العواصم العظيمة المتمدنة لترويح النفس والاستفادة يرى احكام الذوق سائدة في البناء والسكن ونصوصه معمولاً بها في العوائد والاخلاق والمعاملات وقواعده متبعة في الخطابة والانشاء · حيثما سار

رأى ما يعجب ويروق وكلما تفقد مشهداً مألوفاً رجع عنه باهتاً مدهوشاً

والذي حملنا على وضع هذه المقالة في الذوق ما رأيناه من الاهمال بهذا الخصوص في الكتب العربية · فانّنا مع ما نحن عليه في الحالة الحاضرة من قرع ابواب المعارف للترقي في درجات الحضارة لم نشاهد فينا من تكلف مشقة هذا البحث العميم الفائدة · وقد كان الاولى بنا تفضيله على كثير من المباحث اللغوية الركيكة والمسائل العلمية السامية التي لا تجدينا كبير فائدة · وهاك الفرنجة الذين سبقونا بمراحل في ميدان العلوم والمعارف قد افردوا لهذا الموضوع علماً مخصوصاً « سموهُ استيتيكا » للبحث عن الملاحة في الطبيعة والصناعة قلما جاء ذكره او عرف سره بين الناطقين بالضاد فهلا كان جديراً بنا على الاقل ان نفرد باباً للذوق في كتب آدابنا نبين فيه ماهيته وقواعده وشروطه تمهيداً للبحث في ما يختص منه باللغة والانشاء · فاننا نقول ولا نخشى لومة لائم ان لغتنا العربية رغماً عن مباهاتنا بها واطنابنا بمدحها كثيرة الاحتياج الى التهذيب والاصلاح وفقاً لاحكام الذوق · وبيان ذلك يخرج عن موضوع هذه المقالة · ويا حبذا لو قام فينا رجال لهم طول الباع وعلوّ الهمة وشمروا عن ساعد الجد للبحث في شوائب اللغة وعيوب الانشاء المستحسن عندنا توصلاً الى التنقيح والاصلاح غير مبالين بتنديد الجهلة وملامة الاغبياء فان البحث عن الزلة يدعو الى اجتنابها وتبيين وجه الخطإ يرشد الى وجهة الصواب ومن سعى في هذه المأثرة الحميدة له عظيم الفضل وخلود الذكر

الذوق

« لاحمد افندي فارس الشدياق »

« الجوائب عدد ٣٨٣ تاريخ ٦ نيسان سنة ١٨٦٩ »

الذوق في الكلام كالذوق في الطعام في ان كلاًّ منهما منشاه الالفة والعادة فمن قلة الذوق المعنوي انه لم يوضع في لغة من اللغات لفظة خاصة به و بضده وانما يذكر اهل المعاني والبيان شيئاً من اثمارها فيقولون مثلاً هذه استعارة حسنة وهذا تشبيه بديع او هذه استعارة مستهجنة وهذا تشبيه بعيد ولا يقولون ان ذلك من الذوق وعدمه مع انه هو مدار ذلك وليس لغيره مدخل فيه لان الشاعر الذي يرتكب ما يخل بالذوق ربما كان اعلم اهل زمانه باللغة و بكلام العرب فاتيانه والحالة هذه بما يروق النقاد ناشئ عن العلم والذوق واتيانه بغير ذلك من عدم الذوق لا من الجهل . فمن عدم الذوق في شعر شعراء العصر ان احدهم يبتدئ قصيدته مثلاً بالتشبيب في امراة ثم يذكر اوقات الوصال ثم الهجر ثم عدوان الزمان وتقلب الايام والاحوال وحرمان اللبيب وفوز الجاهل ثم ينتقل الى الغزل بمذكر فيصف محاسنه ويفضله على الشمس والقمر والنجوم ثم ينتقل الى وصف الخمرة ومجالس الانس والطرب واختلاس اللذات واغتنام فرص المسرات ثم ينتقل الى ذكر مفارقة الاحباب وتجرع غصص النوى وذكر الطلول والربوع والبرق والسحاب والصبا والتعلل بنفحاتها والترقب لاوقات الوصال وكل ذلك بكلام بليغ وتعبير فصيح من دون ضرورة ولا اخلال في شيء من قواعد اللغة العربية فالشاعر الذي مارس هذا الاسلوب لا يرى فيه عيباً

بل ربما عاب ما يخالفه من اساليب غيره وهكذا ترك اهل المعاني والبيان من يتعاطون الشعر يهيمون في كل وادٍ وانما نشبوا في نقد بعض الفاظ وامسكوا بتلاليب قائلها وذلك كانتقادهم لفظة مستشزرات في قول امرئ القيس : غدائره مستشزرات الى العلا · ولم يعيبوا عليه قوله اذا ما بكى من خلفها ··· مع انه من السماجة بمكان ··· ومهما يكن من السماجة في كلام امرىء القيس فان الذوق سجية راسخة في العرب الاولين · انظر الى الشنفرى الذي عاشر الذئب العملّس والارقط الذهلول والعرفاء الجيأل فانك لا تجد في كلامه شيئاً خارجاً عن الذوق وكذا المعلقات وغيرها مع ان العرب كانوا خالين عن العلم وانما هي محض ملكة فيهم · وانظر الى كتّاب الافرنج الذين بلغوا في هذا العصر من المعارف والتمدن ما بلغوا فلا تكاد تجد احداً منهم ذا ذوق · هذا «التيمس» الذي هو عند الانكليز بمنزلة نوابغ الزمخشري ومقامات الحريري تراه بينما هو يخوض في امور سياسية دقيقة ومقاصد دولية انيقة اذا به يطبل بذكر القطن والانوال والمعامل ويزمر بذكر الفحم والمجارف والمواقد والمناقل وانظر الى كتّاب الاخبار من الفرنسيس تجدهم يسفّون و يدنقون ويسهبون ويخلون فياخذون في معنى مبتذل ويكسونه الالفاظ الضخمة الطويلة الحواشي فتسمع منهم جعجعة ولا ترى طحناً فكل خمسة اسطر من كلامهم يغني عنها في العربية سطر واحد وما ذلك الا لان الانكليز ألفوا الكلام على القطن والفحم والمعامل والفرنسيس الفوا الاسفاف والاخلاء فلا نقول ان ذلك صادر من جهلهم بل من عدم ذوقهم ولو قال احدٌ بالعربية مثلاً اني في هذا الصباح الذي لاحت تباشيره وعم سروره وفاح عبيره واشرقت شمسه وشمل انسه وغرّد طائر هنائه وخفقت بنود

صفائه وحق له ان يذكر في كل سفر يسطر وكل مجلد تحرر شربت مسهلاً ولزمت بيتي معتزلا أفيكون ذلك كلاماً وهل يغضي النظر عنه احد ممن سلم ذوقه وصفا طبعه فينبغي ان تكون الالفاظ مطابقة للمعاني فما كان من المعاني مبتذلاً خسيساً فلا يليق به ان يكسى الالفاظ الطنانة فانها تزيده هجنة وهولاء الافرنج مع تبحرهم في الفنون واتقانهم الصنائع لم يفطنوا الى هذه المناسبة فاعجب لقوم يقيسون الارض والسماء وليس لكلامهم من قياس فان اعترض احد بان العرب قد الفوا اسلوباً في الشعر والانشاء لا يستحسنه غيرهم وهو في نفس الامر معيب فانهم اذا مدحوا بليغاً قالوا انه يفتض ابكار المعاني واذا مدحوا اميرًا ابتدأوا بذكر محاسن امراة او غلام وبالتشوق اليه واليها ومثل ذلك خروج عن الذوق اذ ليس من مناسبة بين الامير والمرأة قلنا في الجواب ان قول بعض العرب يفتض ابكار المعاني ليس بطريقة عامة يستحسنها منا كل اديب فربما عده بعض ادبائنا حسناً وعده البعض الاخر خشناً وهذا هو الفرق بيننا وبين الافرنج فان الاخلاء والاسفاف والتكرير والمعاظلة عند الفرنسيس والانكليز طريقة عامة يستحسنها كل واحد منهم فان لغتهم مبنية على هذا الاصل اما اصطلاح العرب على الابتدا بالنسيب قبل المدح وان يكن طريقة عامة الا ان له وجهاً وذلك ان اقوى الاسباب الباعثة على الشعر انما هو فراق الاحباب : لا يعلم الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها . ولما كان هذا الامر كثير الوقوع عند العرب لان دابهم الرحيل والتنقل من مكان الى مكان شحذوا بذكره اذهانهم في مطالع قصائدهم ثم خلطوه بوصف محاسن المحبوب والتغزل به فمن هذا الوجه ساغ وحسن . ولو فرضنا ان العرب كانت تسكن المدن ولا تفارقها لما كان

لذكر الطلول والاظعان معنى نعم ارا بالغ الشاعر في وصف المرأة التي فارقته كان يقول انه يتمنى ان يكون بعيراً تحتها او انه يشفق على البعير من ثقل اردافها او انها تسقي الشرب جميعاً كوس ريقها عاد ذلك سمجاً لا جرم ان ذوق الانسان ليتغير بحسب ما يطرأ عليه من العوارض ويدور مع احواله فالاحداث والشبان مثلاً يرتاحون الى المبالغة واللغو والفحش والكهول والشيوخ يانفون من ذلك فلا يستحسنون من الكلام الا ما كان خالياً من الشوائب · وعلى هذا نقول انه لا يمكن وضع حد معلوم للذوق اذ هو مبني على العادة والالفة وهما مختلفان وانما يمكن التقرب منه كما يمكن التقرب من معرفة حسن العادات من قبيحها بسلامة الطبع وصفاء السجية

السعادة

« للمعلم جرجس افندي همام »

لسان الحال عدد ١٥٣٠ سنة ١٨٩٣

هي السعادة لا زلتم من اهلها ضالة الانسان ينشدها سحابة الحياة ويستطيب لاجلها الغمرات طمعاً بما يؤمل بعد خوضها من موارد الدعة ومناجع السعة · فهي منتهى الرغائب واليها تحدى ركائب الاعمال وعندها تحط رحال الآمال والناس مختلفون في حقيقتها متباينون في طرق التماسها على مذاهب شتى

فمنهم من يخالها تقوم بالمآكل والمشارب وغير ذلك من الملذات الجسمانية فيصرف همه الى تحصيلها وتوفيرها والانهماك فيها · وهو انما يعيش

ليأكل ويشرب . واذا استرسل مع اهوائه يقلُّ حياؤُه ويكثر استهتاره ويستوحش من اهل الفضل والعلم ويألف اصحاب الفجور ويسرُّ بمعاشرة السخفاء وربما دعته محبة اللذات الى اكتساب الاموال من اقبح وجوهها وحملته على التهور في اجتراح الدنايا والمحظورات

اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت　　ولم ينهها تاقت الى كل باطلِ
وساقت اليه الاثم والعار بالذي　　دعته اليهِ من حلاوة عاجلِ

ويكون بذلك طبعه اقرب الى البهيمية منه الى الانسانية بل تكون البهائم بمقتضى قياسهِ واعتبارهِ اسعد منه حالاً ومالاً

ومنهم من يتخيل ان السعادة قائمة بجمع المال والاستكثار منه فيقف في طلبها عند حد الوسائل المؤدية اليها ولا يتخطاها الى ما وراءه وليس ذلك عن ضعفٍ في نفسه او قصور في امله عن بلوغ الغاية بل لما يمثله له الوهم في حشد الاموال من اللذة والبهجة . لذلك تراه منحرفاً عن سنن القصد يبعثه حب المال على الحرص في طلبه فلا يزال يكاسب فيه ويتاثله حتى يستوفر ويصبح من اهل النعم والثراء . ولكنه يدخره ويفرط في الشحّ به افراطاً لا يقف به عند حدٍّ فيمنعه عن اداء حقوق نفسهِ وذويه ويكون كالذي وصفه احمد بن مروان بقوله

وذي حرصٍ تراهُ يلمُّ وفراً　　لوارثهِ ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ　　فريسته ليأكلها سواه

بل يكون مثله مثل طائفة من القردة بالمغرب توصف بالحرص الشديد فاذا ارادوا امساك قرد منها عمدوا الى يقطينة مجوفة فخرقوها خرقاً ضيقاً لا تدخل فيه يد القرد الا فارغة وجعلوا فيها ارزاً ثم شدوها الى شجرة فياتي

القرد ليلاً ويدخل يده فيقبض من الارز ويحاول اخراج يدهِ مملوءة فلا يقدر لضيق الخرق ولا نفسه تسخو بترك الارز فيبقى على ذلك الصباح حتى ياتوا ويمسكوه

وربما اعترت من كان كذلك علةٌ فحمله حرصه على ترك التداوي. او وقع عليه خسف فاغضى على الضيم ذليلاً لا يدفعه عن نفسه لشدة اشفاقه على بذل المال. وهو مع ذلك لا ينفق منه بضرورات عياله فيعيشون معيشة الفقراء واهل الخصاصة بثياب رثة وبطون خاوية وانفس خسيسة لا يذوقون من طعم الغبطة شيئاً

ومنهم من يكون صغير النفس ضعيف الامل فيبتغي اسهل ابواب المعاش ويصرف نفسه عن الرغبة في تنمية ما يكسبه من المال ويقنع من الرزق باليسير. وربما رضي بالبلغة يحصلها بالعمل القليل ولو كانت دون الكفاية فيتعود الكسل ويستنيم الى الراحة شيمة العجزة. ويقل اعتماده على نفسه ويخور عزماً فياخذ ما يسنح له قاعداً ويتخلف عن الاقدام فيما يرغب فيه لنفسه من الترقي والعزة اتقاءً ورهبةً. ولو قصرت امال الناس جملةً فلم يتعدَّ الواحد منهم ضرورياته لخلفوا الدنيا الى ما بعدهم خراباً لا يدركون منها حاجة ثم تتحول الى من بعدُ باسوأ من ذلك حالاً

ومنهم من يكون من ذوي النفخة والدعوى العريضة فيطلب السعادة في الرفعة وطيب الاحدوثة ويحب ان يتلقاه الناس بالاطراء والتجلة. وقد يتناهى ذلك عنده فيجهد نفسه في خطة من الخطط حتى يظن انه قد بلغ منها المنزلة التي يمتاز بها على اقرانه ويستاثر بالمدح دونهم. فيذهل عن العناية في حفظ الصحة واكتساب ما يصلحه من الدنيا. وربما استنكف عن

الانقياد لمن هو اعلى منه يداً وعده مذلة وهواناً وحاسب الناس في معاملتهم اياه بمقدار ما يتوهم في نفسه وقد يحقد على من قصر له بشيء مما يتوهمه من ذلك . وربما ادخل على نفسه الهموم من جرى تقصيرهم فيه فيذيع امره بين الناس ويمقتونه لما في طباع البشر من كراهية الكبر والدعوى . وربما سعوا في سد ابواب الرزق كبحاً لجماحه ورغماً لانفه . وهو يكون في جميع ذلك قد استمسك بعرى المعنويات فتفوته الماديات وتختل عليه دنياه وتنتقض شرائط السعادة فتستحوذ عليه الهموم وتدب اليه العلل من حيث لا يدري فيذهب فريسة النفخة والدعوى

وللناس في تحقيق معنى السعادة مذاهب اخرى لو اردنا استقصاءها لما وسعنا هذا المقام وجلبنا على الحضور الملل والسأم وهو سبب من اسباب نقض الراحة التي هي من اخص ما نتعرف به السعادة غير انا نقول بالاختصار ان السعادة هي صلاح الحال بتغلب طيبات العيش على مكارهه ومقدارها عند صاحبها يعتبر بمقدار ما اوتيه من هذا التغلب . فعلى الطالب ان يراعي في طلبها دفع الباساء والحماية من طوارقها وابتغاء النعماء والاستكثار من اسبابها . ولا بد في الامرين من اعتبار حفظ الراحة والعافية واحراز المادة الكافية واكتساب المعرفة الوافية والفضيلة الصافية

وكيف تصلح حال المرء اذا اعتورته الادواء والعلل وعلاه الفقر والخصاصة واستولى عليه الجهل والغباوة وتجرد من الفضيلة ونبا بهِ الطبع عن الايناس . وماذا يا ترى يجدي اليسار اذا كانت العلل ناهكة والداء عقاماً والدواء عزيزاً بل ماذا تنفع مع ذلك نباهة الذكر ورفعة القدر وجميل الاحدوثة — قيل كان عبد الملك بن مروان ينادي من وراء الحجرة في

مرضه . يا اهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية . وقال ابن الرومي

اذا ما كساك الدهر سربال صحة ولم تخلُ من قوتٍ يحل ويقربُ
فلا تغبطن اهل الكثير فانما على قدر ما يعطيهم الدهر يسلبُ

وقيل ان فارة البيوت رأت فارة الصحراء في شدة ومحنة فقالت لها هلمَّ معي الى البيوت فان فيها انواع النعيم والخصب فذهبت معها وكان صاحب البيت قد هيأ لها الرصد فيه شحمة فاقتحمت لتاخذ الشحمة فامسكها الفخ فهلكت . وولت القارة البرية هاربة وهي تقول ارى نعمة وافرة وبلاءً شديداً . الا ان العافية والكفاف احب اليَّ من وفر يكون فيه الموت

ولا يخفى ان الصحة تقوم بالغذاء والكساء فاذا كان الغذاء وافياً منتظماً والكسوة موافقة ملائمة ظل البدن صحيحاً نشيطاً وان فسد احدهما او كلاهما اختل بذلك مزاج البدن وسرت اليه الادواء فقسدت الاحوال . ولا بد في الحصول على الغذاء والكسوة من اكتساب المال وتحصيل المادة الكافية منه لتنفق على مقتضيات البدن وتوفير اسباب الراحة فالدراهم مراهم تداوي كل جرح وتلأم كل صدع وهي عماد الحياة وقوام نظام الدنيا ومركب السعادة وبها نستخدم الطيبات وندفع الخبائث . وهي التي تكفينا ذلّ التكفف وتحفظ ماء الوجه . فاستكثروا من المال ما شئتم وانفقوه في وجوهه من وقاية الصحة وتوسيع المعرفة واكتساب الفضيلة وقد جاء في اقوال الحكماء . المال اما لك او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثة . فتلذذوا بطيبات ما رزقكم الله في الحياة الدنيا فان الله يحب ان يرى مثل نعمه على عباده وترفعوا عن الانهماك في الشهوات واصرفوا ما زاد من المال في وجوه البر والخير واصطناع المعروف واغاثة الملهوف

هذا واسباب الكسب متنوعة وجهاته متشعبة اشهرها الزراعة ولا بد فيها جميعها من تدبير العقل لان الله سبحانه وتعالى قد جعله لنا هادياً لتخير اقرب الاسباب ماخذاً واوفرها عائدةً واقلها عناءً ولذلك كانت المعرفة من اهم اسباب السعادة والعمران . فبها تحفظ الصحة موجودة وتنشدها مفقودة . وبها ندفع الاوبئة الجائحة ونخفف اعياء الاعمال الفادحة ولولاها لما قوي الانسان على مغالبة الطبيعة وتحسين احوال المتاجر والمعامل فهي نبراس الاذهان وعماد الاعمال وريحانة النفس

والطيبات التي تقوم بها سعادة الدنيا على ضربين احدهما ما يفي بالحاجات البدنية من مثل الطعام اللذيذ والشراب السائغ والشميم الطيب والمناظر البديعة والالحان المطربة والاخر ما يفي بالمطالب النفسانية مما تنبسط له النفس من مثل هوى حبيب ولقاء قريب ونجاح سعي وادراك بغية — والناس متفاوتون في طلبها على حسب طبائعهم وعوائدهم فمنهم من يقنع بالبسيط منها ولا يتعرض للاستجادة والتانق كالبدوي الذي يسكن في بيتٍ من شعر مرفوع على اعواد من شجر لباسه من وَبر وطعامه من تمر وطيبه القطران وحلي زوجته الودع وصيده اليربوع وهو في مفازة لا يسمع فيها سوى صوت بومة او عواء ذئب . ومنهم من تغزر المادة لديه فيصرف ما يفيض منها للتانق في تلك الملاذ واستجادتها وربما زاد عليها ملاذ اخرى مما تدعو اليه احوال المدنية وعوائد الترف كاتقان الوضع وحسن الهندسة في المباني والتفنن في قماش البيت ومواعينه الى غير ذلك من دواعي التنعم والترف كالغناء واللهو والنقش والتصوير وقد يستحكم اعتياده لهذه الاشياء حتى لتنزل عنده منزلة الضروريات فيتنغص عيشه وتنقبض نفسهُ اذا

فاته شيءٌ منها

واسعد الناس اوسعهم معرفة واكملهم علماً باحوال الطبيعة واسبابها ونتائج اعمالها . وهو الذي يكون من العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته فلا يغلط في اعتقاد ولا يشك في حقيقةومن ثم ينظم احواله ويرتب افعاله واهواءه حتى لا تتغالب بل تصدر جميعها منتظمةً منطبقةً على شرائط السعادة الاهم منها فالاهم

القبور

« بقلم عزتلو الياس افندي جرجس طراد »

ما نفعُ ميتٍ بقصرٍ يشادُ فوقَ ثراهُ
ان لم تشيد مقاماً الى الثوابِ يداهُ

ان اردت مشهداً يذيب فؤادك اسفا . ويقطع احشاءك لهفا . فاذهب الى المقابر وانظر ما هنالك من ابنية شائقة تظنها عن بعدٍ قصورا ثم تدنو فلا ترى الا ارماساً وقبوراً

ترى كنوز الاموال مدفونة في الارض والبائسون من بني الارض لا يملكون بلغةً يسدون بها رمق الجوع

تنظر الميت راقداً في ابهى منزل من البهجة والرواء والحيُّ المسكين منقلب على فراش الألم والعناء

تجد القبر مكسوّاً بحلةٍ زاهية وبيت الفقير عارٍ من حصيرٍ بالية فكيف تشاهد هذه المناظر ولا تنفطر منك المرائر

سل من بنوا هذه المنازل يجيبوك انا من ذوي الوجاهة والثروة فما ضرَّ لو انفقنا اموالنا كيف نشاء قل بئس ما تزعمون ان الله لم يأمركم ان تنفقوا اموالكم الاّ بما به الاجر تغنمون

وان قالوا ان في ذلك احياء ذكر الفقيد قل ليس احياء الذكر بما من القبور تبنون · ولا بما من القصور تقيمون بل ببناء بيوت البر والاحسان فان بناها الميت من قبل والاَّ فلا يجديه نفعاً كل ما تصفون

وان ادعوا ان لهُ في ذلك مجدا قل اي مجدٍ من بناية تشير الى ان صاحبها كان غنياً والناسُ بفضله لايتحدثون

ولرؤية اثارٍ لهُ تستدر عليه الرحمة خيرٌ من رؤية قبره الفسيح عندمن يبصرون

أقال ربك السعيد من اتخذ من القصور قبرا ام قال هو من نال من سمائه أجرا

أيقالُ رحم الله فلاناً انهُ من الاغنياء ان لم يكن غناه مقروناً بالبذل والسخاء

وهنا اسأل العفو من اغنياء بلادنا غير منكرٍ ما يجود به الكثير منهم في سبيل البر والاحسان الاَّ اني اقول ما ضرَّهم لو ضموا الى حسناتهم ما ينفقونهُ فيما لا يكسب اجرًا ولا ينيل ثوابا او ليس بناء مدرسةٍ عن نفس الفقيد لا تفتتح دروسها يومياً الاّ بالترحم عليه اومستشفى لا تلهج مرضاهُ الا بالدعاء الى الله للاحسان اليه او سواهما من مآثر تذيع فضل الفقيد في اقطار العالم افضل من بهرجةٍ باطلة لا يعلم بها سوى مواطنيه

فان كان القصد من تلك الابنية المظاهرُ والمجد فما بالنا لا نطلبهُ من

حيث منفعة البلاد واحياء العباد

بل ربما آل الامرُ الى عكس ما نريد كالمؤلف الجاهل يكشف من امرهِ ما كان مخفيا فان في اقامة تربة للفقيد انفقت عليها الملايين دليلاً على انهُ من ذوي الثروة الطائلة فان لم يكن ذا مآثر قال الناظرُ الى تربته مات هذا الغني شقياً

وان قيل كيف يقدم احدٌ على تلك العادة وقد اصبحت فرضاً واجب الاداء بما اتصل الينا من التقليد فمن اهملها فقد عرّض نفسه للوم والتعنيف فاما ان ينسبوا اليه الشح او يرموه بالتفريط في واجباته نحو فقيده

قلت اما الشح فلا يقال عنهُ لان ما يوفرهُ من تلك الجهة ينفقهُ في مشروع ادبي او عمل خيري واما التفريط في موجباته فلا يظن به بعد ان يقيم عن نفس فقيده اثراً ينطق بفضله ويحيي لهُ ذكراً جميلا

فيا اغنياء البلاد ارايتم انكم لو جمعتم ما تجاوزتم به حد الواجب من النفقات على المدافن لكفى ذلك بناء الوف من المعاهد الخيرية والمنتديات العلمية

أأردتم ان تمتازوا عمن دونكم من الاحياء ولو بعد الممات او لا تعلمون ان لا امتياز الاّ بالاخلاق والآداب ولا رفعة الاّ بما فيه نيل الاجر والثواب وان كل نعيم زائل وكل شيء ما خلا الله باطل وفي خير القبور الدوارس عبرة لأولي الالباب ،

آداب المناقشة

« لسيادة الحبر العلامة المفضال المطران يوسف »
« دريان النائب البطريركي الماروني »

« الروضة عدد ٥١ تاريخ ٢٦ ك ١ سنة ١٩٠٣ »

ان من الاقوال المأثورة والمبادي الاولية الراهنة التي لا تحتمل عند اهل النطق ارتياباً ولا يجوز فيها مناقشة عند اهل الادب لقولاً شائعاً هو « ان الحقيقة بنت البحث » :

اما البحث عن الحقائق الغامضة فهو من اجلّ مقاصد الخاصة من اهل العلم والادب الذين احيوا الليالي وصرفوا اطيب حياتهم وبذلوا النفس وكل نفيس في سبيله خدمة للحقائق وللانسانية وهو على ضروب شتى افضلها ما كان بالقياس المنطقي بحيث تصدر النتائج القويمة عن مقدمات صحيحة راهنة لا يختلف فيها اثنان اما اذا كانت المقدمات مما يرتاب في صحته فينال النتائج من الريب والقلق ما ينال المقدمات بلا محالة · ومن هنا تتولد المناقشات والمجادلات بين العلماء وبواسطتها يظهر غث الكلام من سمينه فيتقرر الحق في جانب من كان كلامه وبراهينه ومستنداته وبيناته ومقدماته ارصن وامكن وارسخ وابين او اقل ارتياباً وفاقاً لان النتائج التي تتقرر بها الحقيقة تستفيد قوتها من تلك المقدمات ولذلك ترى كلاً من المتناقشين على قضية من القضايا الغامضة يجهد نفسه في بيان صحة مقدماته وضعف مقدمات مناظريه حتى يثبت نتيجته ويسقط نتائجهم بما امكن من البراهين

والبينات ٠ وهنا تتزاحم العقول السنية ويتسابق اهل الاجتهاد في الدرس والمراجعات والتنقير والتنقيب والبحث والتفتيش عما يثبتون به مقدماتهم ويذودون عن حياضها حتى يصدعوا اخيرًا بصحة نتائجهم او قضاياهم التي يتناقشون عليها وهكذا يذهب كل فريق من طريق باذلا قصارى جهده وجده باخلاص نية وقوام قصد سعياً وراء الحقيقة ٠ وقد يتوفق بعضهم الى اكتشاف شيء جديد مما يفيد في اثبات القضية في الجدال وبعضهم الى غيره ويعرضه بعضهم على حكم العقل والذكاء ويعارضه بعضهم وهكذا جميعهم يتعاونون في خدمة العلم والادب ويتناقشون في اخلاص هذه الخدمة وكلهم غايتهم واحدة شريفة وهم اخوان لام واحدة هي الحقيقة بنت الحكمة الازلية

ومن ثم ترتب مثل هولاء ان يكونوا مجردين عن كل هوًى وخيلاء ومنزهين في ابحاثهم وكلامهم عن الزيغ والمراوغة وحب الذات مما قد ينزلهم منزلة الجهلة الذين تتبرا منهم الحكمة والفضيلة وان يكونوا مخلصي النية في كلما يتحرون درسه واثباته قصد النفع المطلوب من وراء هذا النصب حتى اذا توصلوا بكدهم وجدهم الى ضالتهم المنشودة نالوا الفخار وعلو المقام في المجتمع الانساني والاجر عند الله مما يؤدي بهم الى ان يحمدوا حسن المغبة وينسوا ما تجشموا من المشائق في هذا السبيل والعكس بالعكس لان المتناقشين اذا زاغوا عن هذه الطريقة المثلى ضلوا واضلوا الغير من السذج ونكبوا عن الحقيقة بحيث كلما توغلوا في المناقشة زادوا بعداً عنها وبذلك يتركون غايتهم الشريفة ويعمدون الى ما خالفها فيلجأون الى المغالطات المنطقية المذمومة ويفرغون الجهد في امتهان مناقشيهم وتقريعهم

واهانتهم واذلالهم بالكلام الساقط مما يفضي الى ما لا تحمد عقباه. فكأني بمثل هولاء يعتقدون انهم كلما بالغوا في امتهان مناظريهم واذلالهم يزيدون براهينهم قوة وبياناً وهذا مما يرفضه الذوق السليم ويمجه العلماء الراسخون من اهل الفضل بل هو من الامور المذمومة التي يرذلها الراي العام ولهذا قيل « لا تلتفت الى من قال بل الى ما قال » وهو قول من الحكمة بمكان كما لا يغرب عن ذي بصيرة :

وعندنا ان الذي يجتهد في الحط من قدر خصمه يحط بالاحرى من قدر نفسه لانه اذا كان مناظره منحط المقام الى الحد الذي يجتهد في ابلاغه اليه لا يليق به وهو الرجل الشهم الكريم والعالم المفضال ذو العقل الثاقب والراي الصائب كما يريد ان يظهر نفسه للناس ان يناقش مثل الرجل الذي يتحامل عليه هذا التحامل فلو تعقل لكان اجدر به ان يجتهد بالاولى في حفظ كرامة مناظره والاقرار بمقامه وفضله لينال الفخر بانه انما يناظر رجلاً مشهوراً بالفضل والعلم والذكاء والاجتهاد حتى اذا ظفر به بالبرهان وحسن البيان خدم الحقيقة ونفسه معاً وفاز بالمدح وطيب الثناء عند جلة العلماء وخطب رضى مناظره باللطف واللين وربما استجلبه الى رأيه من اهون سبيل :

ولهذا حذراً من وقوع احداث العلم والمناقشة في مثل هذا العيب المذموم الذي قد يدهورهم في قاع الضلال وضع العلماء الاعلام اصولاً وقواعد للمناظرات والمجادلات والمناقشات العلمية اخصها اعتبار الخصم ومنزلته من العلم ومقامه بين اهل الادب والاقرار بفضله وتنزيهه عن الهوى وحسن الظن به ما امكن وسمحت الحقيقة ثم الاخلاص في ايراد كلامه وبراهينه التي

نُقصد معارضتها وفي الروايات التي يستند اليها في ذلك : ومن الامور المحمودة جداً في المناقشة ان يلخص المعارض القضية التي يدور عليها الجدال ويبينها بايجاز ويضعها نصب عينيه في بحثه حتى تكون غاية بيانه من حيث الصحة وعدمها على ما يريد وتريد الحقيقة وتكون هي نتيجة براهينه وبيناته بحيث يسلك في كل ذلك مسلك الصدق والوضوح على ما تقتضي قواعد الاقيسة المنطقية الصحيحة التي عليها المعوّل في صحة البرهان

ومن الناس من ياخذ القضية التي عليها الجدال فيجعلها مقدمة لنتائجه مع انها غاية المناقشة مما يجب اثباته او رفضه ومنهم من يبني مقدماته على اساس هارٍ كالافتراضات الغير المعقولة او الواهنة فيستخلص منها نتائج صحيحة راهنة وهذا من باب المغالطة المنطقية التي لا تكون مقصودة وانما جاءت من باب الذهول عن الموضوع وعن طبع المقدمات مما يذهب بالتعب سدى ويشوه محيا الحقيقة فعلى المتناظرين والحالة هذه ان ينتبهوا جهد المستطاع الى هذا الخلل في الجدال الذي قد يبعث الى المكابرة في الحق الواضح ويبلغ بهم من حيث لا يدرون الى مس العواطف الشخصية وهذا مما جاء رفضه وذمه عند اهل الادب على ما ذكرنا آنفا : فاحرى اذاً بالمتعارضين ان يدرسوا اولاً كلام خصمهم حق دراسته ويتبحروا فيه ويتدبروه حق تدبره ويلخصوه في ذهنهم حتى يتشربه ويهضمه ويعرف مواطن الضعف منه وكيف وجه معارضتها وبعد ذلك يكتب المناقش منهم ما يراه مناسباً للمقام والموضوع الذي بين يديه بحسب الاصول متحامياً ما امكن كل عثور في ميدان الجدال حتى يدرك الغاية المقصودة سالماً :

ولا ينكر ما في المجادلات من الحيل الادبية البديعة الا ان ذلك مما

يتعلق بفن الانشاء واساليبه اللطيفة كأن يجتهد الكاتب في ابراز الموضوع او القضية المتناقش عليها في قالب ابين للعيان او في تقليب البراهين والادلة التي يعارضها وتجريدها من الكلام المزين الذي يستر بعض الاحايين وهنها حتى يظهر المحال او ما شاكله منها ولكن بحيث يضيء نور الادب من خلال كلامه ويتحامى تحريف المعاني وتزييفها واقتضابها والطعن في قائلها لانه ليس هو المقصود من المناقشة بل انما المقصود القضية التي يدافع عنها او يثبتها او ينقضها والبراهين التي يأتي بها لهذه الغاية :

فاذا توفرت كل هذه الشروط في الجدال لا يحق لمن يُعارَض كلامه ان يتعض و يستسلم الى اميال النفس الامّارة بالسوء فيحمل على معارضه كانه عدوه و يوسعه ملاماً وطعناً لئلا يظهر ضعفه وانغلابه له من حيث لا يدري : اما اذا كان لا بد من الانغلاب لقوة براهين الخصم الظافر فالصمت اولى بل احق باهل الفضل من العلماء وبخدمة الحقائق النبلاء واشرف كثيراً ان يقروا بخطاهم و يرجعوا الى الصواب بعد الاقتناع و يصرحوا بذلك دون خشية ولا استحياء حتى يعلم الناس انهم من اخلص المحبين للحقيقة المفاخرين بخدمتها وهذا حسبهم و يظهر ايضاً للملا اجمع ان مثل البحث المجرد عن الشوائب والمنزه عن كل جازم وناصب خليق ان يكون ابا الحقيقة وامها وهو حق بالاتباع

الصحف والصحافيون

« بقلم الاديب جرجي افندي نقولا باز »

الصحف رسالة خالدة

(البابا لاون الثالث عشر)

يجب ان تكون قاعدة اصحاب الصحف كن صادقاً ولا تخف

(اللورد روزبري)

اهم ما يحتاج اليه القرن العشرون ان تستقيم الصحف وتترفع عن الدنايا

(اوريل مكس)

ما ألام في البيت تربي اولادها · ولا المعلم في المدرسة يثقف تلامذته · ولا الخطيب على المنبر يخلب ألباب سامعيه ولا الممثل في المرسح يتلاعب باذهان الحضور باكثر تأثيراً في سيرة المجتمع الانساني من الصحافي في صحيفته · ولا الجمعيات العلمية توسع مدارك اعضائها · ولا النوادي الادبية ترفع مبادئ جلسائها · ولا معاشرة الجنسين تكسب المرء لطفاً وظرفاً وادباً ورقةً · ولا الحب العذري يهذب النفس ويدمث الفكر وينزه العواطف ويبعث الادب باعظم مرقي لاخلاق الامة من الصحف الصادقة ولا الاب الرؤف يدرأ عن بنيه الشر ويمهد لهم سبل المستقبل · ولا الكاهن الصالح يرشد رعيته الى التقى والخير باشد نفعاً للجمهور من الصحافي المستقيم

ولا الطبيعة بجميل مناظرها واريج ازهارها بانزه لفكر المتعلم واسرّ لخاطر المتهذب من الصحف بجميل مواضيعها وتفنن اساليبها وسلاسة تعابيرها ·

الطبيعة تهب الصحة والجمال بنقي هوائها وعذوبة مائها وهذه تهب العلم والادب بثمرات مباحثها وصائب ارائها . ولا الشمس في الفضاء تنير الكون وتبث الحرارة في الارض وتبعث جمال الروض والغدير بافعل من الصحف في الهيئة تنير العقل وتبث الهمة في النفس وتبعث الحزم والعزم والاقدام

ولا مغازلة الحسان وارتشاف كؤوس بنت الدنان وامتلاء الاردان من الاصفر الرنان وركوب المركبات واعتلاء صهوات الجياد والتانق بالثياب وحمل « البستونة او الباكيت » ورفع الشوارب وفرق الشعر والتضمخ بالطيوب باوفر حسناً للشبان من مغازلة الصحف وارتشاف كؤوس معانيها واملاء الذاكرة من صدق اياتها البينات ... ولا الثوب الرقيق الشفاف والحراير والاطالس وباهر الحلى وثمين الحلل وشد «الكورسي» واعلاء كعب الحذاء واتباع مسير الازياء والبودرة والخضاب واظهار العنق والصدر والساعدين والانهماك بالتبرج والتصنع . باجمل زينة لربة الجنس اللطيف . من الانهماك بمطالعة الصحف والهيام باستنشاق عبير نفحاتها والاهتمام بالاستفادة منها وافادة البشرية

الصحف جمع صحيفة والصحيفة في اللغة قرطاس مكتوب وتطلق ايضاً في العرف على وجه او ورقة من كتاب . والمقصود منها بكلامنا الان قطعة ورق تختلف حجماً وقداً تطبع وتنشر في اوقات معينة هي ما يسمونها جريدة او غازتة او جرنال وان صدرت بهيئة كتاب تسمى مجلة والصحافيون هم اصحاب الصحف ومديروها ومحرروها ومراسلوها ومخبروها

الصحف نعمٌ كريمة نفحتها مخيلة التمدن والعلم . وازهار جميلة غرستها يد الفضل والادب فنشأت في رياض المدنية تسقى بدماء القلوب وتغذى

بذرات الادمعة وتنلالا بقطرات النفوس وشذاها المعطر الارجاء تنشره نسمات الافكار · واستثمرها دعاتها في حدائق الحضارة · لغرض سام ومقصد نبيل لتغذية النفوس وترقية العقول · لتدميث الاخلاق وتهذيب الامم · لتطهير القلوب وتنوير الافهام · لتقديم الشعوب ودفع العالم الى الامام · لذكر المكارم والمحامد وذم المحارم والمفاسد · لترغيب العامة بالحسنات وتبغيضهم بالسيئات · لنصر الفضيلة وخذل الرذيلة · لاظهار الحق وازهاق الباطل

الصحف على اختلاف اغراضها وتباين نزعاتها وجدت لتكون مرشداً اميناً للمرء في سبيل الحياة يحث على كل عمل صالح ويندد بكل شيء طالح · وواعظاً ورعاً يصدق القول ويخلص النصح · وناظراً يقظاً يراقب حركات القوم فيقوّم اعواجها · وخطيباً جريئاً يناصب كل ماساء من عوائد الاجتماع حرباً عواناً · وعالماً حكيماً يستقري عوامل الضعف في الامة فيتلافاها · ونطاسياً ماهراً يبحث عن علل الانحطاط ويرتأي لها انجع العلاجات وفقيهاً لسناً يحامي عن الحقوق المهضومة · وقاضياً عادلاً حي الضمير لا يس ذمته بتلاعب الاهواء · وخادماً صادقاً لمساعدة الاعمال المهمة النافعة · وجوّابة يرود البلاد حاملاً احدث الانباء · ورسولاً غيوراً على بث المبادىء والتعاليم الصحيحة ونشر الافكار والآراء وايضاح غوامض العلم باساليب رشيقة وتقريبها من الاذهان بتعابير سلسة · ومؤرخاً محققاً يتحرى الصدق في ما يدون من حوادث البشر · وراوية ممتلىء الصدر من غرائب الوقائع وتعدد الاخبار ونديماً مسلياً بظريف نوادره ومضحك فكاهاته · ورفيقاً شهماً يأبى المداهنة والتمليق ويأنف من التزلف والتدليس وكتاباً مكرماً تتنزه صفحاته

عن كلمات البذأة والرياء وتعصم سطوره عن ادران التفخيم والكذب

الصحف مرآة الشعب ولسان حال الامة ... وكفى بما ينشر على صفحاتها من نفثات الاقلام وابتكارات المعاني وبنات الافكار واختلاف الحوادث بياناً بيناً عن حالة الجمهور ومقامه من درجات التمدن وما بلغه من صفات الانسانية الحقة

الصحف منائر ومحرروها شموع تحترق لانارة الناس فاين منا البستاني والاديب والنقاش واليازجي ونقلا والصالح والحداد والجاويش والشميل

الصحف من خير المسهلات لانتشار العمران ومن الضروريات لثبات قوامه وتوطيد اركانه . ولها عند القوم المتمدنين منزلة رفيعة فيطالعونها باسامي الاعتبار ويقراؤنها برغبة وشوق على اختلاف مراتبهم من هيئة الاجتماع . فالملكة فكتوريا كانت تغتنم فرص ساعات الفراغ لتطالع الصحف التي تنتخبها لها نساء القصر . وحافظ السلام القيصر اسكندر الثالث كان يصرف يومياً ساعة في مطالعة الصحف المهمة وقد بلغ من عظم رغبة خلفه جلالة القيصر نقولا الثاني بالاطلاع على منشورات الصحف انه عين مئتي كاتب من علماء الروس للتفتيش والتنقيب عن كافة الاخبار والحوادث التي تنشر في اللغة الروسية وهو يطالع ايضاً على اخبار اخر صحيفة فوضوية ومثله جلالة الامبراطور فرنسوا جوزيف فقد اعطى اوامر مشددة لكبار حاشيته بان يهيئوا له صحيفة يومية تشتمل على اهم المقالات السياسية وخلافها التي تنشر في اللغة النمسوية . والجلالة الامبراطور غليوم الثاني دائرة خاصة في نظارة الخارجية يطالع فيها الموظفون كل الصحف لينتقوا له منها كل ما تهمه معرفته . وما من كبير في هذه العصر يزدري بالصحف ويهمل قراءتها

الأماندر · وهكذا الملك في قصره والوزير في نظارته والامير في داره والانسة في خدرها والعقيلة امام سرير طفلها والصيرفي في(بنكه)والتاجر في محله والاسكاف في حانوته والفلاح في حقله والصانع في معمله والفقير في كوخه والحوذي في مركبته والملاح في باخرته · جميعهم يطالعون الصحف استفادةً وتفكهاً وقتلاً لاوقات الفراغ

عرف ابناء التمدن الحديث فضل الصحف فصاروا يعتمدون عليها في مشاريعهم واعمالهم مهما كانت علمية او ادبية او اجتماعية او تجارية او صناعية او زراعية او دينية او سياسية واستخدمها عظماؤهم في بث افكارهم بين الجمهور لترقيته او لتدريبه على السنن التي يرتأونها لمنفعته او لمنفعتهم الخصوصية · وما من احد يستطيع انكار فعلها وتأثيرها وهي التي جعلت نابوليون الثالث امبراطوراً · وهي التي ساعدت بسمرك على ضم امراء المانيا وتأسيس امبراطورية عظيمة · وهي التي اضطرت كازيمير بريه للاستقالة من رئاسة الجمهورية الفرنساوية وأقامت فليكس فور مكانه · وهي التي الزمت السنيور روزانو وزير مالية ايطاليا ان ينتحر منذ شهرين · وما من وزير او حاكم في اوربا واميركا الاَّ وله صحيفة خصوصية او اكثر تطرئ مناقبه وتعضد وزارته وحكمه وهو يعتمد عليها بنشر افكاره السياسية واعماله القضائية وبلغ من كثرة احتياج القوم الى الصحف انهم جعلوا لها مدارس متقنة يعلم فيها فن الصحافة من انشاء وادارة واول من فعل ذلك المدرسة الجامعة الكاثوليكية في ليل بشمال فرنسا وذلك منذ ثمان سنوات وفي اواخر السنة الماضية وهب المستر بولتزر الاميركي مدرسة كولومبيا الجامعة مليون ريال لانشاء قسم يخصص لتعليم هذا الفن ووعد بمليون اخر يهبها اياه لهذه الغاية

وشدة انتشار الصحف بين الاوربيين والاميركيين دليل واضح على انهم مدفوعون للاقبال عليها بمؤثرات منها قوية والصحافة عندهم فن شريف ومقام الصحافي تتطأطئ له هام العلى · وخير برهان ما جرى اخيراً في باريس من الابهة والاحتفال بجنازة الشهير دي بلويتيز مكاتب صحيفة التمس في عاصمة الفرنسيس · وقد حكم مرة على الكونت راتزو صهر البرنس بسمرك لانه انتهر كاتب صحيفة ومنعه من مواجهة البرنس ليوافي صحيفته بانباء جديدة عنه · وقد قرر وزير الاشغال في بلاد نروج منذ ٥ سنوات ان تعفى اصحاب الصحف في بلاده من دفع اجور السكك الحديدية وسعى ايضاً في اعفائهم من دفع اجور السفن البحرية وقال — ان بهذا العمل خدمة عظيمة نخدم بها البلاد والامة لان الصحافيين لا هم لهم الاّ استطلاع الاخبار واستنشاق الانباء ونشرها فاذا سهلنا لهم وسائل الانتقال واسباب الاستخبار كنا نخدمهم خدمة يردونها علينا اضعافاً بنشر اخبار البلاد وانارتنا في امور كثيرة لا يمكننا الاطلاع عليها لولاهم

الصحف تذيع المآثر وتخلد الاثار ولا عجب ان رأينا العلماء والفلاسفة والكبراء والاشراف والاغنياء والعظماء من بني الغرب يتسارعون الى مراسلتها ومساعدتها ويتقدمون الى التحرير فيها بهمة ورغبة وسرور ويضحون لذلك ساعات الرياضة والراحة وخصوصاً من كنّ مجالي الافكار الرقيقة ومعادن التصورات الجميلة ذوات الاراء الصائبة والعقول الثاقبة والذكاء والعلم من بنات حواء · · · · هذه فكتوريا ملكة الانكليز قد تركت من الآثار الادبية في الصحف ما يجمل ذكره ويطيب نشره ولابنتها البرنسس هيلانه من المقالات الجميلة في مجلة العالم النسائي ما يزري بعقود

الجمان · ولقرينة ملك رومانيا المشهورة باسم كارمن سيلفا نفثات اقلام تفعل في النفس فعل الراح في الجسد · وقد كان لحافظ السلام وله بنشر افكاره في الصحف بعد عرضها على اكاديمية بطرسبرج ونوالها الاستحسان · والامبراطور نابليون الثالث كان يوشي صفحات اكثر الصحف ببنات افكاره منذ كان شابًا ولم يكف عن ذلك بعد ان جلس على سرير الملك · وجلالة اوسكار الثاني ملك اسوج ونروج لم يزل يحرر في مجلة ثانيتنس سانتشوري الانكليزية ولم ينقطع غلادستون العظيم عن الكتابة في الصحف الى اواخر حياته مع كثرة اشغاله واهميتها ويوجد في نيوزيلاندا صحيفة ينشئها ملك البلاد (التوهياو) · · وكما ان الملوك والاشراف يشرفون الصحف ببنات افكارهم ومداد يراعهم ويعلون قدرها بحرارتهم كذلك هي تشرف الصحافي وتعلي قدره وترفعه الى المقامات العليا فمن الصحافيين الوزراء والنواب والولاة ومنهم اصحاب الرتب والنياشين وذوو الاموال المثريين وحسبنا المقام الرفيع الذي بلغه المستر ستد مدير مجلة المجلات الانكليزية والشهرة الفائقة التي حازها والاعتبار الجزيل الذي ناله من الملوك والعظماء في الشرق والغرب · ومن نظر اولي المناصب وارباب المقامات الكبيرة يتزاحمون على مصافاة الصحافيين وخطب ودادهم كما فعل فليكس فور اذ رام التقرب من مدير صحيفة البتي باريزين المسيو جان ديبوي (الذي صار فيما بعد وزير الزراعة في فرنسا) وتمنى منه المناصرة لمركزه (رئاسة الجمهورية) ومعاضدته في اعماله · او من رأى الامراء تتسابق لحضور الاحتفات العظيمة النادرة بصفة مراسلي صحف كما كان في حفلات فتح ترعة السويس ويوبيلي الملكة فكتوريا والبابا لاون الثالث عشر وتتويج قيصر الروس وملك الانكليز ونصب تماثيل المشاهير كهكسلي وباستير وجول سيمون

ودلسبس وغيرهم ادرك جيداً اهمية الصحف واعتبار الصحافيين

الصحف من اجمل اثار الارتقاء ومن انفع العوامل لصالح البشر . لها عند الناس خدم تذكر فتشكر وفضلها عليهم لا ينكر . نشأت والغاية العمومية مبدأها والخير العام رائدها .. غادة هيفاء شبت ونمت وارتقت غير حافلة بما قام في سبيلها من العقبات بل داست المصاعب واجتازت الاودية الوعرة وتسنمت الجبال الشاقة وتعرضت للمخاطر وتحملت الاوصاب والمتاعب . وما برحت تقاوم وتناضل حتى بلغت مقامها العالي ونالت سلطة منيعة لا ينازعها منازع في التأثير بعقول القوم وافكارهم واعمالهم

قال العلامة الدكتور صروف — لو تتبعت اثار ما يكتب وينشر في كل يوم في البلدان المتمدنة لرأيت نصف افعال الناس وارائهم ناتجاً عما يقرأون

الصحف شعلة نور اضرمتها المدنية وبعثتها من عالم الخفاء ضئيلة في بادئ الامر فكانت كلما هبت عليها الرياح العاصفة وانهالت سيول المعاكسات تزيدها نوراً ولمعاناً . الى ان امست مناراً تستضيء به الهيئة في ظلمات الجهل فتتقي العثرة والسقوط وتهتدي في المسير الى العلاء (١)

. . . .

والصحافيون وما من ينكر عليهم علو الهمة والاقدام والثقة بالنفس والاعتماد على الذات . اناس لا يقتحمون ساحات الصحافة ويتجاولون في ميادين الاقلام ويتعرضون لالسنة الانتقاد ويتحملون مسؤولية الامة التي هم مشخصوها الا وهم عارفون حق المعرفة صفات الصحف الحقة ولكن هل

---

(١) هنا اتى حضرة الكاتب الاديب على تاريخ الصحف ووصف عددها الذي كل الامم ونوع التفنن في انشائها باسهاب يضيق بنا المقام عن ذكره

تظنهم يثابرون على هذه الخطط ويسيرون بموجبها تماماً ؟ . . وجّه النظر الى عامة الصحف وامعن الفكر في ما تراه من اقوال اصحابها وارائهم المطبوعة على القرطاس وقطرات دماء محرريها الجامدة على الورق فهل تراهم قاموا بواجبات الصحافة حق القيام ؟ . . كلاً . . لم يتبعوا امراً من غاياتها الا وتركوا اموراً ولم يتمموا واجباً من واجباتها الاً واخلوا بواجبات . ولم يسيروا في سبيلها النافع قدماً الى الامام الاً وعادوا اقداماً الى الوراء

كم من صحافيين نزلوا عن عروش الصحافة الذهبية وتمرغوا في وحولها القذرة فابتذلوا مهنتهم السامية وجعلوها سلعة للتاجرة والربح الغير حلال ودنسوا صحفهم بالبذاءة والدناءة واثروا مصالحهم الخاصة على مصالح الجمهور العامة وغالوا وكذبوا وباعوا الضمير وضحوا الادبيات على مذابح الماديات . الا تراهم يثيرون الشرور ويثلموا الاعراض وينمون ويغتابون ويتهجمون ويراوغون ويداهنون ويشحنون اعمدة الصحف تفخيماً وتمليقاً او سباً وشتماً وكلاماً فارغاً الا تراهم . . . الا ترى الا . .

الصحافيون في كل الارض قلما يسيرون على طرق الصحافة المستقيمة . ها عقلاء الغرب يتشكون من تحاملهم الزائد وتطرفهم الشائن ومداخلاتهم المضرة ونسبتهم الى الناس السرقة والغش والكذب والجهل الى غير ذلك من سيء الامور ها كتابات رشفور وكاسنياك ودريمون وميافوا وديروليد في صحف الافرنسيس اكثرها تحاملاً وسباً وتطاولاً على مخالفيهم في السياسة والمبداء . ها مناظرت صحفنا العربية في سوريا ومصر واميركا والبرازيل . الارجنتين كلها ذم وقدح . كم تظنون عدد الصحف التي تتبع صفات الصحافة الحقيقة كالتيمس والطان والمناظر ؟ . . يخال البعض

ان عموم الصحف الغربية بالغة حد الاداب. متممة واجباتها كما يقتضي. ومن يطالع مقالة الصحافة الصفراء المدرجة في المقتطف المجلد ٢٢ صفحة ٦٦٦ يتأكد ما انتهت اليه حالة بعضها من السقوط الابتذال الدناءة وقلة الحياء. قال كاتب اوربي – ان صحفنا صارت عبارة عن باء حقيقي فان المدح والذم يكالان فيها بلاد دل وقد قتلوا الانتقاد الصحيح المبني على الصدق وحرية الضمير

وغني عن البيان ان الصحافة مهما نالت من مزيد الاستحسان لا تقف عند حد السقوط عند تغييرها الخطط الصحافية الشريفة. كم من صحيفة لا يكون لها من راس المال سوا اجتهاد الصحافي وحسن مبادئه وتفننه ورقة عباراته فتروج وتنتشر ثم لدى ادنى تغيير في خطتها تزول ثقة الناس منها. يقل اعتبارها

ولا اكتمك ايها القارئ الكريم ما كان يخالج افكاري من جهة الصحف. فقد كان لي فيها ثقة عمياء وكنت اعتقد ان الصحافي لا ينشر الا مايعتقد لا ما يريد. ولو اخطاء مرّة بقصد او بغير قصد لعاد حالاً واصلح خطاه او لما تأخر زملاؤه عن اصلاحه حباً بالحقيقة. ولكني بعد احياء عشر سنوات في مطالعتها (على اختلاف مواضيعها) وتضييع جانباً من قوى البصر بين صفحاتها وتقليبها ظهراً لبطن. وسبر غور الصحافيين ودرس اخلاقهم واختبار خلهم من خمرهم. رأيت ما يسيء بمقدار ما يسر رأيت اشكالاً والواناً تلاعباً. رياءً مدحاً. قدحاً وشكراً وذماً

رأيت من الصحافيين من يتخذ المهنة سبيلاً لا ستدرار النضار. فيوءلّهُ الذهب ويغض النظر عن الغاية العمومية. يتحامل على الكبراء ويتهجم

على الاغنياء طمعاً بدريهمات يسد بها فاه . بقية اشتراك يسمي الكذاب صادقاً والمحتال مستقيماً والدني شريفاً والجاهل عالماً والمرائي حراً والاحمق رزيناً والمفسد فاضلاً

رأيت منهم من يسدل على ضميره حجباً كثيفة كي لا يناله صوت تونيبه . فيتلاعب بالانباء ويروي الاخبار حسبما تشاء الاهواء

رأيت من يتعمد اساءة الحقيقة وتشويه الفضيلة خشية القوي او ارضاءً لصديق او قريب او وجيه او عظيم

رأيت من يحاول ارضاء كل الناس فيسؤهم ويسيء الى نفسه ولا يرضي احد يدوس المبدا ويضحي الضمير استجلاباً لاعتبار جماعة البعد عنهم اولى

رأيت من يحض على التعصب الطائفي ويتخذ الدين آلة للشهرة وستاراً يخفي وراءه فاسد اقواله وسيء ارائه

رأيت من يدعي الحق وينسب العصمة لنفسه ولغيره الكذب والخطاء ويسعى لتأييد قوله بالخلط والنفاق فيسير على غير هدى ويضحي كل شيء عنه فدى

رأيت من يتداخل بامور العائلات الخصوصية فينم ويغتاب ويقذف شتائم كالسيل ويوشي اسطره ببذاءة وافتراء منتقداً السيئات لحزازات في الصدور لا لافادة الجمهور فيلوم وينكت ويبكت انتقاماً من اناس على غير مذهبه

رأيت من يؤثر الاجنبي على الوطني ويفضل زيداً على عبيد بلا مزية ولا استحقاق ويحرض على الانقسام والتشيع

رأيت من يصفك بكل الصفات الحميدة وانت في عالي مقامك وواسع

ثروتك ونفوذ كلمتك وان زلت بك القدم وجار عليك الزمن لا يمد يده لمساعدتك بل يزيد في عمق حفرتك منقلباً مع الاهواء اليوم معك وغداً عليك

رأيت من ينكر الفضل على ذويه ويعزوه لمن هو براء منه فينسب الحق والخير والاداب لوجيه في عائلة او بلدة ويدعوه مجلى محامدها ومرآة فضلها وهو لربما اتخذ وجاهته على ظهور اقربائه ومواطنيه بالغش والسعاية والاستبداد والاحتيال

رأيت من يرفع شأن الخامل الوضيع نكاية بشهم رفيع ويجامل صاحب المنصب رغبة في نفوذ كلمة (كذا) فيثني على العاتي ويمدح الممقوت · يذكر اقل حسنة ويتغاضى عن اكبر سيئة لاغراض في النفس وتشفياً من قوم خالهم مبغضين

رأيت من يباهي بان الحكومة والجمعية الادمية اصغت لمقالته وعملت بما اشار به وهي تكون قد افتكرت بما قال واعدت مواد العمل قبل ان يفتكر ويقول باعوام

رأيت من لا يوفي الناس حقهم من الوصف لا في الحياة ولا بعد الممات ولا يحسن الاطراء عند ذكر الحوادث المهمة او الذم

رأيت من تملكت منه الجبانة فيخشى في الحق لومة اقل لائم · ولمثل هذا قال كاتب عربي في الولايات المتحدة ــ الصحافي الذي لا يضطهد ولا تسلب امواله ولا يشتم ولا يعير في خدمته للمبادئ الصحيحة لا يكون خليقاً بالافتخار · وكما ان اثار الجراحات في الجندي ادلة على شجاعته واقدامه واخلاصه كذلك العذابات والخسائر والاهانات للصحافي ادلة على جرأته وصدقه ووطنيته

ورأيت من الصحافيين من يعد بنشر المقالات المهمة والاخبار الخطيرة ثم لا يفي

ورأيت منهم من يجهل الجغرافيا والتاريخ واكثر العلوم والمواد الادبية اللازمة للصحافة

ورأيت من يتقعر في اللغة وينتقي الكلمات المهجورة التي تأنف منها الاسماع ولم تألفها الاذان ويحتاج مطالعها لحمل القاموس

ورأيت من ينشيء الصحيفة وعدته قليلة من الادبيات والماديات والمعارف والاطلاع فيتظاهر بمظاهر الكبر ويعد الوعود الفارغة ثم لا يصدر منها بضع اعداد الاّ ويقع تحت طائلة الافلاس

ورأيت منهم مع الاستغراب ذوي مبادئ صحيحة لا تعيش صحفهم كثيراً ومن هم على جانب من المبادي تعيش صحفهم اكثر ومن هم بلا مبادئ تحيا طويلاً ...

ورأيت ما لا يمكنني ذكره الان مراعاة للاحوال الحاضرة

ولا انكر ما رايته عن علائم اتعاب الصحافيين وغيرتهم على الصالح العام وتفانيهم في الخدمة العمومية وعمل كل ما يستطيعون عمله وتمكنهم منه ظروف الزمان والمكان . ولكن وجود السيئات مع المحاسن امر مضر شائن يخشى منه كثيراً في الحاضر وفي المستقبل

اما ما رايته من تزاحم بعض القوم على الصحف فحدث ولا حرج فمنهم السذَّج يثقون بكل ما تكتب والجهلة يسرون بالمناظرات الفاسدة والادباء يعكفون على النفثات الادبية والمباحث الاجتماعية والعلماء ينصبون على المقالات العلمية العالية المهمة والعقلاء ياخذون الحسنات ويتركون السيئات وذوي المبادئ النزيهة يأنفون من الرياء . والمحافظين ينكرون الجديد والعصريين يهربون من التقليد والمحققين يكرهون الغلو والمزيد

. . . .

فيا قوم هداكم الله كيف ترجون التقدم اذا ساءسيرالصحف وخالفت الواجب الذي من اجله وجدت . واذا كان الصحافي يبيع ذمته ويغلق دون الضمير ابواباً فاي منقلب تنقلبون . . . تقدم معنا ان الصحافي ليس باقل تاثيراً في سيرة المجتمع الانساني من الام والمعلم والخطيب والممثل وانه لا يقل افادة للجمهور عن الاب والكاهن . وقلنا ان الصحف تفعل في الهيئة فعل الشمس في الطبيعة وترقي الاخلاق ترقية الجمعيات العلمية والنوادي الادبيةومعاشرةالجنسين والحب العذري . وبيناواجباتهاومقتضياتهاباسهاب . ولكن اذا كان الصحافيون مرائين وغير اهل للصحافة وصحفهم على ما ذكرنا فكيف اذاً ترتقي الامة . وكيف تبلغ اوج العمران بالام الجاهلة والمعلم الاحمق والخطيب القصير الحجة والممثل المتكلف والاب الجاهل القاسي والكاهن الغير ورع ؟ من يسر بالشمس ضئيلةالنور ؟ من يستفيدمن النوادي الغير ادبية . اي شعب يرضى بان تكون مرآته مغشاة . اي امة تقبل ان يكون لسان حالها الكذب والنفاق والشر

. . . .

فيا هداة الامم وقادة العقول يا ارباب الصحف ومحرريها دعوا العقل يتسلط على العواطف والاهواء وامتثلوا لصوت الضمير واصغوا لنداء الواجب . وتحروا الصدق ما استطعتم في ما تنشرون . فان في الصدق نجاح الامة ومنجاة لكم ، حافظوا على شرف الخدمة وحق المهنة واتقوا الله في ما انتم فاعلون

الجرائد

« للشيخ سعيد افندي الخوري الشرتوني »

نقلاً عن الطبيب سنة ٨٥

ليس في الذرائع اللسانية ولا في الوسائل الكتابية شيء كالجرائد في احياء اللغة واصلاح العبارة واطلاق الفصيح من سجن الإغفال كما انه ليس أقدر منها على افساد الذوق واستعمال المستهجن. الا وان الجريدة خطيب اللغة الذي يتصل صوته الى اطراف العامر ويتلقى معظم الناس كلامهُ بالتسليم فان كان اربابها ممن كاشفهم العلم الواسع والبحث الدقيق باسرار اللغة واعانتهم الفطرة الزكية على التصرّف في المعاني ووجوه الكلام وكانوا ممن يدعون اللفظ فيجب مطيعاً انشأوا للأدب والكتابة دولةً عزيزة السلطان ممتدة الاكناف تنشر لواءها في كل صقع من الارض بما تبثّ بين الناس من الفوائد وتجلو عليهم من الدقائق وتجيز كتّابهم بالتنويه والذكر الحسن

ولكن اذا كان كتابها واهين عن الاضطلاع قاصرين عن اعطائها حقها من حسن البيان وتهذيب الكلام وموافقة الاحوال جنت على الادب والكتابة جناية كبيرة وارخت من تشويش عبارتها وهُجنة لغتها على محيا البلاغة سجوفاً وعلى وجه الفصاحة سدولاً بحيث لا يمرّ طويل من الدهر حتى تزايل القلم اركان محاسنه وتسقط دعائم بلاغته وتصبح كأن لم يسبق بها عهد

على ان جرائدنا والحمد لله مع تفاوتها في اغراض الكتابة واختلافها في مراتب العبارة قد ايقظت الفصاحة من رقدتها واقامت

البلاغة من ضجعتها بما نبهت الناس الى العناية بامر الانشاء واوجب عليهم ان يأخذوا له حفلته ويقدروه قدره • ومن اعاد النظر الى حالة القلم منذ ثلاثين سنة وقابلها بحالتها في يومنا هذا عرف ما اجدت الجرائد ورأى ما جرّت من الفوائد وتبيّن ما فعلت هذه المنشورات في خلال عهد قصير لم تكن البلاد في اوائله مطيقةً اجتناء فوائدها ولا خليقة بأن تذوق شهد عوائدها كما هي الى اليوم ولم يكُ ذلك الا عن قلة عداد الدارسين وخدمة العلم واين حالها تلك مما نراه من حالها اليوم وقد تعددت المدارس وكثر سواد الطلاب وراجت سوق الاقلام حتى اوشك ان يكون في كل بيت للعلم طالب وللبلاغة عاشق وللجرائد متيم يتشوّفون الى تسريح النواظر في رياضها النواضر ويرقبون ظهورها رقبة هلال العيد ليتنسموا أَرَج البلاغة عن ازهار سطورها ويبرّدوا لاعج الشوق باستطلاع أنبائها واستنشاء اخبارها ويغرسوا في النفوس سروغاً من فوائدها ويبسطوا شرك المطالعة لطير معارفها

وقرّاء الجرائد في بلادنا في زيادة سنةً بعد سنة كالشجرة الآخذة في النماء بزيادة من ينشأ فيها من الشبان المتعلمين خصوصاً وقد عرّفتهم الايام واثبت لذويهم الاختبار ان مطالعة الجرائد من انفع الامور لهم اذ تقفهم على فصيح الكتابات وتعرّفهم مناهج الانشاء واساليب التعريب فضلاً عما تصونهم عن اضاعة اعزّ اوقاتهم فيما لا يجنون منه فائدة ولا يحلون منه بطائل • وهذا من الدواعي الموجبة على الجرائد نزاهة العبارة عما يوسوس في الصدور كما يحسن بها ان توقظ الناس من الرقاد في دُجى عادات لهم ضائرة ومألوفات شائنة بحيث تكون حامية الادب وسيف التهذيب فانها تُعرَض على كل عين وتذهب الى كل أين فيتناولها الغبيّ والذكيّ وتدخل

حانوت التاجر ودير الراهب وغرفة الشابّ وحجلة العذراء · ولا يخفى ان الجرائد يتكرّر صدورها على ممرّ الايام فتؤثر في المطالع ما لا يؤثره سواها من المطالعات فيترتب على هذا وجوب النظر فيما تؤثره بحيث يكون حميد العاقبة جميل المغبّة وهي الخطة المتبعة عند اصحاب جرائدنا وكتّابها الادباء وفقهم الله الى ما به حياة الآداب وتهذيب الاخلاق

هذا ومن المعلوم ان الجرائد هي المبقية لآثارنا والمترجمة عن علومنا والمنبئة باخلاقنا والدالة على حضارتنا والمشيرة الى كل صفاتنا فهي بمنزلة تاريخ لجميع احوالنا ولهذا كانت جديرة بالمقام الاعلى من الاعتبار لان ما لا قدر له اليوم في اعيننا سيكون له شأن كبير عند اعقابنا يتعرّفون منه احوالنا ويستطلعون شؤوننا واحراها بذلك المجلات العلمية فانما هي الباقية في مستقبل الايام

ثم ان هذه المجلات اذا التُفِت اليها من حيث ما تتضمن من الفصول المهذبة والتقارير المدققة في كل علم من العلوم مما لا يتأتى لكثير من اهل الصناعة اكتشافه ولا يتسنى لذوي العلم ان يتوصلوا اليه بل مما عساه لم يخطر لاكثرهم توجيه الفكر اليه كانت خليقةً بان تُفضل على كثير من المؤلفات

ولا شك انه لم يزل في بعض العلوم دقائق لم تهتك الاقلام حجابها ولطائف لم تستشفها البصائر وعلى مسئلة واحدة لا يؤلف كتاب ولكن ينشأ خطاب وليقم في اعتقاد علمائنا ان ايضاح دقيقةٍ واحدةٍ من علم او كشف غامضة واحدة من فنٍّ اجدى واشرف من تأليف كتاب في العلوم التي لو جُمع ما أُلف فيها ونُضّد بعضه فوق بعض لجاء عن مجموعه

صرح شامخ

وقد كان نشر التقارير العلمية والمقالات الادبية والتاريخية قبل نشأة الجرائد امرًا معدومًا على غزارة نفعه وعزّة فائدته ومذ ظهرت دعت كتّاب البلاد واصحاب الذوق والعلم من كل أوب الى مشاركتها في بث الفوائد بنشر ما يزحزح الستائر وينير البصائر من المقالات والتقارير

ويتحصل مما الممت به في الكلام على الجرائد انها بمكان من الاعتبار من حيث اللغة والانشاء كما انها ذات مرتبة سنية من حيث التاريخ وتقرير الحوادث وانها من اكبر الادلة على التوغّل في الحضارة والبسطة في المعارف كما انها احسن قلادة تحلّى بها جيد هذا الزمان والسلام

كيف تعظم الامم

« لامين افندي ضاهر خيرالله »

« نقلاً عن المنار »

هو بحث انفس من الدر المنتظم عقودًا في جيد الحسناء · وازهى من القمر المتبلج بدرًا في الليلة الزهراء عنه يحسن البحث لا عن آثار بابل واليه تسري رحال الفكر لا الى حنية اللوى وبرقة عاقل · وعنه تتساءل الركبان · لا عن غزلان وجرة وظباء عسفان · وبه تبتهج العقول لا بمتنزهات البسيطة الاربع ومنه تخار العالم لا من عجائب الدنيا السبع · فاخلق بافهامنا ان تكتظ حفولاً به كحفول الاقوام قديمًا في سوق عكاظ وتصغي لرنة اقلام الكتّاب في هذا المطلب للباب كما كان اولئك القدماء يصيخون لانشاد الشعراء فانه بحث هام ومغاصه اكرم من مغاص المرجان في البحر

الهندي وتربته انفس من تربة كاونديك ارض الذهب ومناجمه اشرف من مناجم الالماس في كمبرلي فهناك الفائدة تختص بافراد قلائل وهذا البحث من نتائجه الخير عميم الشامل

تعظم الامم بعظمة افرادها كالجسم لا يكون قوياً الا اذا اشتد ساعداه وتصلبت اعصابه وعرض منكباه وبرز صدره وتركنت بنيته وانتظمت حركته الدموية بل الامم كالمعامل لا تعد منعية الا اذا كانت قواعدها صم الجنادل الصلاب ودعائمها الصخور الضخام وبنيانها ركين مكين يهزا بمرور الزمان ورأسها شامخ باذخ يربي على كيوان

واذا كانت عظمة الامم متوقفة على افرادها كما يتوقف البحث في قوة البنية على سلامة الاعضاء ومناعة الحصون على ركانة الدعائم كان الكلام في ذلك يجب ان يشرع به اولاً في الافراد ثم في الجماعات

ولا خلاف ان ارتقاء الافراد متوقف على مبادئهم وهذا المبادئ اما تكون عامة او خاصة

والمبادىء الخاصة هي ما يعالج به كل انسان نفسه من السجايا الحميدة والاخلاق الدمثة والنظر في مستقبلات الامور وانتهاج سبل الحكمة في جميع الاعمال

والمبادىء العامة هي الاخاء وعرفان الجميل وصدق التابعية وكل هذا يمكننا ان نجمعه في كلمة واحدة وهي التكاتف

والتكاتف لا يكون بتمنيق الكلام كقطرات الندى على اكمام الغصون الناضرة ونفحات الصبا من عذبات الرياض الزاهرة فان الكلام كالاحلام تلم فوائدها كالم الطيف بالاجفان لتزول منافعه مع انتباه الوسنان . وانما

التكاتف بالقول والعمل وتأبيد السعي مستحب الامل . كالنتيجة المنطقية لا تكون يقينية الا من مقدمات يقينية وكالبلاغة الحقيقية لا تكون الا بتركيب رائق ومعنى شائق

فالتكاتف يكون بانصراف القلوب الى وجهة واحدة وامتداد الايدي الى غاية واحدة وسعي الاقدام الى مطاب واحد فاذا تم كل ذلك كان النجاح الواحد للامة وذاك النجاح يتجزاء لكل فرد من افرادها فينال كل واحد منها نصيباً

وهذا التكاتف الذي تعقد عليه القلوب كالزرد النضيد وتنصرف وراءه الهمم كجياد السباق وتقف النفس عليه آمالها كما يقف المسافر في البحر حياته على سلامة السفينة ويبذل لاجله الاموال والارواح كما يبذل الجندي حياته في طاعة مولاه هو بلا شك ناجم حكمة فما هذه الحكمة التي غرسته في حديقة المدنية وسقته مياه العناية حتى نما فاثمر هذا قطوف الجنية

والاخاء قائم بالالفة بين الكبير والصغير وصدق العاطفة بين الغني والفقير وعقد العزيمة على مناصرة كل مشروع مشكور واخلاص النية بطاعة اولياء الامور فيستتب النظام ويعم الامان وتحيا المتاجر والصنائع وتتزز موارد الارتزاق وذرائع الانتفاع ومن وراء ذلك الغنى واذا اقترن الغنى بتلك الالفة نتجت عظمة الامة التي هي قطب الاعمال واليها منصرف الآمال . ومنها سعادة الحال وكرامة المآل وبها ينال الذكر الجميل الذي يحيا مع الاجيال

فما هي الالفة يا ترى العلها الالتئام في الحدائق واليوم صافي الاديم والجو بمظهر وسيم والنرجس فاتر الاجفان والورد فائح العرف ارجواني الاردان

والبان مائس القوام والنور مطبق الاكمام والنسيم انعم من الحرير واذكى من العبير والماء ينبعث انبعاث الآمال في القلوب فينسج منه النسيم دروعاً وينتظم حبابه على صفحته عقوداً اوآلات الطرب يرقص لالحانها الجماد والمنشد المجيد يأخذ شدوه بالاكباد . وقد غصت تلك الروضة بالشيوخ والشبان والاولاد . لا لا ذلك في وادٍ والالفة الحقيقية في واد

ألعل الالفة الحقيقية الاجتماع في مراسح اللهو وملاعب المجون حيث يبرز اللاعبون بملابس غريبة ويتكلمون بامور مصطنعة وهم تارة يضحكون الثكلى بالعابهم وطوراً يضرمون القلوب سخطاً باكاذيبهم لا لا هناك معرض الازياء ومظاهر الرياء وانضمام الى تلك الزمر دفن للاخلاق الكريمة ونشر للمبادىء الذميمة ومن وراء ذلك فساد التربية وسقوط الآداب وانحطاط الشأن وذلك ما يقضي على الالفة الحقيقية ان لا تقوم لها قائمة

أفلعل الالفة ما نراه من التالب في حفل الافراح وليالي الرقص حيثما يختلط الجنسان وتنشد الالحان وتعزف ضاوع البيانو وتنطق السنة العيدان وتتصل الخصور بالايدي والايدي بالخصور وتفور الارض تحت اقدام الراقصين والراقصات ولا عجب اذا كانت تفور . لا لا ليس ذلك الفة وانما خروج عن دائرة الصواب يقضي على النزاهة والاداب . واي الفة فيما يليه ما لا يحمد تواليه

وانما الالفة في منتديات الاداب ومجالس لجان البر حيث يقف الخطيب يدير من بديع اقواله سلافاً تثمل العقول ويرسل من شمس فطنته ضياء تستنير به القطوب فتستضيء البصائر وتستفيق الخواطر وتهب تلك النفوس للاقدام في مضمار المدنية بعزيمة تدحر الجبال وتستسهل الاهوال في سبيل

الآمال وذاك ما يعرف بهمم الرجال

الالفة تكون بانتهاج كلها الجرائد خطة واحدة هي استنهاض العزائم الى المقاصد الشريفة واطالة الابحاث في المطالب المفيدة ونشر المقالات الطوال موعبة بالاراء السديدة وتسديد سهام الاقلام الى هدف الصالح العمومي دون اكتراث للاغراض الخاصة والتشيع للمآرب الشخصية

الالفة تنجم من حض الكبراء ذوي الكلمة النافذة من يلوذون بهم وينصاعون الى اشارتهم ان يسيروا على اقوم طريق من الاخلاد الى السكينة والابتعاد عن المزعجات والمكدرات واجتناب المحذورات والمحرمات واضعين امامهم نموذجاً كريماً وهو سيرهم بكل ذلك

هذه هي الالفة التي تولد اخاء وهي تسقط على القلوب كالندى المتساقط على الاغصان الزاهرة والازاهير العاطرة فينتشر عرفها الذكي وذلك العرف هو ما ندعوه عرفان الجميل

وعرفان الجميل يكون بان يحترم صغارنا كبارنا نريد بكبارنا اصحاب المروءة والفضل وارباب النبالة والسخاء وليس الذين يقومون خزاناً امناء لوراثهم يشحون بالدرهم الفرد في عمل برّ ويقبضون ايديهم عن صلة كل مشروع خيري فانهم قوم متمرغون في حمأة خطيئة البخل وقد قال الحكيم يشوع بن سيراخ « ليس بواجب ان نكرم رجلاً خاطئاً »

عرفان الجميل هو ان ننظر الى المحسنين واعمالهم فنثني عليهم ونمتدح غيرتهم ونطرىء اريحيتهم فتزداد بهم اميال الخير قوة وتشتد عزائمهم اقداماً في المطالب الكريمة العواقب الجليلة النتائج لان الزارع اذا وجد الارض خصيبة وصل نهاره بليله عاملاً في اصلاحها جاداً في اصطلاحها مكباً

على حراثتها لا يثنيه حر النهار ولا يلوي همته قر الليل لتيقنه ان وراء ذلك من الفائدة ما يهون عنده كل عسير ويقل بازائه كل مشقة

عرفان الجميل هو ان نقدر كل فرد قدره فلا نستلب حقوق المجتهدين ولا نغفل اتعاب العاملين ولا نغمط جميل المحسنين ولا نزدري بالمحتاج يقدم من حاجته قليلاً ازاء ما يقدمه المليُّ من سعته كثيراً فاننا نجد ان الرب يسوع اثنى على الارملة وهي لم تلق في الخزانة الا فلسين واعرض عن الثناء على الاغنياء الذين كانوا يلقون كثيراً وذلك لانهم من فضلتهم القوا اما هي فمع اعوازها القت كل ما عندها

وعرفان الجميل هذا اذا تدبرناه كان اول ما تنفتح اعيننا به على اجل ثماره في اخصب اغصان نعمته وهي طاعة الدولة الحاكمة والاستبسال في شأن اعلاء منارها وتعزيز صولتها وتأييد نفوذها

فان منزلة الدولة من رعاياها منزلة الوالد من بنيه فبعزه يعزون وبذله يذلون وفي راحته راحتهم وانخفاض قدره حطة في اقدارهم وخمول عليهم لا تقوم لهم معه قائمة في حلبة العمران

فان الدولة الحاكمة اذا تعززت صولتها وعلت كلمتها وتأيدت سطوتها تدفقت عليها موارد الثروة واشرقت على اصقاعها شموس النعمة وضرب في ظلالها الرغد قبابه وطنب الامن سرادقه وكل ذلك مواسم سعادات لرعاياها فالموارد غزيرة يستقي منها الغادي والرائح والشمس منيرة للمقيم والبارح والرغد فسيح الظلال يستفيء به الصغير والكبير والامن كريم المقام يرفل بابراده الغني والفقير فتروج اسباب الارتزاق بين الجميع على التساوي وانما يختلف القوم في الارباح بقدر ما يختلفون في العقول ومسببات النجاح

واذ عرفنا ان عظمتنا قائمة على الاخاء ساغ لنا ان نستنهض الهمم الى التضافر في هذا الميدان والتناصر في هذا الشان طالبين من اغنيائنا ان يرونا من مبراتهم ما يطيب نشره ويخلد في العالمين ذكره كانشاء المدارس الزراعية والصناعية . والامم النقاهس في مضمار المدنية الا تسير بنا عوامل الغيرة ما تذيعه جرائدنا ومجلاتنا في كل شهر بل في كل اسبوع عن اغنياء المالك الراقية في الحضارة فمنهم من يتبرع بالملايين على المدارس والمستشفيات ومنهم من يسني الجوائز الطائلة للاختراعات والاكتشافات ومنهم من يقف المبلغ الجم على بعض المقاصد الخيرية والمبادىء التهذيبية

فاين عرفاننا الجميل ونحن نرى بعضاً منا عاملاً في اخفاق مساعي اندادهم يخطئون اراءهم وان كانت صواباً ويهجنون مبادئهم وان كانت مستحسنة ويسلقونهم بألسنة احرّ من النار على ما لو انصفوا لاجزلوا لهم عليه المديح وقلدوهم لاجله اطواق الفخار

فاذا كنا ممن يرغبون في ان تكون امتهم عظيمة واحببنا السعة والجاه فلنتكاتف يداً واحدة ورأياً واحداً في مقصد واحد نمدح المحسن لحسناته ونشجب المسيء لسيئاته ونحترم كبيرنا الساعي في خير الجمهور وننشط صغيرنا الجاد في سبيل مشكور فنفوز بعدئذٍ بالرغاب لانه

اذا العبء الثقيل تداولته اكف القوم هان على الرقاب

كيف تنشىء الامة رجالاً

«له ايضاً»

عرف الانسان منذ نشأته ان السعادة ناجم الاتحاد والوئام والتكاتف والتضام فكان الجنس البشري جميعه عشيرة واحدة يسير جمعاء ويحل جمعاء حتى اذا حلوا بقعة في ارض شنعار استطابوا الاستيطان فيها نفخ الكبر في انوفهم فارتأوا ان يبنوا هناك مدينة ويشيدوا « برجاً رأسه بالسماء » ويجعلوا ذاك المقام مباءة لهم لا ينزحون عنها ولا يرحلون منهـا

وكانت حكمة الله تعالى جازمة بان يمتد ظل العمران حتى يختنق على جميع اطراف البسيطة فبلبل السنة البشر وعندئذٍ تعذر عليهم القيام معاً وهم لا يتفاهمون فانطلقت كل عشيرة الى جهة وشيدت فيها المآوي وحرثت ارضها لتستدر منها ما تعتاش به وبدأت المدنية تنمو مع نمو الجنس البشري الذي اضحت عشائره على توالي الايام امماً عظيمة

ثم لما كان للناس ملكات مختلفة فالبعض يميل الى رعاية المواشي والبعض راغب في حراثة الارض الى غير ذلك كان في التضام من الحكمة في جمع بواعث رغد العيش ما لا ينكر فنتج عنه التآلف ضرورة

ثم ان الاصقاع التي قطنتها اسباط الامم لكل منها خاصة فبعضهـا اجود تربة فكان اهلها ايسر حالاً واهناء معيشة وبعضها اجود مناخاً فكان سكانها اشد حولاً وانفذ صولة وبعضهـا اصلح للغراس فهي ادر مواسم واغزر غلالاً وبعضها اصلح لرعاية المواشي فهي اكثر نعماً وصوفاً الى غير ذلك مما لا مشاحة في صحته

وقد اوجد البشر لانفسهم بواعث للرحلة والنزوح عن الاوطان كالرغبة في استبدال ما لديهم بما هو ليس لديهم وكان يسيئون صنيعاً فيغضب الله عليهم وتجدب ارضهم او يحل بين ظهرانيهم وباً جارف ضيفاً ثقيلاً لا يرون للنجاة منه سبيلاً كالجلاء عن اوطانهم فيضربون في البسيطة شرقاً وغرباً في انتجاع موطن جديد وكان يرى الله كنود بعض الامم نعمته فيسلط عليهم امة اخرى تستلب خيرات ارضهم وتنزل عليهم عقاباً شديداً على ما اجترموه

فمن هنا نجد ان دواعي الحياة تقضي في كثير من ظروفها الى تداني الامم وعندئذٍ تجد الواحدة منها ان اقليم جارتها افضل من اقليمها فيدور في خلدها ان تنتزعها منها قسراً وترى الامة الثانية ان الامة التي تتاخمها اعظم ثروة واهنأ معيشة فتتوخى ان تغتصب ما بيدها غنيمة وربما ضاق باحدى الامم ارضها فطمعت ان تخرج الدولة التي تليها من ارضها وتضم تلك الارض الى حوزتها الى غير ذلك ومن جراء هذه البواعث تثور نار التشاحن في الصدور وتندفع عواملها الى الظهور فتدور رحى القتال والطعان وتكتسي الارض حلل الارجوان وينعب على بعض الاقطار غراب الخراب بعد ما كان يصدح في صروحه هزار العمران وعلى اثر ذلك تتسنم بعض الامم غارب المجد وتنحدر خصيمتها الى حضيض الهوان ولذلك كان على كل امة ان تعزز نفسها فلا ينشب بها مخلب غادر ولا تمتد اليهــا يد مفترٍ وتأمن غير الزمان وعبر الحدثان

واخذت الامم تعد الاعداد لدفع العوادي الشداد فابتدعت آلات الكفاح وابتنت المعاقل المنيعة للالتجاء اليها في الازمات ولاتقاء شر

النائبات . وعلاوة على ذلك فان الامم كلها رأت انها في حاجة ماسة الى الرجال

نريد بالرجال اولئك الافراد الذين يفضل واحدهم الالوف في اصالة الرأي وسمو الهمة ويغني فردهم عن فيلق كبير في اجتلاب المغانم ودفع الملمة والغنى بهم هو الغنى الحقيقي الذي لا يعد بازائه اقتناء المطهمات الجياد واكتناز الجواهر الكريمة شيئاً مذكوراً . والغنى بالرجال هو المرجح بعد نعمة الله في سعادة الممالك وبه تتأيد عروش الملوك كما قال بذلك موسى بن يوسف الزياني احد ملوك الاندلس واثبت ما قاله بالبرهان الاتي

« لما التقى المستعين بن هود (كبير ملوك الاندلس) مع الطاغية ابن ردمير على مدينة وشقة من بلاد الاندلس كان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يراهق عشرين الف مقاتل بين خيل ورجال . فلما دنا اللقاء قال الطاغية لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله استعلم من حضر في عسكر الاعداء من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع وقال فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال . ثم قال انظر الان من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم ومن حضر فعدوهم فوجدوهم ثمانية لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً وهو يقول يابياضك من يوم ثم ماجت الحرب فلم تزل المضاربة بين الفريقين ولم يول احد ولا تزحزح عن مقامه حتى فني اكثر العسكر ولم يفز احد منهم ولما كان وقت العصر نظر ابن ردمير ثم حمل علينا حملة ودخلوا دخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين اصحابنا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب الا ساعة ونحن في خسارة معهم فاشار مقدمو العسكر على

المستعين ان يتحول بنفسه فانكسر عسكره وتفرق جمعه وملك العدو مدينة وشقة . فليعتبر ذو العزم والبصيرة من جمع يحتوي على اربعين الف مقاتل ولم يحضر من الشجعان المعدودين الا خمسة عشر ويعتبر وثوق ابن ردمير بالظفر والغنيمة لما زاد في ابطاله رجل واحد »

فهذا الرجل الواحد الذي فضلت به احد الامتين الاخرى هو سيفها الذي فل السيوف وواحدها الذي هد الجحافل ورد الالوف واتاح لامته ان تنال امانيها وتقهر اعاديها وتنشر اعلامها على معاقل مدينة وشقة وتحمل اخصامها العار والخسار فضلاً عن الذلة والمشقة فظفر الامة بوجود رجل مثله ظفر بالنعمة والغنى والسعادة والهناء ورفعة الشان ونيل المنى

مثل هذا رجل من عنت الامم بان تكثر من بين بنيها من نظرائه لعلها ان تفوقها بواحد على نظيراتها ضمين لها بالغنم العظيم والمستقبل الكريم

على ان احوال الحياة متلونة وليست منعتها قائمة على الحرب وحدها فهي تحتاج رجال السلم كما تحتاج رجال الحرب والمشترع العادل في عرف الدول هو خير من القائد الصنديد يدلنا على ذلك ان الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي رجل عصره سأله امير حمص ان يشيد اسوارها ويقوي حصونها فكتب اليه « حصنها بالعدالة »

وعلى ذلك فالدولة تفتقر الى الحكيم العاقل كما تفتقر الى الشجاع الباسل وتعتز بالمحترف البارع كما تعتز بالقائد المغوار وتحتاج الخطيب اللسن كما تحتاج الى الجواد . والامة السعيدة الان من قام من بنيها مخترعون افاضل انتجت قرائحهم من الفوائد الطبية او الصناعية او العلمية ما لا نظير له لدى امة سوها فانها بذلك تمتطي صهوة الكرامة والاقتدار وتحظى باسمى

مكانة واعتبار وتفوز من المنافع العديدة بما لا تنيلها اياه مقارعة الابطال وبيع النفوس في سوق النزال

وادلتنا على ذلك كثيرة واليك بعضها ان باستور الحكيم الفاضل اولى امته من الغنى والاجلال والفضل العميم على الجنس البشري قاطبة باكتشافه دواء الكلب ما لا يماري به اديب من جميع امم الارض وهذا فتح لدولته عظيم ونصر كريم عاد عليها بالفخر وفتح لها قلوب الشعوب بالفضل وانطق السنتهم بالشكر وهو رئاسة معنوية كما لا يخفى. وافادها مادياً ان الامم اخذت تستجلب دواءه او تستخدم تلامذته في مدارسها الطبية او مستشفياتها لدفع عادية الكلب وكل درهم يناله فرنساوي من ثمن دواء باستور او راتب خدمة له لتعليمه مكتشف باستور هو وارد راساً الى خزينة فرنسا وعائد خير على ابناء فرنسا وجزية معنوية بصورة ادبية تنالها فرنسا بمظهر من التكريم . فهذا الرجل الذي اتاح لدولته ولابناء امته هذا الشان العظيم هو رجل فرنسا

ونجد ايضاً ان الخام والمضام مما لا غنى عنه لكبير او صغير يرد الينا من انكلترا فاخذنا هذه المنسوجات واستخدامنا اياها في لباسنا وبيوتنا هو فتح عظيم لانكلترا يعود عليها بالربحين المادي والادبي . المادي انها بذلك تحوز على مالنا بطريقة عادلة وهي طريقة البيع والشراء . والادبي انها تولد في نفوسنا احتراماً لها اذ ان التماسنا ما لا غنى لنا عنه من ارضها دليل على اقرارنا لابنائها بالسبق في مضمار سمو المدارك حتى استطاعوا ان ياتوا بما لا نستطيع ان ناتي به فاول الذين فاز سعياً بان يجعل معامل انكلترا تفضل سواها في إصطناع الخام والمضام يحق له ان يدعى رجل انكلترا

ولا بأس بان نورد ما جاء في كتاب « واسطة السلوك » مثلاً لما نحن في شانه وهذا نصه

« كان نظام الملك وزيراً لابي الفتح ابن البارسلان ولابيه من قبله فقام بدولتهما احسن قيام شد اركانها وشيد بنيانها واستمال الاعداء ووالى الاولياء واستعمل الكفاة وعمّ احسانه العدو والصديق والقريب والحبيب والبعيد وكان الذي مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه اياه انه اقبل بكليته على مراعاة حملة الدين وبنا دور العلم للفقهاء وانشاء المدارس للعلماء واسس الرباطات للعباد والفقراء ثم اجرى لهم الجرايات والنفقات مشاهرة وعم ذلك جميع اقطار مملكته فلم يكن من اوائل الشام وهي بيت المقدس الى اخر الشام الاعلى وهي ديار بكر والعراقين وخراسان واقطارها الى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مئة يوم حامل علم او طالبه او متعبد وزاهد في زاوية بيته خلواً من كرامة نظام الملك وكان الذي يخرج من بيوت امواله في هذه الاسباب ستمائة الف دينار في كل سنة . فوشى بالوزير الوشاة حتى اوغروا صدر ابي الفتح وقالوا له لو ان هذا المال المخرج من بيوت الاموال تقيم به جيشاً يركز رايته في قلب مدينة العدو المتاخم لخامر ذلك قلب ابي الفتح فلما دخل عليه وزيره نظام الملك قال له يا ابت بلغني انك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ست مئة الف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغني عنا فبكى نظام الملك وقال يا بني انا شيخ لو نودي عليّ في من يزيد لم ابلغ خمسة دنانير وانت غلام لو نودي عليك عساك تبلغ ثلاثين ديناراً وانت مشتغل بلذاتك واكثر ما تصعد الى الله معاصيك دون طاعتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا وكافحوا عنك بسيوف

طولها ذراعان وقسيّ مرماها ثلاث مئة ذراع لا يجدونك عند سخط الله فتيلاً وانما انا اقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على اقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم فارسلوا دموعهم واطلقوا بالدعاء السنتهم ومدوا الى الله تعالى اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فانت وجيوشك في غفارتهم تعيشون و بدعائهم تثبتون و ببركاتهم تمطرون وترزقون »

فانظر الى هذا الرجل الحكيم (نظام الملك) الذي يقول عن نفسه انه لو نودي عليه لما بلغ ثمنه خمسة دنانير هذا اذا نظرنا الى الشدة والنجدة واما اذا نظرنا الى الفطنة والدراية فبديهي انه رجل عصره فلا يقع عليه ثمن ولا يقاس به الاكابر الرجال الافاضل

فما تقدم معنا يتأكد صحة ما اوردته من ان حاجة الامم الى رجالها غير مقتصر على رجال الحروب وان رجل الامة تارة يكون بطلاً نجيداً وطوراً حكيماً رشيداً والامة بوسعها ان تنشىء هذا وذاك

واذا اردنا ان نعرف كيف تنشىء الامة رجالاً وجب ان نطلع على تاريخ الامم الغابرة والحاضرة فنجد كنوزاً ذات شان كلما اخرج من نفائسها صبرة ازدادت اضعافاً

ولدينا الان تاريخ اليونان والرومان القدماء الذين خلدوا اخبارهم في صحائف الاحقاب ونشروا اثارهم في الخافقين اذكى من الاطياب واتخذتهم الامم الحديثة هداة في سبيل المدنية فنالت كل مقصد وحازت كل امنية وموعدنا الكلام عن نشأة رجالهم في العدد التالي ان شاء الله

. . . .

الأس الاول لنشأة الرجال هو احترام الأمة للرجال في حياتهم وبعد مماتهم كما جاء في تاريخ ارستيديس الاثيني الشهير فان هذا الرجل كان مستقيم السيرة نقي السريرة مخلصاً لامته نياته صارفاً في خدمتها جميع اوقاته فعرفت له اخيراً مزيد فضله ووثقت بحكمته كل الثقة ولما مات اعتبرت فقده خسارة كبرى وبكت عليه كما تبكي الابناء البررة خير الآباء وبما انه كان يعيش عيشة الانصاف والنزاهة لا يميل الى رشوة ولا يأخذ بالوجوه لم يكن في سعة من العيش مع انه ولي اعظم مناصب الجمهورية الاثينية مدة طويلة فالحكومة المشار اليها عينت من خزينتها صداق بناته اقراراً بفضل ابيهن وتكريماً لسلالته من بعده

والقائد أبامنداس بطل ثيبة احدى الجمهوريات اليونانية لما فقده قومه في معركة ثارت رحاها فيما بينهم وبين اعدائهم السبرطيين وكان النصر قد حالف اعلامهم واوقعوا بالاعداء اسفوا على قائدهم المحبوب فبكوه حزانى آسفين كانهم هم المخذولون فابانوا بذلك احترامهم لفقيدهم الذي سعدت بهمته وحكمته اوطانهم وبمماته تقلص ظل مجدهم وخضدت شوكتهم

ونظير ذلك ما يروى عن الانكليز في فقدهم الاميرال نلسون الشهير الذي خر صريعاً في معركة بحرية بعد ما فتك باسطول الاعداء الذي كان اعظم من اسطوله فانهم اعتبروا الرزيئة به خساراً اعظم من خسار الاندحار واقاموا له عيداً لم يزل يعيد سنوياً حتى اليوم على انه قد مرَّ عليه مئة عام ونيف

ومن هذا الشأن اي احترام الرجال ما ترويه التواريخ عن تكليل الابطال الذين خدموا اوطانهم افضل خدمة كما نرى في تاريخ الرومان

ان الفتى الهمام كايوس مارسيوس عندما وقع القتال بين امته الرومانية والامة الغولسية (سنة ٤٩٢) ورأى في احدى المعامع ان جيش العدو يوشك ان يفتك ببني جنسه عرض نفسه للموت الزؤام وحمل على الاعداء بجنان ثابت وعزم شديد فكانت على يده النصرة العظيمة فكافأه القنصل اسي الحاكم الروماني الاكبر بانه دعاه الى محفل حافل واثنى عليه امام الجند ثناء جميلاً ثم كلله باكليل الانتصار واعطاه عشر الاسلاب وجواداً مطهماً واذن له ان يختار من الاسرى عشرة عبيد

وكذلك ما سبق الى الفيلسوف الروماني شيشرون الشهير على اثر تداركه مكيدة كاتينا الطاغية الشرير وانقاذه وطنه من شوم نيات ذلك الشقي فدعوه بعدل « ابا الوطن »

وقد كان جميع ابطال الرومانيين عند قدومهم من غزواتهم يحتفون بلقائهم احسن احتفاء كما ترى ذلك في اخبار سيلا وبومبيوس وقيصر وسواهم مما هو شهير ولم تزل الامم تمشي على خطتهم حتى في هذا العصر ومن طالع اخبار حرب الانكليز والترانسفال في هذا العام وما اقيم للقواد الانكليز روبرتس وبولر وكتشنر من الاحتفاآت العجيبة علم ان هذا الاجلال لم يزل حتى الآن مرعياً

ولا خلاف في ان هذا الاحترام الذي تقدمه الأمة لرجل بذل في سبيل اعلاء شأنها دمه ووقته مما يعزيه ويشدد عزائمه فيزداد رغبة في خدمتها ويرى ذلك ذوو الفطنة والدراية فيصبون الى تلك الكرامة وتتقد في صدورهم نار الغيرة فيتقدمون على مضاهاة ذلك المقدام الباسل ليفوزوا بما فازه من التجلة كما جرى لذيموستينوس الخطيب اليوناني المصقع حينما

شاهد مفوّهاً بليغاً وقف في الناس خطيباً فاختلب الالباب واثمل العقول واجلوا شأنه فشاق ذيموسيتنوس المقامة التي نالها ذاك الخطيب ورغب ان ينال مثلها فبذل جهده بالمطالعة ليلاً ونهاراً ليحتاز على الامنية ولما كان ألكن اللسان ضعيف الصوت والقلب كانت لخطة التي نحاها عظيمة المشقة عليه ولكنه لم ييأس فواظب على الدرس والتمرين والتهذيب لتجنب النقائص فاعتزل الناس الى مغارة واخذ يزاول الخطابة واضعاً في فمه الحصى عند التكلم ليتكلم بصعوبة فيضطر الى مزيد الاجتهاد في احسان اللفظ وطفق يلقي الخطب على شاطىء البحر حين اضطرابه ليعتاد الضجيج فلا ياخذ بخنقه لغط الجماعات وعلى يزاول الاشارات والحركات لتكون موافقة لكلامه وفضلاً عن كل ذلك اكبّ على مطالعة احسن المؤلفات ولما كان يخشى ان امياله تغلب عزيمته فلا يستطيع ان يستكمل حظه من الاتقان حلق راسه لكي لا يخرج من المغارة لانهم كانوا يستحيون من ذلك وهكذا استطاع ان يلبث مدة طويلة فاتمّ ما عني به واستظهر كتباً نفيسة التعبير وبلغ المراد بالمثابرة والاجتهاد واصبح عالماً فصيحاً فاق المتقدمين والمتأخرين وكان باعث ذلك به ما شاقه من الاكرام للخطيب المنوه به

والأس الثاني لنشأة الرجال هو تلقي اعمالهم بالشكر فيزداد بهم الميل الى استتباع الخدمة ولانهم يكونون قد خبروا الامور وعرفوا اسرارها يستطيعون ان يقوموا الاعمال قياماً يتعذر على سواهم ممن لم تهذبهم الحكمة الحنكة ولا مرّنتهم الاحوال ودليل ذلك ان بيركلس الاثيني اقام على رئاسة قومه ما ينيف على ثلاثين سنة فساس حكومتها خير سياسة واغنى خزائنها

والأس الثالث لنشأة الرجال هو احترامهم من حيث مواهبهم الخاصة لا من حيث هم ابناء اماثل او سفلة ودليلنا ما نراه من ان رومية ملكت عليها طاركونيس برسكس (٦١٦ ـ ٥٧٨ ق٠م) وسرفيوس طليوس (٥٧٨ ـ ٥٣٤ ق٠ م) والاول دخيل في الجامعة الرومانية والثاني ابن اسيرة جابها الاول الى رومية وذلك لان هذين الرجلين كانا من سمو العقل والادراك في اعلى المراتب فاستحقا بمواهبهما لا بنسبهما ان يقلدا الاحكام ويسوسا الشعب الروماني ويبلغا به شأوا سامياً في الصولة والجاه

ومثل ذلك يقال في بني بويه ملوك الدولة الديلمية التي انتشر ظلها في الخلافة العباسية ولا سيما في زمان الطائع والمطيع حيث كان كبيرهم عضد الدولة ممدوح المتنبي المشهور فان والد هذه العائلة كان صياد سمك ولكن اولاده الاربعة كانوا متفردين في الحصافة والبأس ولما بلغوا اشدهم اظهروا ما عندهم من الشجاعة فدانت لهم الاقران وفازوا بالاستيلاء على الاحكام ودامت سلطتهم مدة

والكتاب يروي لنا عن جدعون ما يشابه ذلك فانه كان كما ذكرنا في مقالة « من هم الرجال » اصغر بني ابيه وعشيرته الذل في مذحى ولما رأى الشعب الاسرائيلي به سمة الخير شدوا ازره فلما حشد اعداءه جيشاً لمنازلته ارسل وراء من يتاخم وطنه من بني جنسه الاسرائيلي فاقبلوا عليه وحشد منهم اثنين وثلاثين الفاً على انه لم يكن في حاجة الى كل هذا الفياق اللجب فابقى معه ثلاثمئة رجل فقط وسرح الباقين

والأس الرابع لنشأة الرجال هو الالقاء في روعهم وهم فتيان انهم معدون لامور عظام فان مترنيدات ملك بنطس كان منذ صغره يشرب مع

الحليب حب المجد ويسمع في مهده ما يجيش في صدره الرغبة في السلطة والصولة فشب على هذه المبادىء ولذلك رقي الى عرش الحكم وهو في الثالثة عشرة من عمره ولما كان يرى من نفسه انه متهيء لامر جسيم اتقن لغات عديدة حتى قيل انه كان يتكلم في خمس وعشرين لغة

وانيبال البطل القرطجني الشهير نفث ابوه اميلكار سيد قومه في صدره منذ الصغر حب الرئاسة والرغبة في السيادة وعامله وهو غلام كرجل بالغ اشده وذلك انه احضره الى مذبح الالهة وهو ابن تسع سنوات وحلفه على البغضة الدائمة لرومية وانه لا ينفك يحاربها حتى يرد كل الشر الذي صنعته لقرطاجنة سابقاً فرأى انيبال ان والده يراه رجلاً فرأى هو ايضاً من نفسه رجلاً وعكف من صغره على ما يكفل له الاماني فصحب اباه الى القتال وهو وليد ورأس قومه وهو يافع وخلدت نصراته في عهد الشباب ذكره الى الاباد .

وكذلك ان هارون الرشيد فوض في احدى غزواته تدبير مهام عظيمة الى ولده القاسم وهو في الثانية عشرة من سنيه فرأى القاسم ان والده يعده رجلاً فسلك مسالك الرجال وطاب المعالي متوقراً وقار الشيوخ

والاسكندر المكدوني العظيم رأى والده فيلبس به رجاء كبيراً وهو غلام فصحبه في غزواته واشركه معه بكرامة الانتصار فشبّ مشغوف الفؤاد باعتلاء اوج الشرف الاثيل فحارب العالم المتمدن في عصره واخضعه له صاغراً

وفي تلاوتنا سيرة داود النبي نرى ذلك فانه لما قدم وهو فتى على

مناجزة جليات البطل الفلسطيني وارداه خرجت النساء من جميع مدن اسرائيل بالغناء وبالرقص للقاء شاول الملك بدفوف وبفرح وقلن " ضرب شاول الوفه وداود ربواته " وهذا يبعث ما بداود من كامن الهمة ليزيد شأنه رفعة في عين الشعب

والأس الخامس لنشأة الرجال هو ان لا تستبقي الخونة ولا يعفى عن الظالمة وان يفضل الصالح العام على الصالح الخاص ودليل ذلك مانراه في اخبار اليونان ان احد ملوك سبرطا المدعو بوسانيوس علم الشعب اليوناني عنه انه يراسل مرزباناً فارسياً في اسيا متامراً معه على ان يخضع اليونان لزركسيس ملك الفرس فلما انكشف امره لجأ الى هيكل وكانت السنة ان كل من لجأ الى الهيكل لا يقتل فاجمع الشعب على ان يسد باب الهيكل عليه حتى يموت في داخله جوعاً واول من اقدم على سد الباب والدة الملك بوسانيوس فكان هذا العقاب الشديد مخيفاً لذوي المفاسد والاغراض السافلة فحاذروا خيانة الوطن خيفة ان يعود عليهم سعيهم بالوبال ويذوقوا من جرائه مرّ النكال

وكذلك يروى عن بروتوس محرر رومية انه اطلع على مكيدة منصوبة ضد الجمهورية الرومانية وكان ولداه من جملة اصحاب المكيدة فالقى القبض على الجميع وفي اليوم التالي لذلك احضرهم الى محل الاجتماع امام الشعب ونادى بروتس اولاً ابنيه وتلا الاوراق التي كتباها الى الاعداء وامرهما بصوت جهير ان يجيبا عن ذلك ويتبرأا من هذه التهم البينة ان امكنهما الاحتجاج ولما كانا متواطئين مع الخونة لم يستطيعا التنصل مما اتهما به فأمر بهما فقتلا

وكذلك ما يروى عن بطرس الكبير قيصر الروسية انه اذاق ابنه الكسيس كاس الحمام لما رأى ان بقاءه ضائر بصالح المملكة الروسية

والأس السادس لنشأة الرجال ان يغرس فيهم من صغر الميل الى احد المقاصد التي يراد اخراجهم مبرزين بها ودليلنا ان شريعة ليكورغس سنت قوانين سار السبرطيون بمقتضاها فخرجوا ابطالاً صناديد وشريعة صولون انشأت نظاماً آل على اثينا بنشر الفنون بين ابنائها حتى اعتبرت بمثابة منبثق المعارف القديمة ومنها خرج صولون وبيركليس وفيدياس وسقراط وافلاطون وثمستكليس وديموستينوس وعنها اخذ ارسطوطاليس وسواه وعليه فكل امة تستطيع ان تضع دستوراً اذا احسنت غراسه في عقول ابنائها خرجوا كما تريدهم الامة اشداء او حكماء او مبرزين في الصنائع او بارعين في ادارة المتاجر حسبما يلائم موقعها الجغرافي وتربتها وظروفها

والأس السابع من دواعي نشأة الرجال هو ان تقيس قيم رجالها بمقياس الحكمة فلا تطرئ في قدر من ليسوا بذوي القدر الخطير ممن ليس لهم خدمة جلى ولا تتزلف الى ذوي الثروة واليسار كأنهم هم حياة الامة ورجاؤها وبدونهم لا يرجى نجاح ولا فلاح فان اكثر رجال الامم لم يكونوا من ذوي الثروة وكثيراً ما كان الغنى سبباً لضعف همة صاحبه كما كان الفقر سبباً لارتقاء اكثر الرجال الى اعلى مراتب السؤدد والشرف وربما افردنا مقالة خاصة للبحث في الرجال والاغنياء

والأس الثامن لنشأة الرجال وهو افضلها واجلها قائم بابتناء المدارس الجامعة وبنشر العلوم النافعة وبتهذيب الاولاد وتثقيفهم منذ الصغر على المبادئ القويمة وريّ افكارهم بمناهل الحقائق الدينية فتكبر نفوسهم وقد

وضعوا امام اعينهم الاقدام على الاعمال المفيدة رغبة بالثواب من لدن الكريم الوهاب فيؤيد الله مقاصدهم ويسهل مطالبهم وبذلك يحوذون الاجر العظيم والذكر الكريم وقد قال الحكيم الذكر الطيب خير من غنى وافر

والأس التاسع لهذا المقصد العظيم هو اضافة الصلات على الاكرام في اثابة الرجال العظام وهذا الامر الجليل العاقبة كان ولم يزل من اكبر دواعي نشأة الرجال والتاريخ يروي ان الاسكندر المكدوني كان يمنح قواد عساكره عقيب انتصاراته ما ينسيهم اتعابهم ورزاياهم ويستعذبون معه الاقدام ثانية على مواطن الجلاد وقذف النفوس طعاماً للرماح الصعاد والسيوف الحداد ومثل ذلك كانت تعامل رومية ابطالها· وقد نال مؤخراً كتشنر القائد الانكليزي عقيب حرب السودان جائزة سنية وكذلك منح جلالة مولانا وولي نعمتنا السلطان ابن السلطان السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني قواده الفخام على اثر انتصاراتهم ما يستغرق الكلام في وصفه وزين باسمائهم صفحات المجد والشرف لا زالت مواهب متبوعنا الاعظم مضرب الامثال وظله الوارف ملاذ المكارم وملجاء الاقيال والليالي تبشر اعلامه بالنصر والاقبال وتبعته ترفع ايدي الضراعة من الله ان يحوط عظمته بملائكة والسلام على الدوام

الاخلاق والفضائل

« للدكتور حبيب افندي همام »

« نقلاً عن المنار »

الاخلاق جمع خلق . وهو حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية قيل من غير فكر ولا روية لان ما يفعله الانسان بالفكر والروية يكون تخلقاً لا خلقاً دعا اليه الوجدان حباً في الثواب او خوفاً من العقاب . على ان ما يأتيه الانسان من الافعال والاخلاق بالفكر والروية قد يصير بالمثابرة ملكة وخلقاً قال الشاعر

كذاك ادبتُ حتى صار من خلقي   اني وجدتُ ملاك الشيمة الادبُ

والفضائل جمع فضيلة وتعريفها في المتون التي وصلت اليها يدي لا يفي بالغرض تمام الوفاء فانهم قالوا : انها نقيض الرذيلة . ثم قالوا في تعريف الرذيلة : انها ضد الفضيلة وفي ذلك من نقصان التحديد ولزوم الدور ما لا يخفى

ولذلك قد اخترتُ ما ذهب اليه علماء هذا العصر فانهم قالوا : ان الفضيلة هي الوسط بين التفريط والافراط وبعبارة اخرى : الحد الاوسط بين رذيلتين . فالشجاعة مثلاً هي فضيلة بين رذيلتين هما الجبن والتهور . فمن خاف مما لا يخاف منه كان جباناً . ومن لا يخاف مما يخاف منه كان متهوراً . وما بينهما الشجاعة وهي الفضيلة . وكذلك يقوم البرهان على العفة بانها وسط بين الفجور والخمود . وان كلاً من هذين رذيلة فهي فضيلة وقس على ذلك الكرم فانه فضيلة يعتبر بها التوسط بين رذيلتين هما البخل

والاسراف . ولو تدرجنا في الكلام على جميع الفضائل لم تخرج واحدة منها عما عرفناه من التوسط الذي هو قسطاس الفضائل . وان غاب عن الفكر سر ذلك فلينعم في الامر رأياً يظهر ما حجبه سجف الالتباس كما في العدالة التي لا يكاد يظهر الا احد طرفيها وهو الجور ويغيب الطرف الآخر وهو الانظلام . وبالجملة يقال ان الفضائل هي الاخلاق الحميدة والرذائل هي الاخلاق الذميمة والاوساط فضائل والاطراف رذائل وعلى هذه الحكمة جاء قول الشاعر

كثرة التناهي غلط خير الامور الوسط

وقد اختلف المتقدمون في الكلام عن الاخلاق اختلافاً عظيماً فمن قائل انها بالطبع ومن قائل انها بالوضع ومن قائل غير ذلك . وقال الفلاسفة الرواقيون . الناس يخلقون اخياراً بالطبع ثم ينصرفون الى الشر بمصاحبة اهل الشر . وقال غيرهم . ان الناس يخلقون اما اخياراً بالطبع لا ينصرفون الى الشر واما اشراراً بالطبع ثم ينصرفون الى الخير بمصاحبة اهل الخير . وقال جالينوس . ان الناس يخلقون اما اخياراً بالطبع لا ينصرفون الى الخير واما متوسطين بين هذين وهؤلاء ينصرفون الى الخير بمصاحبة اهل الخير وينصرفون الى الشر بمصاحبة اهل الشر . وذهب افلاطون : الى ان الاخلاق الحميدة ليست بالطبع ولا بالوضع وانما هي هبة مجانية من الله وذهب ارسطوطاليس : الى ان الشرير قد ينتقل الى الخير ولكن ليس على سبيل الاطلاق

هذه اراء من تقدمنا من الامم بعضها لا يقوى على صدمات البرهان وبعضها لا يثبت على وجه الحقيقة وبعضها يقضي برفض التهذيب والسياسات

ونبذ التعليم والديانات وترك الناس همجاً على ما يتفق ان يكونوا عليه من اصل الفطرة وذلك ظاهر السخافة جداً فهو ليس من الصحة بشيء ولا من الحقيقة بمكان

اما ما ذهب اليه المتاخرون فهو : ان في دماغ الانسان مراكز تصدر عنها او تنطبع عليها افعال النفس والاخلاق وان الانسان مستعد لقبول هذه الاخلاق حسنها وقبيحها لامخلوقاً ولا مفطوراً ولا مطبوعاً عليها والا لوجب ان لا تتغير والحال على الخلاف اي انها تتغير فهي ليست بالطبع ولي على صحة ذلك هذا القياس وهو

الاخلاق تتغير

وما في الطبع لا يتغير

فالاخلاق ليست بالطبع

اما تصحيح المقدمة الاولى فيشهد لنا على صحتها ما نراه من تغيير الاخلاق . فقد يتشجع الجبان حتى لا يخشى الاسود الكواسر وقد يجبن الشجاع حتى يخاف من صفير الصافر

اما تصحيح المقدمة الثانية فهو اننا لا نحاول ان نغير ما في طبع الانسان من الاحساس والشعور فلا نكويه بالحديد ونقول له لا تحس . ولا نمرّ بالاشباح امام عينيه وهما مفتوحتان ونقول له لا تنظر ولا نطلق بحضرته المدافع الضخمة ونقول له لا تسمع . فهو في حالاته المذكورة يستحيل عليه الا يشعر ويرى ويسمع . لان ذلك فيه بالطبع . وكذا لا نقدر ان نغير ما في طبع النار من الاحراق وما في طبع الماء من الاطفاء . فقد ثبت اذن انّ ما في الطبع لا يتغير وصحت المقدمة الثانية

واذا صحت المقدمتان وصح القياس كانت النتيجة لا ريب فيها فثبت لنا ان الاخلاق ليست بالطبع

ولنا على ذلك برهان احكم وضعاً هو ان الله سبحانه تعالى قد حض الانسان على الفضيلة ونهاه عن الرذيلة فاذا كانت الفضيلة من طبعه فلا حاجة للحض عليها واذا كانت الرذيلة من طبعه فلا فائدة من النهي عنها لان ما في الطبع لا يتغير كما جاء ذلك في البرهان ٠ وحاشا الله سبحانه وتعالى ان يؤاخذ الانسان على فعل الشر والرذيلة ان كان الشر والرذيلة من طبعه ٠ غير انه لما كان مطبوعاً على قبول كليهما على قبول الاخلاق الحميدة كما على قبول الاخلاق الذميمة على الخير كما على الشر على الفضائل كما على الرذائل ٠ جاز ان يؤمر ان يتبع طرق الفضائل وينهى عن الالمام بالرذائل ٠ وجاز ان يثاب عن الخير ويعاقب على الشر ٠ وهو حر الارادة ان شاء فعل الخير وان شاء فعل الشر

فقد ثبت ما قلنا به من تغيير الاخلاق وان الانسان مستعد لقبول حسنها وقبيحها ولكن استعداده الى قبولها ليس على سواء فهو الى الرذائل اكثر استعداداً لان الانحدار الى الاسفل اسهل من الصعود الى الاعلى ٠ ولولا العقل والوجدان لاندفع بكليته اليها غير ان ما وضعه الله من القوى العاقلة يريه ان الرذائل وان طابت حلاوتها لا تلبث ان تصير اشد مرارة من العلقم وان لذة الرذيلة ام الخداع ومطيتها الضلال الذي ينجم عنه الوبال بل هو شر وبال ٠ ويريه ان الفضائل وان مرت مذاقتها لا تلبث ان تصير اشد حلاوة من الأري وقطر الشهاد ٠ ومع ذلك فهو لا يميل اليها الا كما يميل المريض الى الدواء المر المذاق غير انه لا يلبث طويلاً حتى يرى من

فائدتها ما يحببها اليه ومن حلاوتها ما يهوّن مرارتها عليه

والناس يختلفون في ذلك اختلافاً عظيماً فمنهم من يكون كثير الاستعداد لبعض الاخلاق ومنهم من يكون استعداده قليلاً فمن كان كثير الاستعداد للبخل مثلاً ودرب في هذا السبيل انتهى الى انه

لا يخرج الدرهم من كفه ولو ثقبناها بمسمارِ

ومن كان كثير الاستعداد للشجاعة ومرن عليها فاق الاسكندر وجاوز هنيبال . على ان من كان قليل الاستعداد لبعض الاخلاق لا يحرم من قبولها بل يكون له حظ منها كثيراً كان او قليلاً بحسب كثرة استعداده لقبولها وبقدر ما يدرب عليها

ولا بد من تنبيه الخواطر الى امر ذي بال امر تهذيب الاحداث وهو امر حريٌّ ان تصرف بالبحث فيه الاعمار الطوال ويقوم للحض عليه عظماء الرجال فهو اس النجاح ومفتاح الفلاح فان من كان مهذباً صادقاً اميناً لطيف الاخلاق حسن السيرة لين العريكة مخفض الجانب وعلى الجملة مجملاً بالاخلاق الحميدة بحسب ما يستدعيه حسن التهذيب يكون موضوع ثقة الناس فيتقلب في المناصب العالية ويتربع في دست المجالس ويتبوأ صهوات المجد والشرف . واما من لم تروض اخلاقه في سن الصبوة فيترعرع في الفساد والشر ويشب على الدهاء والمكر ويكون حظه في الدنيا العار والخذلان وفي الآخرة العذاب والحرمان

وتثقيف الابناء على السجايا الشريفة والاخلاق الدميثة اولى من تلقينهم الاصول الصرفية والقواعد النحوية بل خير لهم من درس العلوم الرياضية والمبادئ الطبيعة

اقول ذلك لا تحاملاً على العلم واهله ولا استخفافاً بقدره وفضله وكيف القي على حسناته غطاء وهو مرقاة الفضائل ومشكاة البصائر وهو والفضيلة صنوان وفرسا رهان يجريان سباقاً الى الغاية التي خلق لاجلها الانسان وهي تمجيد الله بل اني لاعجب كيف يتهم العلم بالكفر والالحاد وهو يرينا في كل يوم آيات: آيات بينات تشهد بان الله سبحانه وتعالى مبدع الكائنات بل اعجب كيف يتهم العالم بالكفر والتعطيل وهو يرى عمل الله دائماً في الاجرام السماوية والمخلوقات الارضية يراه جهرة يتجلى في عالم الحيوان والنبات والجماد . ان صعد الى الجبال او غاص في لج اليم هناك يراه: يراه في كل حركة من حركات الكون وفي كل سكنه من سكنات الطبيعة . فانى للجاهل ان يرى الله بمخلوقاته وهو لا يعلم شيئاً من امرها . قال صاحب المزامير: قال الجاهل في قلبه ليس اله . ولم يقل قال العالم في قلبه ليس اله . فالذنب ليس في العلم الذنب . كل الذنب في اهمال تهذيب الاخلاق

اما طرق تهذيب الاحداث وحملهم على الاخلاق الجيدة فكثيرة العقاب وعرة المسالك مختلف فيها كثيراً فمن الناس من تنجع به السياسات الجيدة وتشوقهم الكرامات ومنهم من لا يوثر به الا الضرب والتهديد ولا يقوّم قناته غير التوبيخ والاحتقار والكلام في ذلك طويل عريض لا يحتمله ضيق المقام

فعلى الآباء والامهات ان يربوا اولادهم على كريم السجايا والفضائل ويحذروهم من الاخلاق السافلة والرذائل ويدربوهم في سبيل معاشرة اهل الخير ومجانبة اهل الشر فان الاخلاق الشريرة تفسد الاخلاق الجيدة . وان يكونوا هم انفسهم مثلاً للخير وقدوة للفضل والا

اذا كان رب البيت بالطبل ضاربًا فلا تلم الاولاد فيه على الرقص

وعليهم ان يتخيروا لهم المدارس التي غايتها العلم وتهذيب الاخلاق والفضيلة فكثيرًا ما يبذل الاب النفس والنفيس ويبيع الغالي بالرخيص حتى يضع اولاده في المدارس لايهمه مبداها ولا يستلفته مبناها وكثيرًا ما يتفق ان يكون لاهم لتلك المدرسة الا التعليم على غيرنا كترات لتهذيب الاخلاق وتقويم الاعوجاج وغرس المبادئ الحسنة في عقول الاحداث فيشبون على المكر والدهاء ويميلون الى الشر مع الاهواء وهنالك الطامة الكبرى والبلية العظمى

وانتشار المدارس الان اصبح كافلاً بأماني الاباء في تهذيب ابنائهم فاذا انتقوا لبنيهم من ديار العلم ما توسموا بخريجيها من الادب المكتسب مع المهارة في العلم والتخرج المقترن بالكمال اصابوا اختيارًا وجنوا مواسم مساعيهم غزارا وطابوا حملاً وثمارًا والسلام

حال الكون

« لفرنسيس افندي فتح الله مراش »

« عن كتابه مشهد الاحوال »

وجودٌ لا حد له ولا مدى · وبدء ليس له ابتدا · يفوق طور العيان فلم يرهُ بشرٌ قط · ويسمو على ادراك الاذهان فلا يمثله الا ذاته فقط · حتى اذا ما لمح كمالاته المجده · واستملح غايته المؤبده · اوحى الى الابواب السرمدية فانفتحت · واوعز الى غوامض الحركة فاتضحت · فاندفع

الغبار الكونيُّ من تلك المصارع الدهرية · وانتشر في هاتيك العرصات الابدية · واذ تبلبل بعضه تسلح بالتجاذب · وحمل حمل التحارب · فانطبق كلٌّ على قرينه بالالتصاق · طبق ايعاز الخلاق · فنجمت العوالم الكرويه · شموساً وكواكباً درية · وانطلقت ثانويات تلك الملاحم الكونيه ·

اجيجٌ شب من صراع ذلك الجم الغفير · فاحرق دقايق الاثير · حتى انبجس نور الاحتراق · وانار غسق الانطباق · فكانت الحرارة في الاكوان · بظهور النور للعيان · ولما استكملت تلك البخاريات جماداً · بعد انقادها اجيالاً واماداً · نضجت نضوج الثمر في الكمام · وانشغل الفضاء بالاجرام · وهالك منها البعض · كعطارد والارض

ولما اصدرت الحرارةُ عنصرَ الضوء تمازجا فانبثقت منهما كهرباء الجو · فهاك ثلاثة متوالده · قمنَ في ذاتٍ واحده · فخصحصت الكائنات وتحركت الساكنات · وتنوعت الحركات وتجنست · وتفاقمت الاثار وتكردست · واذ لاحت الارض لتلك المؤثرات صلعاء قفراً قالت فانكسرها باذن الله جمال البردة الخضرا · فانضم عنصرُ الناريات النواهض · واتحد اصل الماء باصل الحوامض حتى ترتبت الاصول فتداخلت بالاتحاد · وتفاعلت على بعضها المواد · وهكذا نهضت الحيوة بين تلك الاصول الراقده · فنبهت الى النمو والحركة سواكن الذرات الجامده · فهب النبات للحال من وراء تلك الفواعل الغارسه · حتى اخضرت اليابسه · واصبحت الوحشية مانوسةً وآنسه · فما كان الله ليرضى ارضاً بلا سكن · وقوتاً بلا بدن · ولذلك دعى تلك القوة الحيوية الى التعاظم · ونبهها الى التراكم · فتعاظمت القوة الحيوية وكملت وشملت اصل الحركة وحملت · حتى انتشرت النطفة

الحيوانية · بعد استكمالها مقومات البنية العضويه · فاخذ الحيوان يتجمل ويتكمل · ويتوالد ويتسلسل · ولما تعدد انواعاً طلب اشباعاً · فحمل كل على قريبه حمل البعول · حتى برزت المسوخ والنغول · وهكذا حمل الهواء جانحه · والماء سابحه · والتراب سارحه · ولم يلبث ان خلق الله الانسان · فكان علم الاكوان ·

الطفولية

هذا هو الدور الاول لحيوة الانسان · والغلوة الاولى في طريق الزمان · حيثما يقال للداخل طفلاً مولوداً · وللخارج شيخاً مفقوداً · ولما كان الانسان في هذا المدخل عديم البصيره · خالي السريره · عارياً من كل الكمالات الادبيه · غير حاصلٍ على تمام الوظائف العقليه · فلا يرى الاما يقوم قربه · ولا يشعر الا بما يستعطف قلبه · فيلعب بالتراب ويذريه · ويعبث بالتبر ويذريه · ويسخر بالمقبولات والمردودات ويضحك على كل الموجودات · فلا يهتم الا بطلب الغذا · ولا يحفل الا بما يورث الاذى · واذ لا يبرح طايشا بخفة بنيته · وضايعا في تيه نيته · فلا يسمع دويّ ضوضاء العوالم · ولا رويّ قوافي العظايم · بينما يكون باكيا تحت تاثيراتها وفواعلها · ومتحركا وساكنا تحت جوازمها وعواملها · ومسرعا في طريق حياته الى الدخول في ابوابها · والغوص في عبابها · فليت عينيه ترى ما يستقبله من الاوصاب · وما يستنظره من الاتعاب فما الثدي الا رمز الردي في طلب القوت · وما المهد الا اشارة التابوت ·

الفتوة

هذا هو الدور الثاني للحيوة الانسانية · والمساحة الاولى لانتشار قوى العقلية · او التل الاول في طريق الاجل · ومسلك العمل · فيصعد الانسان عليه · وينظر العالم بعينيه · فيراه مشهداً بديع الجمال · ومرسحا تلعب به الامال · وترقص فيه الملذات والاماني · وتحوم حوله البشاير والتهاني · فتشمله شمول هذا الظهور · وتلعب براسه حمية هذه الامور · فيبات سكران بالافراح · وماخوذاً برنين تلك الاقداح · فيبسم مدى الاوقات · ولا يعلم ما الافات · اذ يظل ملتفاً بكساء الامال · ومحتفاً باوهام الاعمال · فلا ينظر الا الى ذاته · ولا يحفل الا بصفاته · هايماً في ملاهي دنياه · ومتهافتاً على حداثة قواه · وهكذا فيهبط في وادي هذا العالم الملم · ويخبط في ذلك البحر الخضم · ولا يزال بين هبوب وانكباب · الى ان يشمله الصواب ويدركه الشباب

الشبوبية

اما الشبوبية فهي الدور الثالث للاجل · ومحل الكد والعمل · وموقع الياس والامل · حيثما يوجد الانسان ضائعاً في مفازة العمر . حائرا في تنوفة النهي والامر · فيرى نفسه قايماً في وسط هذه الدنيا ممنطقاً بكافة الاشياء · ماتطماً بامواج العالم واهوائه · مصروعاً وماخوذاً بضجاته وضوضائه · وهكذا فتنهض في قلبه ثورة الحواس · وتشب في دماغه نار الوسواس · وتصفر في سريرته ريح الاهجاس فيندفع الى منازلة الاقدار والايام · ومقاتلة الحقائق والاوهام فتارة تهب به الامال الى اوج الافراح والمسرات · وطوراً تكب به الخيبات

في حضيض الاتراح والحسرات · يرى العالم قريب المنال · فيندفع وراه على متون الاهوال حتى اذا ما ظفر بالبعض طمع بالكل · واذا فاز بالشبح رغب في الظل فلا يكون الا مضغة في افواه المطامع · و كرة تتلقفها القوامع · ولذلك انما يوجد مهبطاً لحوادث الحدثان · ومسقطاً لمكائب الزمان · ولا تزال زهرة هذا الشباب الزاهي بين ذبول وافترار · ولا يبرح بدر هذا العصر الباهي بين خسوف واسفرار · الى ان تنثر الشيخوخة تاج تلك الزهره ويصفع الهرم وجه هاتيك القمره · حيثما يسقط الشباب من فرشه · ويرتفع المشيب على عرشه

الشيخوخة

ان حياتنا هي بخارٌ يتصاعد قليلاً ثم يضمحل · نعم · كلٌّ يضمحل كالضباب · حتى الجبال تمرمرَّ السحاب · فلا دوامٌ للوجود ولكنما العدم محال · ولا طمعٌ في الخلود · فكل مركبٍ للانحلال · فلا يزال الانسان سايراً في طريق عمره سير المسافر في القفار · الى ان يبلغ رابع الادوار · وهو دور الدثار · هذا اذا امكنه الخلاص من لصوص الحوادث · والمناص من اسد الكوارث · ونهبة الاعراض · وقتلة الامراض فيلبث هناك منهوكاً من تعب المسير · ومضض التاثير · اذ يعود منحنياً تحت احمال الحياة واثقالها · ومرضوضاً من صدمات الدنيا واهوالها فتصمتُ ضوضاء حواسه وهواجسه ويخرس رنين انفاسه ووساوسه · فيكف بصره · وتجف فكره · ويقل ذوقه · ويكثر شوقه · ويبخل حتى بالفلس · ويزيد حرصه على النفس · ويجود بالقلس · فاذا التفت الى ورائه وراى الدنيا التي قطعها والطريق

التي تتبعها · ظهرت له الاشياء اشباح احلام · ومراسح اوهام · وكلها تجري نظيره الى الزوال · كالطيف والخيال · فيضحك على الجميع · ضحك الطفل الرضيع · اما اذا التفت الى الامام · وطمع ببقية الايام · حنَّ الى الوجود · وهام بحب الخلود · ولا يزال الماضي يدفعه · والحاضر يردعه · والمستقبل يطمعه · حتى تختطف يمامة نفسه بُزاة المنية · وتسلبه كل بغية وامنية · فيهبط هبوط البنيان · ويغور في قبر النسيان · حيثما تسترجع الكليات جزئياتها · وتسترد المجموعات مفرداتها

العيلة

ولما اشعر الانسان برسوم وجوده · وادراك لزوم حدوده · انف الشتات والانفراد وطاب الزواج والعقاد لينفصل عن هيئة الجهل ويتصل الى اداب العقل · وفاقاً لامكان نفسه · وخلافاً لعجز ساير جنسه · فعاهد زوجته على حفظ العهد وحالفها على دوام الود · وعلى قيود هذه الشريعة · اخذا يفلحان الطبيعة · فجادت لهما بالاولاد · وطبعت بهم لهما الانقياد · فحنَّ الاب الى بنيه · ومال الابن الى ابيه · وبقيام تلك الاحوال · تقومت الاعيال · وتبادلت بينهما الاميال · وهكذا فالمودة الاقترانية · والمحبة الوالدية هما اركان العيلة والذرية ولذلك فالنمو يحرض · الافراح والنقص يحضرُ الاتراح فيأنُّ الويل للمفقود · ويرن الهناء للمولود · وما تلك الاعمار الطوال · الا حياة اسماء العيال

الهيئة الاجتماعية

ولما تقومت العيال · وتبادلت الاميال · اخذت كل عيلة تقترب من

جارتها بالزواج · وتقايضها في ادوات النتاج · فاشتدت الروابط بين البشر · وانتصب عمود الوطن · وشرع الناس يحاضرون والى بعضهم البعض يسافرون · حتى تشيدت بينهم المعاملات وتمكنت المبادلات فكثرت الحاجات الانسانية · وتفاقمت الضرورات البدنية · حتى التزم هذا الى ذاك · واحتاج ما هنا الى هناك · وما لبث ان انتظم نثار البشر · وانضم البدو الى الحضر · وهكذا قد استحدث الانسان شرايع الانضمام · وانشاء مواطن الالتئام · فنهضت مطامع النفوس · وحامت السعود والنحوس · حتى ثار الناس على بعضهم البعض وجعلوا يسقون بدمائهم الارض · فساد هولاء واغتنوا · وافتقر اولئك وعنوا · فقامت الملوك والروساء · وتمكنت الاسياد والامراء حتى لقي الانسان ما جناه · وهلك بما جناه اذ اضحت الروس تتهشم تحت مطارق السيادة · والافكار تضل في مناهج القياده · واخذت الانسانية بما ابدعت من المتاعب · ورجعت تشكو صروف المصائب · فما مصائبها الا ما ربها · وما اوجاعها الا اطاعها ولما احتاج الانسان الى لوازم الحيوة الاجتماعية · وبواعث السكنى الانتظامية · افضت به الضرورة الى التمدن والالقاب · ولجم الطبيعة بالاداب · ليحسن نظام الجماعة في سلك الاتصال · وتتسهل سبل الافعال والاعمال وتميز الاشخاص المجتمعة · وتهذيب الاطباع المندفعة · وما زال الاجتماع اخذاً في ازدياده · والنظام سالكاً في انعقاده · والضرورة تجهد المجرى والعقل يجدُّ بالمسرى · الى ان اتصلت القبايل بالقبايل · ولحقت الاواخر بالاوايل ·

مقالة في حالة هذا الكون

« لاحمد افندي فارس صاحب الجوائب »
« مأثورة عن بعض كتبه بتصرف »

ان من نظر بعين المعقول الى هذه الدنيا والى ما اختلف فيها وائتلف من الاحوال والاطوار والجواهر والاعراض والاوطار والاغراض والعادات والمذاهب والمراتب والمناصب وجد ان كل شيء يمرّ عليه منها يفوق كنهه ادراكه . ويفوت تأمله وان حواسنا وان تكن قد ألفت اشياء لم تغادر الالفة عليها محلاً للتعجب منها . ألا ان تلك الاشياء لا تنفك في نفس الامر عن كونها معجبة محيرة ومن تبصر في ادنى ما يكون منها حق التبصر رأى نفسه كمن قد اهمل آداء فرضٍ تعين عليه انظر مثلاً الى اختلاف ضروب النبات في الارض فكم فيه من الازهار البديعة الصنعة العجيبة الكينة من دون ان نعلم لها منفعة خصوصية . والى اختلاف انواع الحيوان من دبابات وهوام وحشرات وغيرها فان منها ما هو حسن الشكل ولا فائدة منه . ومنها ما هو قبيحه والحاجة اليه ماسة وانظر في السماء الى هذه النجوم . . . التي يرجع البصر عنها وهو كليل والى اختلاف سحن الناس وروسهم فانك لا تكاد ترى سحنة بشر تشبه سحنة آخر غيره ولا تجد بين رؤسهم اي عقولهم راساً يشبه غيره . فمن عباد الله هؤلاء من اختار المخالطة والمقارفة والمحاشرة والمزاحمة والمباراة والمساومة . . . ومنهم من قابلهم بضد ذلك فاختار العزلة والانفراد كالنساك والزهاد ومنهم من جعل دابه التهافت على المين والافتراء والغلو والاطراء كالشعراء

والمستأجرين لمدح الملوك فيما يطبعونه من هذه الوقائع الاخبارية ومنهم من قابلهم بضده فآثر الصدق والتحرّي والتحقق والتروّي والقول الفصل والمطابقة بين الماضي والحاضر والآتي وذلك كاهل الفلسفة والحكمة والرياضة ومنهم من يعمل النهار كله ويكد بكلتا يديه وكلتا رجليه وربما لم ينطق بكلمة واحدة وذلك كاصحاب الصنائع الشاقة· ومنهم من يكتفي بان ينطق في بعض ايام الاسبوع بكلمات وذلك كالخطباء والوعاظ والمرشدين الى الدين · ومنهم من يفتك ويبطش ويجرح ويقتل كالجند · ومنهم من يعالج ويداوي ويشفي ويحمي كالأساة واولياء الله تعالى اهل الكرامات والمعجزات ·· ومنهم للتفريق ومنهم للتأليف بين الآحاد ومنهم من يتكوّى في بيته فلا يكاد يخرج منه الا لضرورة · ومنهم من يصعد الجبال والادقال والمنابر والاشجار · ومنهم من يهبط الاودية والمراحيض ومنهم من يسهر الليالي في تاليف كتاب ومنهم من لا يذوق النوم حتى يحرقه ·· ومع هذا التنافي والتباين فمآل مساعيهم وحركاتها كلها الى شيء واحد . . . .

أَو ما كفى بني ادم ما هم عليه من الشقاء والعناء والجهد والبلاء والمشقة والنصب واللأواء والتعب والحرمان والنحس والقنوط والتعس يحبل بهم في الفرث والوصم ويولدون بالاوجاع والالم و يرضعون في الضرر ويغبطون في الخطر ويحبون فيعثرون ويدرجون فيتدهورون ويمشون فيكلون ويكدون فيملون ويبطلون فيتضورون اذا جاعوا خاروا ووهوا واذا اكلوا اتخموا وبجروا واذا ظمئوا ضووا واذا شربوا غلثوا وغثثوا وخثروا واذا ارقوا ذابوا وقلقوا وكمدوا واذا ناموا ذهب العمر منهم سدى واذا هرموا ملهم اهلهم واخوانهم

اختضروا حسَّروهم تحسيرًا ربما احانهم. ثم هم بين ذلك في تحصيل اسباب المعاش ساعون وفي التظاهر باللباس والزينة معنون والعذب منهم متهافت على امرأة تكون له اهلاً . وذو الاهل همه بزوجه وتربية ولده طفلاً وكهلاً فاذا مرضوا مرض واذا حزنوا حزن وجرض. وويل له ان تكن زوجته بزرآء . او كانت عاقرًا وذماء وراى لغيره من المتزوجين بنين ذوي طلعة ناضرة وشمائل سارة فيقول في نفسه انما لذة الدنيا البنون واني ميت بلا خلف واي منون . وكم من سقوط ظفرٍ وهن الجسم كله وكم لقلع ضرسٍ ذهب الصبر او جله. وما عدا الادواء المتعضلة والعلل المتأصلة وتخالف الازمان وحول الاحوال وتعاقب الاحزان ودول الحال على هذا الجسم الواني البال ففي الشتا يكون عرضة للريح والزكام والبلغم والرطوبات والعفونات . وفي الصيف للصفرآء والحمى والصداع والترهل والاستنقاع وفي الربيع لهيجان الدم وتبيغه ونزغته وفي الخريف لتحرك السوداء واذى الهواء وندغته . ثم ان منهم من يولد ويعرض له من العيوب والامراض الخبـاء والحدب والحسبه [1] وغير ذلك من العيوب كأن يكون الانسان قشعومًا او مقرقماً . ومن الادوآء التي لم يعرف لها بعد اسم ومحال ان تحيط بها كلها حالة كونها غير مستقصاة هذه الثمانية والعشرون حرفًا . . . واعود فاقول الم يكفِ بني ادم ان مدى عمرهم قصير وهمهم فيه طويل كثير وامرهم عسير لكل منهم من العنـاء والجهد واللوعة ما يكفيه واخرين معه فطالب العلم يسهر الليالي في تبيين

(١) هنا يعدد المؤلف اكثر من ثلاثمائة اسم من اسماء الامراض والعيوب الطارئة على الانسان

مشاكل وايضاح مسائل وذو الصنعة يقضي نهاره كلها مكباً على عمله ذا سخط حتى ينال كفافه فقط · وذو الامارة مشغول البال باحكامه وسياسته والرئيس ذو هم برئاسته · والتاجر يبكر الى محترفه وهو مشغف من كساد بضاعته والطبيب يخشى ان ترشد الناس فيستغنوا عن براعته والربان يحذر من عصف الارياح · والراجل من شب نار الحرب التي وقودها الارواح · · والحارث يوجل من كثرة الامطار وهبوب الاعصار · والمعلم من رغبة الناس عن العلم الى الجهل والمتعلم من عقبة الكتاب وعاقبة الكتاب الشافه لما عنده من ثمد الجلد والحاظر له عن اللهو واللدد · والمغني والعازف بآلات الطرب من وقوع الغلا او استيلاء الحزن على قلوب الاغنياء · واللاعب من اهتداء الناس الى الجد · والشاعر من القائه ممدوحه كالحجر الصلد · او محبوبة ذا جفاء وصدّ · والزوج من فرار زوجته وكساد ابنته وهما من بخله وحرمانهما من ثروته · وفي الجملة فكل ذي حرفة يخاف من انحراف نفعها عن جانبه وكل يدعو لصلاح حاله ولو بفساد حال صاحبه اذ لا تكاد تتم مصلحة من هذه المصالح المذكورة الا وينجرّ معها مفسدة بالضرورة كما قال ابو الطيب المتنبي : مصائب قوم عند قوم فوائد · ومع ذلك فكل يزعم انه محق فيما ساله جدير بنوال ما امله وان لغته في ذاك عند الحق سبحانه وتعالى اصدق مقالاً

نعم اعود فاقول : او ما كفى الناس الخوف من الموت يفاجئهم وهم في دعة واطمئنان او يفجعهم بفقد ما لديهم عزيز من اهل وولد واخوان وخلان وحيوان · (اذ بعض الناس يكلفون بالخيل والطير والسنانير والكلاب كلفهم بالاهل والاصحاب) او الرعب من ان يسقط احدهم عن

ظهر دابته فتندق عنقه او تسري النار في بيته فيحترق تالده وطريفه فيعدم رزقه او يقع في تيار فيخفأ الى ما شاء الله · او تخسف به الارض او يخرّ عليه السقف من فوق · او تبلغه الوكة من مسافة مائتي فرسخ فتقلقه وتورقه وربما ابكته دماً او ياتيه سارق فيسرق متاعه الذي هو قوام معيشته او يفقد ما في كيسه او هميانه في الطريق · او ينشب في عينه عود فيعطلها او تتشنج به عضلة فيعد بعدها من سقط المتاع · او يأكل شيئاً ضاراً فيودي به او شيئاً مسموماً فيسقط امعاه وارابه · او يرى جميلة فيروقه جمالها فيصبح وهو هائم متيم يشكو للطبيب من سقامه وللشاعر من غرامه فلا هذا يطمعه ويمنيه ولا ذاك ينفعه ويشفيه · او تنبحه الكلاب وتخرق ثيابه فيبدو وذمه او يسيل دمه · · · · نعم ألم يكفهم هذا كله حتى طفق بعضهم يجهز على بعض كتائب الحدس والتخمين · ويجرد عليه مقانب الخرص والتزكين · فاقبل قوم منهم على قوم برماح الطعن مشرعة وبسيوف اللعن مبضعة وبنصال الجدال فائدة مارقه وبنبال الجلاد صاردة خانقة فقال بعض · · · وقال بعض · · · ·

* * * * * * *

ثم حشد كل من الفريقين بخيله ورجله وتلاقى كل من الجيشين بسلاحه ومحله فمن بين قارع بحد الحسام ورام بالسهام وباطش بيده وقاذع بلسانه وهاج بقلمه فالرؤوس متناثره الدماء جاريه والاعضاء متطايرة والحرمات مهتكة والمال مسلوب والديار مخربة والحزازات في الصدور كامنة والمشاحنة ظاهرة وباطنة والخيل مسرجة والكماة مدججة والطرق معطلة والارض محلة والفرص للانتقام مرقوبة · والدعوات

في الليالي مشبوبة

* * * * * * *

فيا ايها الناس اعتبروا بمن فات كيف صار الى الرفات وان منهم من كان يذكر اسمه في حياته بالبركات فاصبح يذكر باللعنات · ومنهم من كان يحسب في قومه سراجا وهاجاً · فصار يحسب دخاناً وعجاجاً ومنهم من كان ياكل حتى ينتفخ بطنه وتجحظ عيناه ويتلجلج لسانه وترتخي شفتاه فصار الان الدود ياكله وبعض الحشرات يستوبله

يا ايها الناس وجمهوركم في سبات والباقي في نعاس · فرار من غرور النفس · وحذار من قرور الرمس · وبدار الى تقديم عمل صالح يقربكم الى الله · ويلأم بعضكم بعض وانتم في الحياه · اتموتون وفي قلبكم الحقد على خصمكم وفي افواهكم اللعن على مخالفكم في زعمكم · ألم يقل لكم الحق · كونوا يا عبادِ على الارض اخواناً فانكم من اب واحد وام واحدة وانكم جميعاً لميتون وسواء كنتم ذوي وجوه سمر او حمر او صفر او سود او بيض انكم كلكم بشر انكم كلكم فانون انكم ناظرون ولامسون وسامعون وشامون وطاعمون ألم اظهر لكم في طلوع الشمس وغروبها وفي بزوغ الكواكب ومغيبها وفي سكون الريح وهبوبها وفي خمود النار وشبوبها وفي زخر المياه ونضوبها · وفي صروف الدهر وخطوبه وهمومه وكروبه وفي سواد الشعر ومشيبه وفي هرم الجسم وشحوبه وفي الازمان اذا توالت والاحوال اذا حالت والدول اذا دالت وفي الغياض اذا ابهجت والرياض اذا دبّجت والاشجار اذا اورقت وجرّدت · والاطيار اذا زقزقت وغرّدت وفي اللسان اذا نطق · والقلم اذا مشق · ليس لعمري بين الوحوش

الضارية والطيور الكاسرة ما بينكم من العداوة والبغضاء والضغن والشحناء اذكروا يوم صعد خطيبكم المنبر فدعا واستغفر واستخار الله واستبشر . . لا تتنازعون على لون طعام تأكلونه وشكل شراب تشربونه ونوع فراش تتوسدونه فما للخلاف في هذه الدنيا فطرتم ولا بالخصام والمعاداة امرتم . . اعملوا بايديكم ساعتين اذا عملتم بالسنتكم النضناضة ساعة واجمعوا امركم عند تفرّق اهوائكم على الالفة والطاعة . ولا تتلاوصوا الى معرفة ما لغيركم من الهفوات وانتم من ذوي البطالة والترهات الم تعلموا ان الارحام من الرحمة اشتقت والى المصاهرة شقت وعلى الانساب انطبقت والى التآخي والتآلف خلقت وبالتواد اختصت ولانتهاز فرص الحظ فرصت فما لكم عنها تتباعدون وتتقاعسون وتتقاعدون فلا يفيزكم الله بالآخرة ولا يسمع دعاء احد منكم الا اذا تآلفتم في هذه الدنيا وليصفِّ كل منكم لاخيه نيته وودهو يحفظ له عهده واذ قد اتفقتم على المخلوق فلا تختلفوا على الخالق فهو رب المغارب والمشارق

الجاذبية وحبُّ الذات

« لجرجي افندي زيدان »

« نقلاً عن الهلال السنة الخامسة »

حب الذات صفة لازمة للاحياء بل هي خاصة من اهم خصائص المادة بالاجمال جماداً كانت او نباتاً او حيواناً وهي اصل العمران وعليها مدار هذا الكون ولولاها لكان العالم هباءً منثوراً لا قوام لهُ ولا حياة

وقد يتبادر الى ذهن القارىء اللبيب ان في قولنا هذا مبالغة او تساهلا ولكننا نقرر الواقع باجلى بيان واقوم دليل واليك التفصيل

يرجع حب الذات في الانسان الى تمني كل ما يظن فيه خيراً له والنفور من كل ما يظن فيه شراً وبعبارة اخرى هو ميل الانسان الى كسب كل حسن نافع وتلك صفة ليست خاصة بالانسان بل هي من طبيعة سائر انواع الحيوان والنبات وتتناول الجماد ايضاً فان المادة تحب ذاتها وحب الذات متمكن في كل ذرة من ذراتها على كيفية نسميها « الجاذبية »

فما الجاذبية الا كيفية من كيفيات حب الذات وان شئت قل ان حب الذات كيفية من كيفيات الجاذبية فان كل دقيقة من دقائق المادة تجتذب الدقائق الاخرى بقوة ملازمة لها وهي طبيعة جعلها الخالق فيها ليتم العمران بها ولولا الجاذبية لتبعثرت اجزاء المادة وذهب هذا الكون هباءً منثوراً

والجاذبية في المادة على انواع ودرجات ترجع كلها الى حفظ النظام وبقاء الكائنات فمن انواع الجاذبية الجذب بين دقائق كل مادة على حدة كالتي بين دقائق الحديد او بين دقائق الماء او بين دقائق الخشب وبها تحفظ كل مادة قوامها وشكلها وبعبارة اخرى تحفظ نوعها ويسمى هذا النوع من الجاذبية جاذبية الالتصاق ومن الجاذبية نوع يقال له الجاذبية الشعرية وهو عبارة عن امتصاص الاجسام الجامدة ذات المسام للاجسام السائلة كما يمتص الاسفنج والسكر والخشب الماء · ومنها الجاذبية الكيماوية ويسميها الكيماويون الالفة الكيماوية وبها تتحد العناصر بعضها ببعض فيتكون

من اتحادهامواداخرى تختلف عن تلك العناصر صفة وقواماً كاتحاد الاوكسجين والهيدروجين فيتكون منهما الماء وكما يتكون الملح من اتحاد الكلور والصوديوم وكما تتكون نترات الفضة (حجر جهنم) من اتحاد الحامض النتريك والفضة · وعلى الالفة الكيماوية تتوقف خصائص الاجسام على اختلاف طبائعها وظواهرها · ومنها الجاذبية المغناطيسية وتكون بين الاجسام الممغنطة وهي قاصرة على الحديد ومن هذا القبيل الجاذبية الكهربائية التي تتولد في الاجسام بواسطة الكهربائية · ومن انواع الجاذبيــة الثقل وهو القوة التي تجتذب بها الارض كل ما عليها من الاجسام · واعظم انواع الجاذبية واوسعها دائرة الجاذبية العامة بين الاجرام على اختلاف ابعادها وبها يحفظ نظام الافلاك وحركات الكواكب فان كل جرم من الاجرام السماوية يجذب سائر الاجرام الاخرى فالارض تجذب الشمس والقمر وسائر السيارات والثوابت · والشمس تجذب الارض والقمر وسائر السيارات والثوابت وكل من السيارات يجتذب كلاً من الثوابت والسيارات وكل من الثوابت يجذب كلاً من السيارات والثوابت على التبادل وكلها تفعل ذلك بميل طبيعي فيها لا يحتاج الى اكتساب او تدريب

وحيات النبات والحيوان قائمة بما بين اجزاء كل منهما من جاذبية الالتصاق وما تتناوله من الغذاء بالجاذبية الشعرية فالنبات يتناول غذاءه بامتصاص والحيوان يفعل مثل ذلك ايضاً

فحياة الكون المادية والحيوانية قائمة ببعض انواع الجاذبية وهي جارية في الطبيعة بالفطرة بلا روية ولا تعقل على الاطلاق ويطلق عليها اسم الجاذبية بلا استغراب

اما الحياة الادبية فهي قائمة ايضاً بالجاذبية ولكنها تظهر لنا على اسلوب نسميه « حب الذات » او الحب مطلقاً ولكنه مع ذلك يجري فينا بالفطرة لا يختلف في شيء عن الجاذبية الاَّ في اعتبارنا فقط امافي حدذاته فهو والجاذبية شيءٌ واحد

لا ينكر احدٌ منا انه يحب ذاته ويحب كل شيء لذاته ولكننا نتفنن في اساليب تلك المحبة على كيفيات واعتبارات تظهر لنا انها تخالف الجاذبية ولو أمعنا الفكرة لا تضح لنا انها كيفية من كيفيات الجاذبية العامة وما الفرق بينهما الاَّ كالفرق بين الحقيقة والمجاز وكل ذلك من تاثير التصنع والتهذيب فالطفل اذا تركته لفطرته تناول كل ما يعثر عليه وجعله في فيه ولو استطاع ان يلقم كل ما يراه تراباً كان او لحماً او ماء لفعل واذا وقعت يده على جسم كبير لا يدخل في فيه ضمه الى صدره وبخل به فلا تستطيع استخراجه من يده الا كرهاً · ثم اذا تعلم ما ينفعه وما يضره اقتصر على النافع وغادر الضار ولو امعنت النظر قليلاً لرأيته انما يترك الضار كرهاً لا طوعاً فكأنه لا يزال ميالاً الى اجتذاب كل شيء نحوه بقطع النظر عن علاقته بمصلحته فهو من هذا القبيل كالاجسام الجامدة في تجاذبها · ثم اذا انتقلنا من التجاذب بين الانسان والجماد الى ما بين افراد الانسان لرأينا الفرق بين الحب والجاذبية يبتعد بحسب الظاهر فان كلاًّ منا يشعر بغريزة فيه للحب ولا يمكنه ان يعيش بدونه فاذا كان طفلاً احب والديه فاذا شب احب اخوته او رفاقه ثم لا يلبث ان يحب الشاب الشابة وبالعكس فاذا تزوج ورزق اولاداً احب اولاده ثم اولاد اولاده وهو انما يفعل ذلك مدفوعاً بغريزة فيه لا يرتاح الاَّ بها ويدلك على المشابهة بين هذه المحبة

والجاذبية ان الانسان اذا احب آخر اظهر تلك العاطفة بضمه الى صدره او تقبيله او شمه وما التقبيل الا اثر للابتلاع فان بعضهم اذا هاجت به عاطفة الحب نحو شخص همَّ بعضه وهو يشعر كأنه يريد ان يبتلعه وذلك يشبه ميل الطفل الى ازدراد كل ما تقع يده عليه

ثم نرتقي الى نوع من الحب يبعد الفرق بينه وبين الجاذبية اكثر مما تقدم وهو التحزب والتشيع اوما يعبرون عنه بالتعصب وهو يقع بين الجماعات او بين فرد وجماعة او بالعكس وترى الحب في هذا الحال قد تركب وتنوع حتى كاد ينفصل عن اصله فيخال لنا انه شيء آخر وقد يقال ان حب الفرد للجماعة مغاير او مناقض لحب الذات والواقع ان الانسان لا يحب جماعة ولا يتشيع لجماعة الا سعياً وراء مصلحته الخصوصية فهو بالحقيقة يحب ذاته ضمناً لان المرء لا يتشيع لحزب الا وهو يعتقد الخير فيه لنفسه فهو بذلك يجرُّ نفعاً لذاته ولا فرق في ان يكون ذلك النفع مادياً او ادبياً رأساً او ضمناً وقد لا يظهر لك من قرائن الحال ما يدل على خير يرجوه ولكنك لو امنعت النظر لرأيت في تشيعه هذا خيراً يتوقعه لنفسه لا اقل من ان يشعر بلذة يرتاح اليها ولو انفق كل ماله في سبيل الحصول عليها فهو لذلك سعي في مصلحة ذاته واللذّات الادبية قد تكون اقوى من اللذات المادية فان من الناس من يرتاح الى ثناء الناس عليه واعجابهم بشهامته اكثر كثيراً مما يلتذ بحشد الاموال واكتساب الثروة ومنهم من يفضل المال على كل خلة من الخلال الممدوحة وفي ذلك من الغرابة ما فيه

وقد يظهر التشيع مظهراً اغرب من كل ما تقدم فترى الرجل الواحد يتشيع للشيء ونقيضه معاً وهو لا يدري فان الاب مثلاً اذا اجتمع بأب،

آخر ولو اختلفا مذهباً ووطناً ومشرباً اوجدا بينهما جامعة الابوّة واخذا يتندّدان في الاولاد وما يقاسونه من العذاب في تربيتهم وما ينفقونه من الاموال في تعليمهم وعن عقوق الاولاد بهم واذا اجتمع رجلان مهما اختلفت جنسيتاهما ومشرباهما فانهما يتحدان بجامعة الرجولية على النساء فقد يشكو احدهما الى الآخر ما يقاسيه من معاملة النساء او الاولاد واذا اجتمع شابان شكيا من حال الشيوخ . ناهيك عن تحزب كل طائفة دينية كانت او سياسية او وطنية . وتنديدها بالطوائف الاخرى وقد يتحد الصناع على الشكوى من التجار ويتحد المستخدمون على الشكوى من اصحاب الاعمال وقس على ذلك اتحاد اهل البلد الواحد على اهل البلد الآخر واهل الزي الواحد على اهل الزي الآخر واتحاد طوال القامة على قصارها وسمان الاجسام على نحيفيها وبيض البشرة على سمرها او سودها وقد يتحد الجهادي الفرنساوي والجهادي الانكليزي على الملكيين من الامتين ونحو ذلك مما لا يقع تحت حصر من التحزبات والتشيعات التي تدل دلالة صريحة على ميل الانسان الى التحزب والتشيع فكأنه لا يكتفي بما ارتبط به من الاحزاب الدائمة حتى يلتمس احزاباً وقتية ويميل للاتحاد مع الاقرب وكأن البعد يؤثر على حبه كما يؤثر على الجاذبية بين الجمادات فان الحجر تزداد قوة الجذب فيه بازدياد القرب مع بقائه على ولاء البعيد بقاء يختلف قوة باختلاف البعد حسياً كان ذلك البعد او معنوياً كالاجرام السماوية فان كلاً منها يجذب الاجرام الاخرى بقوة تتفاوت بتفاوت البعد بينها

وكما ان الانسان اذا انجذب للقريب لا ينسى تحزبه للبعيد فالجمادات اذا جذبت القريب لا تفقد قوتها لجذب البعيد ولكن تلك القوة تكمن

فيها حتى تظهر عند التقاءها بذلك البعيد فتظهر. اما البغض فقد يظن القارئ انه من خصائص الاحياء دون الجماد ولكن الواقع انه من خصائص المادة على الاطلاق . وما البغض حقيقة الا قوة الدفع وكلاهما امر سلبي عارض بتفاعل قوتين جاذبتين متفاوتتين فالدفع عبارة عن قوة مستقرة بين دقائق المادة تقاوم قوة الجذب فتحفظ قوامها وتمنع تلاصقها وتكاثفها فتحفظ المسام بين اجزائها وعليها تتوقف مرونة الاجسام وهي ايضاً القوة الكائنة بين الاجرام السماوية وبها ينتظم سيرها ويحفظ كل جرم في فلكه ولولاها لتجاذبت الكواكب وتصادمت وبطل النظام . على انها ليست قوة مستقلة بذاتها بل هي ناتجة من تفاوت الجذب بين تلك الاجرام وتلك حكمة يتم بها التوازن

والبغض ايضاً نتيجة تفاعل قوتين متجاذبتين لانه في ابسط احواله يتولد بين شخصين يتنازعان على شيء وكل منهما يطالبه بنفسه مندفعاً بحب ذاته فمن غلب واخذ ذلك الشيء منه تنبهت فيه حاسة البغض وتظهر اولاً بظهر الحسد فان الحسد اصل البغض على انواعه بل هو اصل كل الشرور يفرق بين الاخ واخيه والابن وابيه ومن امثلة ذلك واقدمها حكاية قايين وهابيل فانهما اخوان تجمعهما محبة الاخوة التمسا رضا الخالق بقرابينهما فكأنهما كانا يجتذبان الرضا كل منهما نحو نفسه فلما استقل به هابيل تولد الحسد عند قايين وكره اخاه . وكما ان الدفع يقع بين الاجسام الجامدة عن غير قصد ولا تعقّل فهو يقع ايضاً بين الناس كرهاً ولولا التهذيب والتدين لكان الحسد اكثر ظهوراً واوسع انتشاراً بين بني الانسان ولكن التهذيب والتربية يخفيانه على ان الانسان مهما تهذب وتربى وحاول التغلب على عاطفة الحسد فهو يشعر بها في باطن سره عند ادنى داع يدعو

اليها فهي صفة ملازمة للانسان ملازمة حب الذات له ولكنها سلبية اي انها غير موجودة بنفسها بل هي ناتجة عن تفاعل قوتين كما يندفع الحجر عن سطح صلب اذا صدمه بقوة شديدة فانه يرتد عنه بالانعكاس

ولو اردنا تعليل كل انواع البغض لفصلناها مطولاً ولكن المقام لا يساعدنا على ذلك فنكتفي بما تقدم ونقول بالاجمال ان الحسد اصل كل انواع البغض كما ان حب الذات اصل كل انواع الحب وهما معاً يقابلان قوتي الجذب والدفع بين اجزاء المادة · والخلاصة ان الجاذبية وحب الذات شيئان متشابهان او هما تنوع شيء واحد وعليهما مدار هذا الكون مادياً وادبياً .

النور والظلمة

« من قلم سليم افندي البستاني »

« نقلاً عن الجنان سنة ١٨٧٤ »

الانسان حيوان ناطق وشتان بينه وبين الحيوان الاعجم فانه مركب من قسمين مهمين وهما الجسد والعقل ولكل منهما وظائف وتاثيرات يختلف بعضها عن البعض الآخر · فللجسد قوة حاسة خارجية وهي علة ملذاته وسبل توصيل المعارف الى عقله وقد جعل الله سبحانه وتعالى في العالم ما يناسب كلاً منهما فان حصرت ملذاته في الدائرة التي وضعها لها الخالق والتي يقبل بها العقل لا تلحق به لوم لائم ولا توبيخ موبخ اذ انه بذلك يقوم بايفاء احدى الغايات التي قد خلقه واجب الوجود للقيام بها غير انه من المقرر ان الملذات الجسدية ليست الغاية العظمى التي قد خلقنا الله للقيام

بها لاننا نشترك نحن وسائر الحيوانات بها فان جعلناها غاية الوجود نحط شان قوتنا العاقلة فنبيت نحن والحيوانات الغير الناطقة في درجة واحدة فان الوحوش تعيش متمتعة بالملذات الجسدية وتفنى بدون ان تبقى اثار لها. فبالقوة العاقلة مع قوات اخرى عاملة يميز الانسان عن سائر المخلوقات الحية فان استخدمناها ندرك لذات ذات شان ونفع مناسبة لمخلوق عاقل مميز وهي اثبت من الملذات الجسدية فان الانسان يقدر ان يتمتع بها ولو خسر اسباب الراحة الجسدية ولا سيما عند ما يمسي منقطعاً عن الملذات الجسدية وهي سلوة العاقل في خلوته وتعزيته وهو في بحار مصائبه وهي مصدر نور العقل وقوة نوال المعارف التي هي اساس التقدم والتمدن ومفتاح الثروة واين الجاهل من العاقل العارف فانه ينمو كالنبات او كالحيوانات الدنية واستخدامه لقواته الطبيعية انما هو نتيجة الاحتياج الى تحصيل ما يقوم بالاود ولولا ذلك لوجدناه ملقى في حالة الكسل في ظل الاشجار عند الشعور بالحر وفي نور الشمس عند الشعور بالبرد ينظر الى ما حوله من عجائب المخلوقات كما ينظر اليها ثوره. فلا يعرف غير الامور التي تحيط به والاعمال اليومية التي يقوم بها فلا يعلم شيئاً عن قبائل الارض التي هو من اهلها ولا عن بحارها ولا انهارها ولا قاراتها ولا جزائرها ولا مخلوقات البر والبحر ولا تقلبات الامم ولا حوادث التواريخ حتى انه ربما كانت معلوماته لا تتجاوز الحدود التي تدركها معلومات الحيوان الغير الناطق. ولا يعلم شيئاً عن حقيقة الفضاء المتسع والاجرام التي تدور فيه فينظر الى الكواكب كما ينظر الى سراجه حتى انه لا يتعب نفسه في البحث عن ذلك. ويجهل كل عجائب الطبيعة ومفاعيلها والاختراعات والاكتشافات ولا يعلم كيف يجمع نور المعارف في

العقل ولا يدرك ملذاتها ومن صفاته الابتعاد عن كل ما يغير ما تعوده ولو كان اصلاحاً فيعيش كما عاش سلفاؤه ولو كان محاطاً باسباب الامراض والتاخر وكانت نقائص عاداته ظاهرة فيقول هذه عادات اجدادي الحسنة فلا ابدلها بالعادات الجديدة . فلو كان جميع الناس على هذه الحال لوقف دولاب العالم الادبي والمادي وانقطعت الاختراعات المفيدة وثبتت المضار الجارية وساد الجهل والخرافات فيبيت الانسان غير قادر على ادراك الدرجة العليا التي تليق به وفي العالم الوف بل ملايين من الذين قد استولت ظلمات الجهالة على عقولهم فلا يعرفون اللذات الحقيقة التي قد جعل الله سبحانه وتعالى الانسان اهلاً للتمتع بها حال كون الذين قد انيرت عقولهم بشموس المعارف الحقيقية يعلمون ما لا يعلمه الاغبيا ويشعرون بما لا يشعرون به ويلتذون بما لا يلتذون به . فبمعارفهم وارائهم وتاملاتهم يدخلون عالماً جديداً ويرون اموراً وحركات لا يراها الذين قد غاصوا في لجة بحر الجهل فيرون اسباب الوقوف على حوادث الزمان منذ بدايته فيرون اهم الحوادث وارتفاع الممالك وسقوطها وتقلبات الامم وفسادها واصلاحها واسباب ثروتها واسباب ذلها ويرون من اعمال الافراد والجماهير ما يمكنهم من ان يختاروا لانفسهم السبل المريحة الامينة وعيونهم تبصر ما لا تبصره عيون الآخرين فينظرون الى الدنيا باختلافاتها وقاراتها وجزائرها وبحارها وانهارها وجبالها وكهوفها وغاباتها وبحيراتها وصحاريها ومعادنها وممالكها ومدنها وجزرها وجبالها الثلجية في شمالها وجنوبها ويعرفون اسبابها ونتائجها وتاثيراتها ويصعدون بتصوراتهم الى اعالي جبال النار المائجة ويرون معادنها المنقذفة ولهيبها وحجارتها ودخانها ومأها وبخارها وبجلوسهم في مخادعهم يصعدون على اعلى

الجبال ويهبطون الى اعمق الوديان ويتاملون باعظم قوة الطبيعة وهم يطالعون قراطيس مكتوبة ويدون ان يجولوا في كل الارض يختبرون قبائلها وبلدانها ومحصولاتها وعاداتها وتجارتها وماليتها وهواها وصناعتها وفلاحتها وقوانينها واديانها ومعارفها ومدنها وقراها فتفتح امامهم ابواب التجارة والصناعة ويعلمون احتياجات البلدان فيقومون بالمشروعات ويمدون الطرق والاسلاك · وبواسطة مكبراتهم ومقرباتهم يدخلون عالمًا لا يراه الانسان بالعين المجردة ولا يعرف به الذين لم تنر المعارف عقولهم فيرون في النباتات من عجائب المخلوقات ومن اختلافات التراكيب ومن الاعضاء التي تقوم الحيوة بها ما يدهش العقل وفي قطرة من الماء يرون الوفًا من المخلوقات المختلفة الانواع والهيئات ويرون بها ان العالم كله مملوءات فاغصان الاشجار وسطح الارض والماكولات والهوا والماء هي مغطاة بمخلوقات حية تولد وتعيش وتموت ولها قوة الحس وغير ذلك من متعلقات الحيوانات الكبيرة · وماذا ياترى يعرف الجهلاء من ذلك · واذا نظر العارفون الى الفضاء الذى يحيط بنا يرون غير مايراه الجهلاء الذين لا يعلمون ما هو ولا ما هي الاجرام السابحة فيه · مع ان فيه مادة ليست بسيطة ولكنها مركبة من مادتين متضادتين فاحدهماينبوع اللهيب والحيوة الحيوانية والاخرى تفنيهما وباختلاطهما تنتج منافع كثيرة مهمة وفي ذلك الفضاء عنصر نمو النبات وكل جمال عالمه وعنصر حفظ الماء سائلاً وعنصر النار واللهيب والحرارة الحيوانية وعاضد الغيوم وفيه اسباب الرياح وعلة انتشار الروائح ومبلغ الصوت وعلة لذة الغناء والات الطرب فمنه مصدر الحركة بالبخار فهو الذي يجعل المراكب تسير ويوقد النيران ويطحن الحنطة ويرفع المياه والمركبات

الهوائيةوهو ينبوع الوف من الفوائدولولاه لما قدرت المخلوقات ان تعيش في هذاالعالم . فكل هذه المعارف توسع دائرة العقل وتثقفه وتروضه وتجعله مستعداً لادراك الامور وفض المشاكل والتامل بحيث يصير مصيباً في التدبير والملاحظات هذا خلا اللذات الذي يجنيها العارف بمعارفه وهي تفوق الملذات الجسدية بدرجات كثيرة . وما هذه الاشياء من عالم المعارف كله الا بعض اصغر جزء من الكل فان صاحب المعارف يجني الملذات والفوائد حال كون اهل الجهالة محاطين بظلام كثيف فانهم لا يعلمون شيئاً عن الدنيا التي هي بينهم مع ان العارف يلتذ بما يعرفهُ من انها كرة سابحة في وسط الفضاء وبالحقيقة ليس لها فوق ولا تحت ومع انها حاملة اثقال جبالها الشامخة وبحارها المتسعة ومخلوقاتها التي لا تحصى تدور بهم جميعاً بسهولة ستين الف ميل في الساعة . حتى انه يقدر ان يرتفع بمعارفه الى زحل ويرى حوله دائرة قدرها ستمائة الف ميل وهي تدور بعظمة حول جسم تسعمائة مرة اعظم من ارضنا وذلك مرة كل عشر ساعات وفي جلد ذلك الكوكب سبعة اقمارا اكبر من قمارنا وكواكب كثيرة . حتى انه يقدر ان يرتفع في الفضاء ويبعد الى ان يرى الشمس وعالمها كنقطة صغيرة تكاد لا ترى فيشاهد ملايين من الكواكب والنجوم ويتيه بين شموس واقمار وعوالم لا تعد ولا تحصى سابحة في فضاء لا نهاية له ولا يدركه عقل ولا يتصوره انسان وكلها مع عظمتها وكبرها وثقلها وسرعة حركتها غير راكزة على شيء ولا معلقة بشيء ولكنها كالطير تدور على نفسها كما يدور الدولاب وتغير مراكزها بالارتفاع والانحطاط والجولان واي عقل لا يتعب ويقر بالعجز والتقصير عند تصور ذلك وكفانا للتعجب والاندهاش عظمة الفضاء

فانه لا يحد والظاهر انه ليس له نهاية فهو كالازلية والابدية مما لا يدرك اسراره غير الخالق سبحانه وتعالى · فمن ياترى يقف على تفاصيل هـذه الامور ولا يشعر بلذة لا توصف فان عقل الجاهل يلتذ بأخبار خاتم المارد والجان وقنديل الف ليلة وليلة وهي اوهام باطلة فاسدة وللعقل عجائب صحيحة اعظم من عجائب الف ليلة وليلة وعلي الزيبق بالف الف مرة وهي معجزات الله سبحانه وتعالى فمن ياترى يعرف كيفية التامل بهذه الامور التي لا نذكر غير اصغر مباديها ويشغل نفسه بالتامل ولا يقول ما اضعف الانسان واطول ادعاءهُ واعرضه فقبل ان يحاول ان يدرك صفات الله سبحانه وتعالى وهو لا ينظرهُ فليدرك ما هو محاط بهمن معجزات الموجودات

هذا ومن المؤكد بالتجارب عن العقلاء والجهلاء انهم يلتذون بالوقوف على الاخبار الجديدة اذا كانت حكايات او توضيحات عن قوات طبيعية كاسباب الهواء والرعد والبرق والشتاء او عن اخبار الابطال والانقلابات والزلازل وهيجانات البراكين وغير ذلك وهذه في خاصيات الفطرة وكل مازادت معارف الانسان يزداد شوقه اليها ويشتد تلذذه بها واقتداراه على تحصيلها وجمعها فان الله قد جعل في الانسان ميلاً الى الوقوف على الامور المجهولة عندهُ وجعل للوصول الى ذلك لذة حتى اننا نقرا الاخبار الكاذبة ونلتذ بها وقد جعل كثيرين من الكتاب شانهم تصنيف الحكايات لخلطها بالافادات والزام الذين لم يتعودوا التامل والتفكر بان يطالعوا الافادات وهم يطالعون الحكايات وبالوقوف على غرائب الطبيعة ومعرفة غوامضها يلتذ العقل اكثر مما يلتذ باغرب الحكايات · فاذا بحثنا في امر واحد طبيعي وهو قوة الجاذبية نرى اخبارًا غريبة ببراهين مقنعة ظاهرة وهذه الجاذبية هي عبارة عن

القوة الجاذبة الموجودة في الارض التي تجذب ما عليها الى مركزها او اليها فاذا بحث الانسان في هذه القوة التي لا نعرفها الا من نتائجها يتعجب و يلتذ جداً فانها هي التي تجعل الكرة المعروفة بالطابة تعود الى الارض بعد ان تدفعها عنها وهي التي تجعل صعوبة الصعود وسهولة النزول وبها تجري الانهار وتسقط الشلالات وتثبت الجبال هي وتجعل حدًّا للبحار وتمنع المخلوقات في العالم حتى الانسان عن ان يرتفع عن سطح الارض (من اصعب الامور ان نوضح كل شيء من هذه الاشياء ونأتي عليه ببرهان لان توضيح مادة الجاذبية وحدها للغير المتعلم لا يتم باقل من صفحتين او اكثر فذكر هذه المبادي هو للتشويق ولاظهار تقصير الذين لا يطلبون المعارف ليطلبوها او يجعلوا اولادهم يطلبونها ولولا الجاذبية لبات البشر وكل ما على سطح الارض يتطاير في الفضاء باضطراب وارتباك ويبقون فيه بدون ان يستقروا في مكان الى الابد ما لم تدركهم القوة الجاذبية او قوة اخرى تقوم مقامها وترجعها الى حالة الثبوت وبهذه القوة يهطل المطر وينحدر الندى ويتم المد والجزر وهي ضابط حركات كل الحيوانات · وهي مصدر قوة الات وبها يدور القمر حول الارض وتمنعه عن الابتعاد في الفضا ولها قوة جارية بين الارض والقمر ومؤثرة فيها وبين الشمس وابعد السيارات · وهي التي تحفظ الاجرام الفلكية المذكورة وتلك الشموس والاقمار والكواكب والعوالم التي لا تحصى في سبلها وتمنعها عن ان تخرج عن دوائرها · هذا ولا يخفى اننا اذا حككنا شمعاً احمر غير عسلي بصوف منسوج (فلانلا) وادنيناه من ريش صغير او قطع اوراق صغيرة يجذبها اليه واذا حككنا انبوباً من الزجاج او ظهر هرة في الظلام يخرج نور من الزجاج ومن ظهر الهرة ويسمع

صوت. فاي عقل يا ترى لا يلتذ بتعجب واندهاش عندما يعلم ان سبب ظهور ذلك النور هو كسيب وميض البرق وهو ايضاً علة الشهب المتساقطة والنور الشمالي. ولا يخطر لاحد الجهلاء ببال بان كل عالم النبات من النبتة الصغيرة التي تكاد لا ترى الى الشجرة العظيمة المعروفة بشجرة البنيان التي يستظل بظلها في وقت واحد عشرة الاف رجل هي كلها مركبة من اربعة او خمسة عناصر وليس اكثر وهي الحرارة والنور والماء والهواء والكاربون فاذا حالت بالحرق او بغير ذلك تعود الى تلك العناصر التي هي مركبة منها فهذا هو مصدر كل النباتات مع زهورها واثمارها واغصانها وصمغها والوانها ومنافعها ومضارها. ومن الامور العجيبة ايضاً ان الهواء الموجود في الفضاء يحملنا على الدوام ثقلاً قدره اكثر من ثلثين الف ليبرا بدون ان نشعر بذلك الثقل مع ان هذا الثقل لازم للقيام بالحيوة ومن اغرب الامور بان وجود نحو اوقية واحدة من الهواء داخل الجسم الانساني يقابل كل ذلك الثقل بقوته الانتشارية ولولا ذلك الهواء في الداخل لتكسرت اجسامنا تحت ذلك الثقل وثقل الهواء على منازلنا عظيم جداً ولولا الهواء داخلها لهدمت في الحال بثقل الهواء الخارجي. ولهذا الهواء الموجود في الفضاء حولنا اعمال اخرى مهمة جداً في الطبيعة والصنائع فانه يدخل مسامات النباتات واجساد المخلوقات ويقوم بالتنفس في كل المخلوقات في عالم الحيوان وعالم النبات وبكبسه يتم لصوق الاخشاب بالغراء فان الغراء يملأ المسامات بحيث لا يبقى هواء مطلقاً بين القطعتين والتصاقهما نتيجة كبس الهواء من خارج حال كونه ما من هواء بينهما في المسامات التي نراها بالعين المجردة او لا نراها لتدفع بقوة الانتشار وتمنع الالتصاق وان بقي اقل كمية من الهواء بين

القطعتين لا يتم الالتصاق ورفع الماء يكون به ويمنع المياه في البحار من ان تعلي وتحول الى الفضاء فتصير البحار يابسة فهذه قوة الهواء العجيبة ومنافعه الغريبة . ومن لذات المعارف ومنافعها اظهارها ما لا يتصوره العقل قبل الامتحان والتدقيق فمن يا ترى يعرف من اول وهلة ان التنفس هو نوع من الاحتراق وان الماس ليس هو الا فحماً جعله مرور الازمان ماساً وان الهواء مركب من غازين غير منظورين وان احدهما عنصر اللهيب وان اللون الابيض هو نتيجة مزج كل الالوان فانه يركب من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق وغيرها وان مصدر كل الالوان الكثيرة في العالم انما هو نور الشمس وان العنصر الذي يمكننا من اضرام النار هو نفس العنصر الذي تتركب الحوامض منه وهو علة الصدا وبه تنمو النباتات في الليل وان النباتات تتنفس وتعرق كالحيوانات . وان الهواء الذي تنير به بيوتنا هو نفس الهواء الذي يرفع المركبات الهوائية وان اوراق الاشجار التي تتساقط على الارض ويظهر لنا انها قد فنيت الى الابد تتحول بواسطة اوكسوجين الفضاء وهو عنصر الحرارة الى غاز من حامض الفحميك ونفس هذا الغاز يركب نباتات جديدة جميلة . وان العنصر الذي نشعر بحرارته هو علة السيلان ويدخل في كل شيء في الطبيعة ويسير الينا من الشمس قاطعاً ١٩٥ الف ميل في الثانية وبواسطة تاثيره العظيم يمنع كل الارض وما عليها وما فيها من ان تصير جسماً واحداً صلداً اي يتغلب عنصر البرودة اي بسلب الحرارة . ومن اعجب الامور الحركة السريعة التي تتحركها اجرام كبيرة جداً فان الزهراء وهي نجمة الصبح وهي قدر الارض تسير في الفضاء العظيم قاطعة ٧٦ الف ميل في الساعة وان المريخ يتحرك ١٠٥ الاف ميل في الساعة

حتى ان زحل مع كل عظمته ودائرته يسير ٢٣ الف ميل في الساعة ٠ وان بعض الانجم ذوات الاذناب عندما تقرب من الشمس بسيرها تطير بسرعة غريبة قاطعة ثمانمائة الف ميل في الساعة وان الوفاً بل ملايين من هذه الاجرام العظيمة تتحرك على الدوام حركات يصعب على العقل ان يتصورها لان قوة التصوير تعجز عن ان تمكن العقل من ادراك هذه الامور حق الادراك لانها مما لم يقع ضمن دائرته ٠ وما هذه الاجرام العظيمة اعجب من الفضاء الذي تسبح فيه ومع ان المسافة واقعة بين الارض والشمس ليست الا من المسافات القصيرة بالنسبة الى الواقعة بينها وبين اجرام اخرى وبين تلك الاجرام وغيرها الى ما لا يعد ولا يحصى لتعجب عند ما نسمع اننا اذا دفعنا كرة من مدفع من الارض الى جهة الشمس وجعلناها تقطع خمسمائة ميل في الساعة لا تصل الى الشمس الا بعد ان تدفع بعشرين سنة ومع ذلك جاذبيتها تحفظ عالمنا في مركزه وحرارتها هي عنصر الحيوة عندنا ٠ وهذه المسافة الواقعة هي كالعدم بالنسبة الى المسافة بين الارض واقرب نجم ثابت فان كرة المدفع لا تصل اليها الا بعد اربعة ملايين وخمسمائة الف سنة وقد راى المنجمون بمكبراتهم انجماً تبعد اكثر من مائة مرة اكثر من بعد ذلك النجم الثابت ولذلك لا تصل الكرة اليه الا بعد اربعمائة مليون سنة ٠ فما اعجب ذلك واي نفس يا ترى لا تطلب التخلص من هذه الاجساد الفانية المتعبة المقيدة بها في هذه الارض الصغيرة لتطير في ذلك الفضاء وتتفرج على تلك الاجرام العظيمة التي لم تخلق عبثاً فان الحكمة ترافق القدرة والحكيم لا يخلق شيئاً عبثاً فسبحان الخالق

عبادات اليابانيين

« لسليم افندي البستاني ايضاً »

« نقلاً عن الجنان سنة ١٨٧٤ »

من الامور المقررة في نظام مملكة اليابان عدم التعرض للحرية المذهبية ما دامت لا تخل براحة الامبراطورية وسلامتها. وهذا هو سبب سهولة نشر الاديان الخارجية فيها مع انها اخرت الاديان القديمة جداً. وكان فيها اربعة الاديان. اول سنتو وهو الدين القديم ومؤسس على عبادة الاوثان. والثاني بدسدو وهو عبادة اصنام اجنبية أُتي بها من سيام والصين. والثالث سيوبتو وهو تعاليم حكمائهم واهل الاداب منهم. والرابع دفيوس او كريستاندو اي دين المسيح. واقدمها الدين الاول وهو سنتو واتباعه ليسوا باكثر من اتباع غيره واهمها الدينان الاولان فانهما اعم الاديان وهما سنتو وبدسدو

فقاعدة اهل الدين الاول التمتع بالسعادة في هذا العالم. فان ما يعتقدون به من متعلقات خلود النفس هو غير واضح عندهم ولا يدركون حق الادراك متعلقات الثواب والعقاب. ومع انهم لا يهتمون بامورهم الروحية المستقبلة يعتنون كل الاعتناء بعبادة المعبودات التي يعتقدون بانها تدير احوال العالم وعندهم ان لكل معبود مهامّ متعلقة به. وعندهم ان المعبود الاول السائد على جميع المعبودات والمخلوقات ساكن في اعلى السموات وان المعبودات الثانوية ساكنة بين النجوم ومع ذلك لا يعبدونها ولا يقيمون اعياداً لها اذ انه مقرر عندهم ان معبودات مرتفعة ذلك الارتفاع

عن البشر لا تهتم باحوال مخلوقات حقيرة كالبشر · ومع ذلك يحلفون بالمعبودات المذكورة ويكتبون اسماءها في حلفهم الرسمي · وكل عباداتهم وطقوسهم متعلقة بتعظيم المعبودات التي يعتقدون بانها متسلمة ادارة احكام بلادهم واحوال محصولاتها وعناصرها كالماء وغيره وحيواناتها · فانه مقرر عندهم انها تقدر ان تاتيهم بالشقاء والسعادة وان تمكنهم من الحصول على امور حسنة في الاخرة بحسب اعمالهم · والظاهر ان هذا الدين هو دين الامة اليابانية الاول · اما الكهنة فيعلمون الطالبين الدين باجرة اذا تعهدوا بكتم ما يتعلمونه ولاسيما القانون الاخير المتعلق ببداية كل المخلوقات ولا يعلمونه ذلك القانون الابعد ان يتعهد بالكتابة تحت اسمه وختمه بانه لا ينجس تلك الامور المقدسة عندهم والغالية باظهارها للعامة الجاهلة وهذا القانون في كتابهم المسمى اوداكي وترجمته في ابتداء فتح كل الاشياء كان الخلو والخواء سابحين كما تسبح الاسماك في البحر للتنزه نخرج منهما شيء متحرك وقابل التغيير فصار ذلك الشيء نفساً او روحاً واسمه كونيتو كوداتسنو ميكوتو · اما تابعو هذا الدين فيسمون هيا كلهم ميا ومعناها مسكن الارواح الخالدة ويسمون المعبودات التي يعبدونها سن وكامي ومعناها الارواح ويسمونها احياناً بالعالين والمقدسين والعادلين والغيورين · اما مراكز خدمة دينهم وخدمة دين سائر اديان يابان فمبنية في اجمل مواقع البلاد وعلى الغالب هي في المدن الكبيرة المهمة او بالقرب منها ويكون امام هيا كلهم طرق واسعة على جانبيها شجر السرو · ولا يعتقد اصحاب دين سنتو بالتناسخ مع ان ذلك هو اعتقاد اكثر الشرقيين · ومع ذلك لا يذبحون الحيوانات النافعة لخدمة البشر ويقولون انه لا يفعل ذلك غير الكنود القاسي · ومن اعتقاداتهم ان

انفسهم تذهب الى مكان سعادة تحت ٣٣ سماء لمعبوداتهم وان انفس الصالحين منهم تدخل ذلك المكان حالاً . اما ارواح الاشرار فتمنع عن الدخول الى ان تكفر عن خطاياها فهذا كل ما يعتقدون به من متعلقات الاخرة والعقاب والثواب . ولا يعرفون جهنم ولا اماكن للعقاب . ولا يعرفون شيطاناً غير شيطان الثعلب اي الذي يعتقدون بانه ساكن فيه . والثعلب في يابان اكثر الحيوانات تعدياً على المزروعات والاهالي يخافونه اذ يعتقدون بان فيه شيطاناً . حتى ان بعضهم يقول ان الاشرار بعد موتهم ينتقلون الى الثعالب وخدمة دينهم يسمونه الروح الشرير . اما قواعد هذا الدين فهي اولاً طهارة داخل القلب . ثانياً الامتناع عن كل ماينجس . ثالثاً المحافظة على الاعياد والايام المقدسة عندهم . رابعاً زيارة الاماكن المقدسة في ايزي . وعند بعض المتدينين جداً انه من الفروض قهر الجسد . فطهارة القلب عندهم هي عبارة عن القيام بالفروض الموضوعة بامر الروساء الروحيين او السياسيين . اما طهارة الجسد فهي بالامتناع عن لمس الدم وعن اكل اللحم وعن لمس الموتى . فالذي يتنجس بشيء من ذلك لا يقدر ان يدخل الهيكل ولا ان يزور الاماكن المقدسة ولا يجوز دخول النساء الهياكل في ايام الحيض . وعندهم ان النساء اللواتي يذهبن لزيارة ازجي ينقطع حيضهن . وربما كان سبب ذلك شدة اتعاب السفر الطويل اومن اجتهاد اللواتي لا ينقطع حيضهن . وربما كان سبب ذلك شدة اتعاب السفر الطويل او من اجتهاد اللواتي لا ينقطع حيضهن في ستر الامر خوفاً من العار . وكل من ياكل لحم حيوانات من ذوات الاربع يبقى نجساً ثلثين يوماً اما الذي ياكل لحم الايل فلا يتنجس . والذي ياكل

الطيور يكون نجساً ساعة واحدة يابانية وساعتهم قدر ساعتين من ساعاتنا والاستثنا لا كل البازي وطير اخر · وكل من يقتل حيواناً او يحضر قتل انسان او موت انسان او يدخل بيتاً فيه ميت يكون نجساً يوماً واحداً وهو اليوم الذى يرى فيه ذلك · ومن اعظم اسباب التنجس موت الاقارب وكل ما كان الانسان اقرب للميت يكون تنجسه اعظم وعندهم اذا قصر الانسان في القيام بهذه الامور يخسر الطهارة الجسدية ومعبوداتهم لا تحب النجاسة ولذلك لا يسوغ لهم ان يدنوا من هياكلهم · وحفظ الاعياد عندهم انما يكون بالذهاب الى الهياكل وزيارة مدافن قديسهم وهذا من الامور التي تصلح في كل الاوقات غير ان القيام بها في الاعياد من الفروض ما لم يكن الانسان نجساً فيها · اما عباداتهم في الهياكل فتكون هكذا يغسلون اجسادهم ويلبسون احسن ملابسهم وثوباً مخصوصاً بالاحتفالات الدينية ثم يسيرون برزانة الى فسحة الهيكل ثم الى حوض الماء ليغسلوا ايديهم هذا اذا مست الحاجة الى ذلك ثم يسيرون الى نفس الهيكل وهم ينظرون الى الارض ولوائح الورع والاحترام تلوح على وجوههم · ويصعدون على الدرجات المودية الى داخل الهيكل وهي واقعة امام نافذة الهيكل وداخلها مرآة فيجثون هناك على ركبهم ويحنون رؤوسهم بتأنٍ واتضاع وتذلل ثم يرفعون رؤوسهم وهم راكعون ويلتفتون الى المرآة ويصلون صلوة قصيرة ويطلبون طلباتهم ومنهم من يطرح نقوداً من النافذة تقدمة للمعبود ولخدمته · وبعد ذلك يقرعون الجرس ثلث مرات فانهم يعتقدون بان معبوداتهم تسر جداً بصوت الالات الموسيقية وعندهم ان الجرس منها · وبعد ذلك يرجعون للتنزه والاكل والشرب والموانسة بمجالسة بعضهم البعض الاخر · ويجعلون

ولائمهم واحتفالات عقد الزواج والافراح في الاعياد ليس فقط مراعاة للفراغ ولكن لانهم يعتقدون بان معبوداتهم يسرون بذلك · اما التجار منهم فاكثر عباداتهم للمعبودات الاربعة الآتية اسماؤُها وهي جيبيسو وهو الذي نفاه اخوه تنيسيوديسن الى جزيرة وسكن فيها وعندهم انه كان يعيش يومين او ثلثة ايام تحت الماء وهو معبود الصيادين والذين اشغالهم في البحار · وتمثاله عندهم جالس على صخر وفي يده الة توقيف مسير القوارب · والمعبود الثاني داكوكو وعندهم انه حيثما ضرب بمطرقته يخرج ماء يرغب في ان يخرجه من الارز والمال والملبوس وغيرها وتمثاله جالس على قفة من الارز وفي يده المطرقة وبجانبه كيس لوضع ما يخرجه والثالث اسمه توسيتوكو ويعبدونه في اول السنة ليباركهم بحيث ينالون نجاحاً وتوفيقاً · والرابع فولي وهو الغنى والصحة والسعادة · وهذه المعبودات اعم معبوداتهم واهمها وعندهم اعياد لقيام تذكار كثيرين من مشاهيرهم · ومن النساك عندهم من يترك العالم وملذاته للتفرغ للعبادة فيصرفون اكثر اوقاتهم في تعب انفسهم بالصعود على جبال مقدسة عندهم والانحدار عنها ويغسلون انفسهم في ماء بارد في وسط الشتاء · اما الاغنياء منهم فيبقون في بيوتهم ويقومون بذلك اما الفقراء فيعيشون بالتسوّل · وعندهم انه اذا صعد انسان على جبل مقدس وهو نجس يدخله الشيطان اي روح الثعلب فيصاب بالجنون ومن واجبات كل الذين ينتظمون في سلك اولئك النساك ان يعرضوا انفسهم لمخاطر السفر الى جبل من الجبال المقدسة عندهم مرة في كل سنة وكثيراً ما تزل اقدام بعضهم فيسقطون من اماكن مرتفعة ويموتون او يصابون بامراض من مشقــة السفر ورداءة الماكل وهي الاعشاب النابتة

في الطريق اما الذين يقومون بذلك ويرجعون سالمين فيذهبون الى روساء السلك ويقدمون لهم هدية مالية فيرفعون درجتهم فتتغير ملابسهم الدينية بعض التغيير واذا كانوا فقراء فمن واجباتهم ان يستعطوا المبلغ اللازم للرئيس

فهذه هي قواعد الدين المعروف عندهم بسنتو · اما دين بودسدو فهو عبادة الاصنام الاجنبية التي ادخلت الى يابان وتفسير بودسدو سبيل الاصنام الاجنبية · والمرجح ان اصل هذا الدين الذي انتشر بسرعة في اسيا الدين البرهمي فان فيه ادلة كثيرة تدل على ان واضع الدين المذكور هو نفس واضع الدين المسمى ببودسدو واسمه عند البراهمة بودا وعندهم انه بعض فيشنو وهو معبودهم الاول الذي ظهر على الارض المرة التاسعة بهيئة انسان وسمى نفسه بودا · واما الصينيون واليابانيون فيسمونه سيا كا · وعاش ٧٩ سنة وكانت وفاته في الشهر الثاني من سنة ٩٥٠ قبل المسيح وما ياتي هو قواعد دينه الاساسية

ان ارواح البشر والحيوانات كلها خالدة فانها كلها من مادة واحدة ولا تختلف الا بالنظر الى الظروف التي يصير وضعها فيه · ولا بد لارواح البشر من ثواب او عقاب بعد الموت ويسمون دار الخلود جوكوراكف ومعناه السعادة الابدية · وعندهم ان بين معبوداتهم تفاوتاً وكذلك بين ارواح البشر فسعادة كل انسان تكون بحسب استحقاقه غير ان السعادة تملا ذلك المكان حتى ان كل انسان يظن ان قسمه منها اعظم قسم فلا يحسد غيره ولكنه يتمنى ان يكون نصيبه اعظم نصيب اما رئيس دار الخلود عندهم فيسمونه اميدا وعندهم انه يحب البشر ويحميهم وانه اب الذين

يدخلون دار السعادة ومعبودهم وبدون شفاعته وحده لا ينال البشر غفران الخطايا ولا يتمكنون من الحصول على السعادة المذكورة. وعندهم انه لا سبيل الى الحصول على رضاه ونوال جزائه الا بالتقوى والمحافظة على نواميس معبودهم سياكا وعندهم خمس وصايا وهي اساس ناموس سياكا وهي . لا تقتل مخلوقاً فيه حيوة . لا تسرق . لا تزنِ . لا تكذب . لا تشرب مسكرات شديدة التاثير

اما الذين يخالفون النواميس ويرتكبون الاثام بحيث يبيتون لا يستحقون ان يدخلون دار السعادة فعندهم ان ارواحهم ترسل الى دار الشقاء واسمها دسيجوكف ليتعذبون فيها ليس الى الابد ولكن بحسب ذنوبهم فانهم يعتقدون ان في العذاب تفاوتاً كما في السعادة وعندهم ان رئيس دار العذاب اسمه جيما وكذلك يسميه البراهمة والصينيون جرجيما . ويعتقدون بانه في يد هذا الرئيس نظارة مكبرة ليرى جميع ذنوب البشر كما هي . وعندهم ان العذاب لا يدوم على انه بواسطة تقوى اقارب المعذبين وفضائلهم في الارض يمكن تخفيف العذاب . وافعل الوسائط لتقصير زمان العذاب صلوات خدمة دينهم وتقدماتهم لمعبودهم اميدا وهو رئيس دار السعادة عندهم فان رضاه يحمله على ان يجعل رئيس جهنمهم يطلق سبيل المعذب فيدخله الى سعادته الابدية . ومن اغرب اعتقاداتهم انه بعد نهاية الزمان المفروض لعذاب روح احدهم يطلق رئيس التعذيب سبيله ويسمح له بان يصير روح حيوان صفاته قريبة من ميله السابق الشرير فيصير روح حية او ضفدع او طير او حوت او حمار او فرس او اسد او غيرها . ثم يأخذ في الانتقال من جسد حيوان الى جسد حيوان آخر ارفع درجة منه الى ان

يعود الى جسد انسان مرة ثانية فان سلك سبل الصلاح والتقوى يدخل جنتهم والاَّ فيعذب ويرجع الى التقمص من جسد الى جسد كما مر

وفي ابتداء القرن السابع عشر دخل الدين المسيحي يابان بواسطة خدمة الدين الكاثوليكي واكثرهم من اليسوعيين وانتشر بسرعة انتشاراً غير موسس على فهم الحقائق الدينية وفي سنة ١٦١٥ للميلاد عرف امبراطور يابان بانه صار الدخول في امور سياسية فغضب جداً وامر بابطال الدين المسيحي ونفي خدمة الدين المذكورين وعين اعظم قصاص للذين يتنصرون · فرجع اكثر الذين كانوا قد تنصروا غير ان بعضهم لم يرجعوا فجرى اضطهاد من اعظم اضطهادات العالم ومنذ ذلك اليوم اشتد بغض الاهالي لكل شيء نصراني · على ان مداخلات ملوك اوربا غيرت اموراً كثيرة ولا تزال تغير

الحرب

« نقلاً عن مجلة البيان لليازجي وزلزل سنة ١٨٩٧ »

الحرب مناجزة المتخاصمين بالسلاح طمعاً في جرّ مغنم او دفعاً لمغرم فهي هجوم ودفاع وسطوة وامتناع فطر عليها الانسان لما في طبعه من الاثرة والعدوان ونزعت اليها القبائل والممالك في كل زمان ومكان على ما يصحبها من نهب الاعمار وهدر الدماء واستباحة الذمار وجوائح البلاء وما تجرّ وراءها من البوار والدمار وتخريب الديار والجوع والوباء وجميع ضروب الشقاء فهي اعظم الخطوب الملمة بالسلائل البشرية واشد المصائب على الحالة المدنية بل هي اكبر جناية اقترفها الانسان ضد نفسه وتعمدها لهلاك ابناء جنسه · على ان قوماً لا يرون فيها الا العدالة يصان بها الذمار

والعزّة تحمى بها الممالك والامصار والأنفة من احتمال مذلة الضيم والعار والقوة التي يمتنع بها الجار على الجار وقد كتبت على الناس مكرهين وربما جعلت فرضاً من فروض الدين ولم تزل الامم تعظم شأن الابطال وتقيم الانصاب للذين غلبوا في ساحة القتال تخليداً لذكرهم واجلالاً لقدرهم قال ابو الطيب

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ

وقال

اعلى الممالك ما يبنى على الاسلِ والطعن عند محبيهنّ كالقبلِ
وما تقرّ سيوفٌ في ممالكها حتى تقلقل دهراً قبل في القللِ

ولا مراء في ان الانسان نشأ على محبة الخصام والرغبة في الانتقام اذ لم يكن لمطامعه رادع ولا لشهواته وازع بدليل ما حدث في القدم من مقتل احد الاخوين ولم تكن ارض الله ضيقة على اثنين . ونرى في الآثار البشرية الباقية منذ الازمنة العريقة في القدم قبل عهد التاريخ ظرّاناً استعملها الاولون سلاحاً للصيد والحرب قبل ان عرفوا المعادن واستنبطوا الشبه والحديد وكانوا في عهد همجيتهم يصطادون بعضهم كما كانوا يصطادون البهائم ويقرمون الى اكل اللحم البشري كما تفعل بعض القبائل الوحشية لهذا العهد فكان شأنهم في اثارة الحرب شأن الضواري يفترس القويُّ الضعيف ثم استنبطوا السلاح من المعادن فاستعملوا القسيّ والرماح والسيوف والدروع والخوذ وغيرها وقد ضربوا في اكناف الارض ينتجعون موارد الكلاء لسوائمهم ويحيون مواتها بالحرث والغرس لمعاشهم فصارت الحرب غيرةً ومنافسةً كما بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة وفي هـذه الحالة صار الانتفاع

بالاسرى وسيلة لاستحيائهم حيث كانوا يسترقونهم لحرث الارض ورعاية المواشي . ثم صارت عدواناً وغزواً كما بين الامم الوحشية الذين يجعلون ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم مما بايدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه الحرب . ولما قويت اسباب الحضارة واتسع العمران ولي الاحكام ملوك توسلوا بالسلطة الدينية الى ما طمحت اليه نفوسهم من الاستبداد فجمعوا الجيوش الجرارة يزحفون بها بعضهم على بعض وبالغوا في احكام المعاقل والحصون والاكثار من العدد وآلات الهجوم والدفاع وما زالوا على ذلك من قديم الزمان ينكلون بعضهم ببعض ويريقون الدماء ظلماً وبغياً حتى اندرست معالم العمران وتقوض بناء المدنية بقباب السكان

ومن نظر الى ما حدث في تلك الحروب من الفظائع والموبقات وما افضت اليه من خراب الممالك وارتكاب المنكرات تبين ثم الاسباب التي حملت انصار المدنية من ساسة الممالك على انكارها والقيام ضدها فلم يبقَ لها ذكر الا في مخيلة بعض الاغرار ممن طمس الجهل على عقولهم والفضل في ذلك لفئة من رجال الدين قامت بتدبير بعض ممالك اوروبا على اثر الحروب الدينية بين الباباويين والبروتستنت وقد تنبهت هذه الممالك من سنة الغفلة وشعرت بما كان يمزقها من الدسائس الداخلية فعهدت بتدبير شؤونها الى رجال ذوي حنكة وحزم اجمعوا على تقرير السلام بين الدول الاوروبية فسلخت الصفات السياسية عن الجيوش وقوادها وتقيدت كل مملكة منها بنظام تعرف منه حقوق الحكام والمحكومين واستقلت وزارة الحرب وسنّت القوانين التي تعرف بها حقوق الدول فيما بينها وجرت المعاهدات على حفظ السلام العام . على ان الحروب لم تبطل ولكنها تحولت من الحالة الدينية

الى الحالة المدنية على ما هو جار الان بين الدول

ولا ينكر ان سياسة هذا العصر جارية على المكر والدهاء لا على القوة والبطش وغايتها حفظ الموازنة بين الدول الاوروبية الكبيرة والمحافظة على ما لكل دولة من الحقوق والاملاك ومبدأها حفظ السلام تذرعاً الى نماء العمران وانتشار الامان واتساع نطاق التجارة في كل مكان · على ان كل دولة تناظر الاخرى وتكاثرها فيما لديها وتوجس منها خيفة الغدر والفتك وتحذر من ضعفها بازآء قوة جارتها وتحين فرصة لتتقوّى اما بالاستعمار او باختراع آلات الهلاك او بالمال او بمحالفة غيرها مما تشدّ به ازرها او بغير ذلك وكل دولة واقفة للاخرى بالمرصاد تراقب كل اعمالها الداخلية والخارجية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً · واذا كانت الامة راتعة في بحبوحة الرفاهية سابقة القدم في حلبة المدنية راقية في معارج النجاح وكانت هي المتصرفة في تدبير شؤونها لا يصدر ساستها الا عن رأيها فما ابعدها ميلاً عن الحروب وما اقربها الى حفظ السلام ولذلك لا يخشى وقوع حرب بين الدول الاوروبية اذا لم تختل الموازنة بينها

وقد تقرر عندهم اليوم ان الموازنة بين الدول الاوروبية لا تثبت اركانها ولا يقوم بنيانها الا بالمحافظة على السلم مع الدولة العثمانية ولذلك حين هبت الدولة اليونانية لمناشبتها الحرب في هذه الايام راينا الدول الاوروبية ولا سيما الروسية ممالئة للدولة العثمانية ضد اليونان على حين كانوا يستغيثون بها فلم تحفل بهم ولم تحركها العوامل الدينية الى قطع العلائق المدنية فثبت ان لفظة الحرب الدينية قد الغت من معجم السياسة على ان ثمت حرباً اشدّ نكالاً بالشرقيين من الحروب الدينية وغيرها

وهي الحرب التي يشبها علينا الاوربيون واساطيلهم لا تمخر البحار وقنابلهم لا تقذف النار وجيوشهم لا تثير الغبار اعني بها الحرب الادبية التي ينازعوننا بها مصادر الحياة فانها بحجة المعاهدات التجارية قد جاسوا خلال الديار فدنّا لهم صاغرين ثم تبوّأوا منصة السيادة فاقبلنا عليهم مستعبدين وانّى يتاح لنا ان نناظرهم وهم السابقون في حلبة الابداع والاختراع الدائبون على توفية العلم حقه من التدقيق والتحقيق القائلون القول يصدّقه الفعل لا يدالسون فيه ولا يؤالسون الفاعلون بما تقتضيه الحرية لا يخافون ولا يتكتمون ونحن بالترهات لاهون وعن الحقائق متشاغلون

واذ قد فصل السيف الان بين الدولتين وحسم ما كان يخشى ان تجره هذه الحرب من العواقب الهائلة ساغ لنا ان نعقد الامل بعود السلم الى مجراه ودلنا ما آنسناه من صنيع الدول في هذه النازلة وتصرفهم في سياستها ان الحرب قد اصبحت في هذا العصر من ابعد الامور حدوثًا فلا يخشى ان تقف في طريق نجاح الامم وتقدمهم في سبل الحضارة والعمران وان ما تنشئه يد العلم والتمدن اليوم لا تسطوعليه يد الجهل والخشونة غدًا فتردهُ اثرًا بعد عين وهذا لا شك من افضل ثمرات المدنية في هذا العصروان راى بعض الناس خلافًا في الامر بما تصوّره لهم اهؤاهم · ومن تمثل حالة البلاد التي كانت معتركًا لهذين الجيشين وما آلت اليه من الخراب والدمار وما سفك فيها من الدماء الزكية المملوءة حياةً وشبابًا وذوى بجانبها من الامال التي كانت تبسم بهجةً واستبشارًا وما طرأ بسبب ذلك من اقفار المنازل وخلو المدن الاواهل وهلاك الزرع والضرع وتعطل التجارات والصناعات وما نزل بالقوم من دواهي الثكل وتشتت شمل

الاحباء والاهل وانغماس العيال في الفاقة المدقعة والشدائد المتنوعة الى غير ذلك من ضروب البلاء والوان الشقاء كفاه ذلك عبرة تقشعرّ لها الابدان واستعاذ بالله من شر الانسان وما احسن ما قاله علامة العصر المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي طيب الله ثراه وجعل الجنة مأواه

ولقد رايت الأُسد احسن خلةً　　من جنس هذا الناطق المتمرّد
الناس تقتل كل يومٍ بعضها　　والأُسد تقتل غيرها اذ تعتدي

المقامرة

« نقلاً عن مجلة البيان ايضاً »

يعتري خلق الانسان كثيرٌ من العلل كما يعتري بدنه كثير من الامراض لفسادٍ يطرق عليه فينحرف عن محجة الاستقامة كما ينحرف مزاج الانسان عن الاعتدال لفسادٍ يطرأ عليه ونتيجة ذلك بالموت الادبي واذا كان فضل الطبيب عظيماً لاعتنائه بمعالجة الامراض التي تعتري بدن الانسان قصد شفاءها ففضل الذي يعتني بصلاح الاخلاق تقويم قصد ما اختل منها اعظم ونفعه اعم لان اصابة الاجسام بالامراض اقلّ خطراً من اصابة الاداب ولقد احسن ابو الطيب المتنبي حيث قال

يهون علينا ان تصاب جسومنا　　وتسلم اعراض لنا وعقول

ولما كان البحث في خلل الآداب من اهم ما تمس اليه حاجة البلاد رأينا ان نوسع له مجالاً في هذه المجلة وآثرنا الان الكلام على المقامرة وهي علة من شر العلل الوبيلة المستحوذة على الاخلاق تفشت في بلادنا وكثرت في هذه الايام ارزاؤها وعظمت خطوبها وعمّ بلاءها على اننا لانقتصر في ما

نذكره عنها على بيان الطرق التي تنجع في شفاءها ولكننا نتحرى الاسباب التي تحمل عليها قصد ملافاتها قبل تمكنها واستحكامها شأن الطبيب الحاذق الذي لا يصف العلاج مجازفة قبل تحقق ماهية العلة واسبابها

ومعلوم ان لكل داء دواء الا المقامرة فانها اعيت من يداويها وذلك لان الانسان بالطبع يميل الى اللهو على شغفه بتحصيل المال والثروة عفواً فاذا لاح له بارق الامل من خلال البخت والنصيب وكان في يده ما يسعفه على اجابة سؤل النفس الامارة بالسوء ارتطم في هذه الورطة وسواء ربح ام خسر فهو لا يزال مواظباً على اللعب آملاً تعويض الخسارة او زيادة الربح حتى تصير المقامرة فيه ملكة راسخة متمكنة لا تقوى عليه نصائح الناصحين ونواهي الشرائع والدين فهي كالداء العقام لا ينجع فيه دواء حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً

ولا مراء في ان حالة الانسان في دنياه اشبه بحالة المقامر من حيث الاجتهاد في دفع مغرم او الطمع في جر مغنم فهو لا يزال بين عوامل الياس والامل وفواعل الاتفاق والنصيب ولكن شتان بين من يعمل عملاً مفيداً ينتفع هو به ويعود بالنفع على ابناء جنسه وبين من يعمل لضرر نفسه وضرر قريبه فان العامل ان نجح عمله سر به وان لم يفلح كان له نوع من التعزية بانه قام بما يجب عليه خلافاً للقامر الذي يخاطر بما له طمعاً في الربح واعتماداً على البخت فان ظفر والا رجع يعض انامله اسفاً ولم يجد لنفسه في تلك المخاطرة عذراً

والمقامرة انواع كثيرة مرجعها الى البخت والنصيب ومنها ما يكون فيه البخت والنصيب مقرونين بالحذق والمهارة ومنها ما يقتصر فيه على التحيل

والغش ومنها صناعة النصب المعروفة بالبورص وهي عبارة عن تغرير المشتري بثمن نسيئةً الى اجل مسمى يلتزم عند حلوله بدفع ما نقص من قيمة الشيء وهو ما سمي في اصطلاحهم بالتغطية · وهذه الصناعة قد برع فيها الاوربيون وملك زمامها المتمولون منهم يتصرفون في الاسعار بين هبوط وارتفاع على نحو ما يؤثرون ولما كان اهل بلادنا دونهم حنكةً واقل منهم مالاً وقد غرَّهم منها سراب الامل اقبلوا عليها فكانت خسائرهم فادحة ادَّت الى خراب كثير من البيوت العامرة · واعتبر بما حل ببيروت بسببها منذ امد قريب وما آلت اليه من الخراب وبوار التجارة وفقد الثقة المالية حتى قدر العارفون انها لا تعود الى سالف غناها الا بعد خمسين سنة تمر عليها بالرخاء مع ان الخسارة ابتزَّها الاغنياء من متوسطي الحال الذين اغروهم بشراء اسهم في تجارات لا يفهمون منها شيئاً ولا يعرفون كيف يتلفظون باسمائها

وجنون المقامرين فنون وقصصهم عجائب غرائب وهم منتشرون في كل مكان معروفون في كل زمان مقذوفون بكل لسان محكوم عليهم في كل الشرائع والاديان وهم مع ذلك لا يرعوون · فان القمار كان منتشراً كثيراً بين الرومان قبل خراب جمهوريتهم بمدة طويلة حتى اولع به الرعاع مع ان شرائعهم حظرته وقام حكماؤهم وخطباؤهم ينادون على المنابر بتحريمه وتقبيحه وذكر المؤرخون ان الجرمان اولعوا بالقمار ولعاً شديداً كان يحملهم على الجنون ويدفعهم الى ارتكاب الجرائم حتى كان الواحد منهم يقامر على نفسه بعد خسارة ماله فيسترقُّ الغالب المغلوب ولا ممانعة ويتصرف فيه كما يشاء ولا معارضة · اما الهون فكانوا يقامرون اولاً على اموالهم فان خسروها قامروا على سلاحهم وهو اعز شيء لديهم فان خسروه قامروا على انفسهم

وكثيراً ما كانت تنتهي مقامرتهم بالانتحار . وكان المقامرون في نابلي وغيرها من مدن ايطاليا يتراهنون على انفسهم بان يملك الغالب رقبة المغلوب حيناً من الدهر وحكي ان رجلاً من البندقية قامر على امرأته وان صينياً قامر على امرأته واولاده وان المقامرين في موسكو وبطرسبرج يقامرون على اثاث بيوتهم وما يملكون من الارض بما تشتمل عليه من المزارعين فتنتقل ملكية المزرعة المقامر عليها مع فلاحيها وبهائمها الى عدة اشخاص في اليوم الواحد والحكايات من هذا القبيل كثيرة يولف منها كتاب كبير الحجم يستشف منه غرائب حوادث الجنون الناتج عن هذا الداء الوبيل المنتشر في جميع انحاء العالم حتى بين الهمج فهو على قدمه لا يزال شديد الوطأة على الآداب ذريع الفتك بالبشر كثير التفشي ولا سيما في المدن الآهلة بالسكان الحافلة بالاغنياء ممن فسدت اخلاقهم وارتطموا في حمأة المعاصي اولئك الذين الهتهم بطونهم وفخرهم في خزيهم

ومما يزيد في تفشي هذه العلة الوبيلة بيوت المقامرة السرية القائمة في المدن الكبيرة حيث يأمن المقامرون التعساء عار الفضيحة فمن الواجب اذاً على كل حكومة عادلة ان تتحرى البحث عن هذه البيوت الجهنمية فتعطلها وتبالغ في قصاص اللصوص القائمين بأمرها تاديباً لهم وارهاباً لغيرهم من البشر حتى يصيروا عبرةً لمن اعتبر

لا جرم ان المقامرة تخلب العقول فلا يبصر المقامر الهاوية تحت اقدامه لان بريق الذهب يبهر نظره فهو كالظمآن في الفلاة يرى الآل فيتوهمه ماءً فيجد السير ولا يزداد الا ظمأً وكلما قرب منه ابتعد عنه حتى يعتريه الكلال فيهلك وعلى هذا النحو يجد الذي يحصر اللعب من نفسه دافعاً

يحمله على اقتفاء اثر غيره والتحدي باصحابه وهو يرى من خلال الامل بريق الثروة والسعادة واذا تعس جده وربح في اول لعبه لا تعود تضبطه شكيمة فيستسلم للقضاء المبرم حتى يعود بصفقة الخاسر فكم من رجال حضروا مجالس المقامرة لمجرد التسلية فعادوا من اكبر المقامرين . ومن امثالهم ان احد الشاهدين لا بد من ان يصير مقامراً . ومن لعب مرةً اضطرمت فيه محبةً اللعب حتى لا يعود يقوى على دفعها ولذلك قيل المقامرة لجة يغرق الغائص فيها لا محالة لانها لا قرار ولا ساحل لها . ومما يجمل ذكره هنا ما نقش على باب احد بيوت القمار وهو « لهذا الكهف بابان باب الامل وباب الاثم والهلاك يدخل اليه من الاول ويُخرَج من الثاني »

واذا تبينت ذلك علمت ان المقامرة داء عقام لا يرجى شفاؤه فلا سبيل لاجتناب ضرره الا بالابتعاد عن وبائه وافضل طرق الوقاية منها مجانبة الكسل والبطالة ومحايدة اللهو واللعب والبعد عن بيوت المقامرة ومصاحبة المقامرين والذين يفاخرون بالسحت ويعدون بيوتهم للقمار وكفى بما تقدم تنبيهاً للغافلين وتبصرة للعاقلين

السوريون

« عن مجلة البيان ايضاً »

سوريا التي لعبت بها يد الغير وفجعتها طوارق الحدثان بعد العين بالاثر هي القطر الذي كسته الطبيعة حقه من الجمال فمزقتها يد الانسان وخصته بمزايا تفرد بها عن المثال فعادت عليه بالخسران وتباب السكان جوٌّ صافي الاديم لا يكفهرُّ الا ليجود السحاب بالقطر ويترقرق ماء العيون

على حصباء كالدر فتتبسم الرياض فيه عن ثغور الزهر وهواء لا يهب الا عبقت اردانه بشذا العطر فيبعث الحياة هبوبه ويمازج الارواح طيبه وسهول فسيحة الاطراف خصيبة الاكناف تتدفق في جوانبها الجداول والانهار وتنمي في مناكبها الحدائق الملتفة الاشجار الطيبة الثمار وجبال احتبكت شعابها وتناوحت هضابها ونشزت صخورها واكامها وكللت بالثلج هامها واخضرّت سفوحها واخضلت آجامها فكانت معقلاً للشريد ومعتصماً للطريد

هذه هي سوريا التي سبقت الى المدنية والحضارة واكتظت بالسكان والعمارة وانما بلغت هذا الشان العظيم بالزراعة والصناعة والتجارة وهي تمتد من البحر المتوسط غرباً الى الفرات والبادية شرقاً ومن اسيا الصغرى شمالاً الى حدود مصر جنوباً فتشتمل على القطر المعروف من قديم الزمان بارض الموعد والارض المقدسة · وقاعدتها دمشق العريقة في الحضارة المتقادمة العهد في المدنية جنة الارض المنقطعة النظير في جمال غوطتها وحسن موقعها وصفاء مائها واعتدال هوائها وطيب ثمارها وكثرة حدائقها ومع انها انحطت عن حالة مدينتها القديمة فقد لبثت غير متغيرة الا قليلاً في خططها وترتيب مساكنها وعوائد اهلها واخلاقهم ومعايشهم وملابسهم لانهم لا يميلون الى الاحداث · وما عداها من مدن سوريا القديمة وقد عفاها تقلب الاحوال فلم يُبقِ الا رسوم واطلال وقامت على انقاضها الان قرّى حقيرة منتشرة في هاتيك الربوع الداثرة يأوي اليها شراذم من بقايا الامم الغابرة كانها لم تبقَ الا لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار وما يحدثه تفريق الكلمة والشقاق من التباب والبوار او تشوفي ما ارصد لها من

الذلة وانحطاط المقدار بل لتكون عبرةً لذوي الابصار

الا وهي البلاد التي ليس لها مثيل في العالم كله في تباين سكانها واختلاف نحلهم وعقائدهم على قلة عددهم فهم لا يزيدون عن ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ نفس متشتتين في بقاع تبلغ مساحتها نحو ٣٧٥ ميلاطولاً من الجنوب الى الشمال في نحو ١٧٥ ميلاً عرضاً من الشرق الى الغرب . وهم اخلاط من الاراميين وكثير من الاجيال التي اجتاحتهم من قديم الزمان حتى الان وكانوا يؤلفون مملكةً عظيمة قاعدتها دمشق التي ذكرت في التورة باسم ارام وكانت في زمن ابرهيم الخليل عريقة في الحضارة على حين لم يكن غيرها شيئًا مذكورًا . ومما ذكر فيها ان الاسرائيليين قتلوا من عسكر ملكها بنهدد الثاني ١٠٠٫٠٠٠ رجل في يوم واحد وذلك دليل على كثرة سكانها حينئذٍ على انهم لا يزيدون الآن على ١٥٠٠٠٠ . ولا يخفى ان اليهود امتزجوا بالاراميين في حروبهم معهم منذ عهد داود الملك ثم سقطت المملكتان الارامية واليهودية بتغلب الاشوريين والبابليين والفرس شمالاً والمصريين جنوباً فاستبد الاشوريون والفرس بالاراميين واجلوهم عن بلادهم وشتتوهم في الامصار والمدائن واسترقوهم واغتصبوا املاكهم ففقدت سوريا استقلالها منذ ذلك العهد ثم غلب الاسكندر الفرس وثل عرشهم وتملك اليونان سوريا حيناً من الدهر فتخلق اهلها باخلاقهم وكثرت عمارتها في ايام تملك السلوقيين فصارت مملكة عظيمة كانت قاعدتها انطاكية ثم قامت عليها ملوك الطوائف من جهة الشمال والبطالسة ملوك مصر من جهة الجنوب واستقلت اليهودية في ايام المكابيين وانقسمت دولة السلوقيين على نفسها فتهيأ للرومان على الاستيلاء على هذه المملكة سنة ٦٤ ق م وقد

عظم شأنها حينئذٍ حتى نازعت رومة سلطتها فتبوأ ملوكها كرسي القياصرة من سنة ١٩٣ الى سنة ٢٤٩ ب م ونشروا عوائد السوريين ومبادىء دينهم في اوروبا وكانت سوريا اول قطرٍ انتشرت فيه النصرانية بعد ظهورها في اليهودية فازهر فيه نبراسها حتى عصفت ريح الشقاق والمماحكات الدينية بين ابنائها في دولة الروم وتموّى الفرس عليهم وكان عرب الحيرة يشنون الغارة على اطراف المملكة السورية فغنموا في غزوهم لضواحي انطاكية غنائم بعثت فيه النخوة العربية على اعادة الكرة والسوريون لاهون بالمماحكات على العقائد كارهون ظلم حكامهم والروم متشاغلون بملذاتهم واستبدادهم حتى قويت شوكة العرب ثم ظهر الدين الاسلامي فجمع كلمتهم وكانوا اشتاتاً فاندفعوا على سوريا كالسيل الجارف فملكوها وطردوا الروم منها الا الذين اسلموا او الذين استأمنوا ودفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون واعتصم بعضهم بالجبال فحافظوا على استقلالهم في الاحكام والعقائد. وكانت دمشق كرسي الخلافة في الدولة الاموية حتى نقلها العباسيون الى بغداد وبعد انقراض الدولة العباسية ملك الطولونيون سوريا ثم خلفهم الفاطميون ثم السلجوقيون واستولى على بعض انحائها الصليبيون ثم اجلاهم عنها الايوبيون واجتاحها تيمورلنك سنة ١٤٠١ ثم افتتحها السلطان سليم الاول سنة ١٥١٧ وكانت تابعة لمصر منذ الدولة الطولونية . وما زالت الحروب تنتاب ديارها والفتن الاهلية تثور فيها فتعجل دمارها حتى صارت رسوماً داثرة وبقاعاً بائرة خاوية على عروشها من سكانها وانيسها

وليس القصد مما سبق ايراده بيان تاريخ سوريا فانه مما يطول الكلام فيه ولا تفي ببيانه المجلدات الضخمة وانما قصدنا التوطئة لاوجه تباين

سكانها في الاخلاق واختلافهم في السحنات والعوائد والمنازع والعقائد بما طرأ عليهم من الاختلاط ليمكن رد كل فرع منهم الى اصله على ما هو مقتضى البحث في الطبائع اذ تنتزع من التاريخ والجغرافية والسياسة وعلم اللغات والتشريح ومنافع الاعضاء القواعد التي يرجع اليها في انساب الشعوب وما تتميز به الامم من الخصائص الحسية والمعنوية . وقد علمت ان السوريين اخلاط من اجيال مختلفة وامم كثيرة تغلبت على سوريا منذ الازمنة القديمة ولذلك لم يبقَ من السوريون الخلَّص الا بقية يمثلها السريان في دمشق وقراها واليعاقبة في الموصل وديار بكر والنساطرة في الموصل والعجم وبعض جهات الهند والموارنة في جبل لبنان وهم الذين اعتصموا بالجبال وامتنعوا على الفاتحين او الذين استأمنوا وسكنوا المدن مغلوبين على امرهم اذلاء في اوطانهم وباقي السوريين اخلاط من الروم والفرس والعرب والكرد والفرنجة والترك وغيرهم من الامم التي احتلت سوريا فتركت كل امةٍ منها بقية اخص ما تمتاز به نحلتها الدينية

واذا نظرت الى السوريين من حيث النحل والملل تبينت من المذاهب في القطر الذي انتشروا فيه ما لا وجود له في قطر آخر وعرفت من العقائد ما لا يتصور ان العقل البشري ينحط الى التسليم به فترى ثمت فِرَقًا تمزج حقائق التوحيد باضاليل الشرك كالصائبة واليزيدية والنصيرية وترى اليهود والنصارى والمسلمين منقسمين الى طوائف كل منها تدعي العصمة وصحة العقيدة وتنسب الى غيرها الغواية والضلال فمن طوائف اليهود السامريون وهم في جبل نابلس لا يوجد منهم في غيره ولا يزيدون عن ثلاث مئة نفس .

ومن طوائف النصارى النساطرة المعروفون الآن بنصارى مار توما وهم مشتتون في الموصل وديار بكر والعجم وبعض انحاء الهند وقد نبغ فيهم الحكماء والمترجمون الذين نقلوا حكمة اليونان وعلم الطب الى اللغة العربية في الدولة العباسية ومنهم السريان والكلدان والارمن وكلهم يعاقبة يعتقدون كالقبط بطبيعة واحدة في المسيح وقد اتحد بعض ابناء هذه الطوائف بالكنيسة الرومانية وسلموا بالقضايا المختلف عليها مع المحافظة على عوائدهم وتقاليدهم القديمة · ومنهم الموارنة وهم من السريان تمسكوا من زمن قديم بالمعتقد الروماني ولبثوا حتى الآن محافظين على استقلالهم الديني في جبل لبنان · والروم وهم بقية الامة التي دحرتها العرب عن سوريا في القرن الاول من الهجرة و[illegible]م الروم الكاثوليك الذين اتحدوا بالكنيسة الرومانية · ومن الطوائف النصرانية في سوريا اللاتين والبروتستنت على اختلاف مذاهبهم وغيرهم · ومن طوائف الاسلام الاسماعيلية والشيعية والمتاولة والدروز في جبل لبنان وغيرهم وكلهم يذودون عن حوض مذاهبهم ويعتصمون بها ويتهالكون في الخصام بعضهم مع بعض لاجلها وهم اخوان في الوطنية وجيران في المسكن وشركاء في المصلحة العامة· ومن الغريب ان ترى في البلدة الواحدة فرقاً تجمعها قواعد الدين الكلية ولا تختلف الا في بعض مسائل فرعية وكل فريق يدعي العصمة لنفسه ويشاقّ غيره فينفر منه ويجتنب مخالطته وربما انقسمت العشيرة الواحدة او الاسرة الواحدة على نفسها فثارت ثائرة التعصب بين افرادها واشتدّ الخصام والنزاع وليس ثمت اسباب تدعو الى ذلك الا ترّهات وسفاسف يعتدّون بها ويماحكون عليها عناداً · ولذلك فان هذه البلاد

لا يمكن ان تقوم فيها جامعة وطنية لما يحول دونها من اختلاف المذاهب وتباين الاراء فلا ترتقي الى رتبة المدنية ولو توفرت لها اسباب الارتقاء

على ان اختلاط السوريين بغيرهم من الاجيال والامم منذ الازمنة القديمة حتى الآن لم يؤثر في سحناتهم وبناء اجسادهم تأثيره في تفريق كلمتهم وفصم عرى رابطتهم لان الذين اختلطوا بهم كانوا في الغالب من اطيب العناصر محتداً ومن ارقى الشعوب نسباً وسؤدداً فضلاً عن تاثير اقليمهم النقي الهواء الخصيب التربة في اعتدال امزجتهم وصفاء الوانهم وحسن تقويمهم وجمال هيآتهم وتناسب ملامحهم وثقوب اذهانهم ونماء قواهم العقلية واستكمال خصائصهم الادبية فهم من حيث الاستعداد الطبيعي للارتقاء في مقدمة السلائل البشرية لا يفوتهم الا الاتحاد في الكلمة والثبات في التحصيل

تتمة في الموازنة

« نقلاً عنها ايضاً »

الموازنة — قد اجملنا الكلام في الجزء السابق على السوريين واشرنا الى اوجه اختلاطهم بالاجيال التي تغلبت عليهم وافتراقهم فِرَقاً اخص ما تتميز به كل فرقة منها منزعها الديني فوجب الان ان نوفي هذا البحث المهم حقه بتفصيل ما اجملناه وبسط ما اوجزناه فنصفهم فرقةً فرقةً على نحو ما آثرناه مما لا يخرج عن دائرة علم الطبائع والاخلاق لا نتعرض في شيء من ذلك للمسائل الخلافية في العقائد الدينية مما يبعث على تفريق الكلمة والشقاق على اننا لا نقول الا الصدق في وصف الخصائص الادبية رجاء ان يتقوم

منآدها ولا نصدع الا بالحق حثاً على الالفة وتوثيق الجامعة الوطنية عسى ان تورق بعد الجفاف اعوادها ونحن احوج الامم اليها وسيلة الى الاصلاح وذريعة الى الارتقاء في معارج الفلاح

ومعلومٌ ان الطائفة المارونية لهذا العهد في مقدمة الطوائف القريبة المنشإ من الجرثومة الارامية واثبتها على حفظ خصائصها الاصلية لانها اعتصمت منذ الازمنة القديمة في جبل لبنان وامتنعت فيه مستقلة بالمحافظة على ادابها وعقائدها ومنازعها وعوائدها يطرّس الخلف على اثار السلف وينشأُ الابناء على آسال الآباء فلبثت غير متغيرة الا في اشياء اقتضاها تغير احوال المعاش وتغلب الذوق العصري مجاراة للاوروبيين في ازيائهم وعوائدهم لذلك قدمنا ذكرها على سائر الطوائف السورية محافظةً على الترتيب الذي جرينا عليه

ولا مرآء في ان البيئة التي تخيرها الموارنة منذ القدم قد اثرت تاثيراً قوياً في ثبوت صفاتهم الطبيعية وتهيئة امزجتهم للاعتدال لما توفر فيها من الاسباب الكافلة بتقوية الاجسام · ومن تأمل في موقع لبنان البهيج وما قام في سفوحه من المدن والقرى والدكاسر والمزارع من حضيضه الى علو خمسة الآف قدم بين رواب وهضاب قد كستها الطبيعة حلة الجمال السندسية وقد رق هواءها وعذاب ماؤها فلا يخشى ثم من لفح الهجير في الصيف ولا من زمهرير البرد في الشتاء لقرب المواقع الساحلية من الجبلية عرف بداهةً ان سكان هذا الجبل اقوياء البنية صحاح الابدان ميالون الى الحرث والزراعة ذوو نشاط وجلد على مزاولة الاعمال الشاقة

وهذه الروابي والهضاب القائمة عليها القرى الآهلة بالسكان

متوعرة المسالك لا تطرق الا بجهدٍ وعناء وما فوقها قللٌ شامخةٌ لا يفارقها الثلج فهي غير ماهولة لشدة البرد وغير مطروقة لكثرة الثلج وقد اشار الى ذلك ابو الطيب المتنبي حيث قال

وعقاب لبنانٍ وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهنّ شتآءُ

لذلك كان هذا الجبل حصناً منيعاً لجأ اليه السوريون منذ الازمنة القديمة هرباً من جيوش الفاتحين الذين اجتاحوا سوريا في اطوار متعددة · ولا يخفى ان مدن سوريا القديمة كدمشق وانطاكية وحماة وغيرها وكانت اهلة من قبل بالسريان فلما ظهرت النصرانية وانتشرت بينهم قام فيهم رجال اشربت قلوبهم حب الرئاسة فتوسلوا بالمشاحّات على العقائد الى بلوغ ما طمحت اليه نفوسهم فحدث الخصام والشقاق بين رؤساء الاحزاب وتبعهم كثير من السذّج منقادين الى اهوائهم وكان القياصرة يتداخلون في امور الدين وقد عظم استبدادهم واشتد عسفهم فثقلت وطأتهم على الذين توهموا فيهم مخالفة ارائهم ومبادئهم ولم يكن لهولاء المضطهدين ما يمنع عنهم الظلم ويعصمهم من الاستبداد الا الهرب الى الجبال · ولما دحر العرب الروم عن مدن سوريا في صدر الاسلام لجأ النصارى واكثرهم من السريان الى جبل لبنان فاعتصموا فيه وقويت شوكتهم حتى صدوا جيوش معاوية مراراً عن المسير لنجدة المسلمين الذين تقدموا لفتح القسطنطينية حينئذٍ وقد حاصروها وضيقوا عليها مدة سبع سنين متوالية · ثم لما حوّل عبد الملك بن مروان الحج الى بيت المقدس حذراً من فتنة ابن الزُبير في مكة خاف على الحجاج من نصارى الجبل فتواطأ مع يستنيان بن قسطنطين ملك الروم على اخراجهم منه فكتب يستنيان

الى اميرهم يوحنا ينهاه على مناوأة المسلمين و يامره بالشخوص اليه فامتنع من اجابته فاغتاظ الملك ونسب اللبنانيين الى العصيان والتمرد فلذلك سموا بالمَردة ثم سير اليهم جيشاً كثيفاً وتظاهر بانه انما سيره لقتال العرب فبلغ غايته من التنكيل بهم · ويدل على ان الجبال كانت ملجأ بعد ذلك للنصارى قول ابي الطيب

وما الجبال لنصرانٍ بحاميةٍ　　ولو تنصر فيها الاعصمُ الصدَعُ

وقد استعان الصليبيون بنصارى جبل لبنان في حروبهم الدينية لتملك بيت المقدس ولم يكن الموارنة طائفةً مستقلةً عن السريان قبل ان تعين البار يوحنا مارون بطريركاً عليهم بدليل ما ذكره جبرائيل بن القلاعي على ما اثبته البطريرك اسطفان الدويهي في تاريخه المطبوع حديثاً · واذا اعتبرت بما كان عليه اهل الجبل من العصبية وما كان بين رؤساء قبائلهم من الغيرة والمنافسة فضلاً عما كان بينهم وبين اهل المدن من العداوة لاختلاف المنازع وتباين الاهواء مع سهولة حدوث الفتن وكثرة الاحن تبينت ان الموارنة قوم اشداء ذوو باس ونجدة وانفة

واذا نظرت الى خصائص التكوين في هذه الطائفة تبينت اختلافاً في هيئة القحف والوجه يستدل به على مرتبتها بين الاجيال البشرية ونسبتها الى غيرها من الطوائف · فالقحف اقرب الى الشكل المستدير الذي هو من خصائص الفصيلة السامية ولا سيما جيل العرب فليس هو بيضياً كقحوف الاوروبيين ولا مفلطحاً كقحوف المغول على انه اكثر تحدباً في جهة الجداريين · والجبهة عريضة مائلة الى الامام الا انها غير بارزة كثيراً كجباه الاوربيين ولا مسطحة مائلة الى الوراء كجباه المغول والزنج

والبروز الوجهي غير شاخص كثيراً فالزاوية الوجهية يمكن تعيينها بين ٧٠ و٧٥ فهي فيهم اقرب الى الاوروبيين وذلك دليل على كبر جحم الدماغ وقبوله للنشوء والنماء لدى توفر اسباب العلم والتهذيب · والوقبان كبيران متآزيا الوضع والوجنتان غير شاخصتين وعظم الانف مستقيم الوضع كل ذلك دليل على تناسب الهيئة وحسن التكوين · واذا نظرت الى سحنات ابناء هذه الطائفة وجدت ثم من المحاسن ما يميزهم عن كثير من الاجيال فهم في الغالب حسان الوجوه تبدو على ملامحهم امائر الذكاء والنجابة وشعرهم سبط فاحم طويل وعيونهم نجل سود اوشهل طويلة الهدب وسنى الاجفان لا خوص فيها ولا خزر وانوفهم مستقيمة الارنبة لا فطس فيها ولا خنس وشفاههم رقيقة غير غليظة ولا هدلاء واسنانهم صابة متنافسة ناصعة البياض وقدودهم في الغالب ربعة وابدانهم عضلية قوية البنية والغالب على لونهم البياض المشوب بالحمرة على انه قد يسمر من طول التعرض لاشعة الشمس · وكلما تقدمت الى الشمال وجدت لونهم اكثر اشراقاً وسمات الجمال اكثر وضوحاً ورايت النساء ابعد عن الحضريات واقرب الى البدويات من حيث شظف المعيشة وبساطة الزي وعدم التبرج وقد اصاب ابو الطيب حيث قال

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ　　　وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبِ

وقد تحدى سكان المدن من الموارنة عوائد الافرنج وازياءهم اما القرويون فلم يزالوا على ما كان اباءهم يالفون من المسكن والمطعم والملبس وما درجوا عليه في مجالسهم وافراحهم وولائمهم ومآتمهم الا ما كان منها مخالفاً للتهذيب او بعيداً عن الذوق السليم لان روساءهم الروحيين اجتهدوا

كثيراً بتهذيب عوائدهم وحثهم على ترك ما يمجه الذوق منها كالتزين بالطرطور وكانت النساء يتنافسنَ به فحرَّم الكهنة لبسه بعد حادثة ١٨٤١ و١٨٤٥ ٠ وقد بالغ الافرنج في استغرابه واستهجانه وزعم اكثرهم ان استعماله كان مالوفاً عند العبرانيين منذ خروجهم من مصروانه هو القرن الذي ورد ذكره في التوراة والزبور على انه ليس باكثر غرابةً من القبعات التي صنعت في هذه الايام رياضاً تنبت فيها الازهار وتتغنى على افنانها الاطيار وما هو الا اداة من ادوات الزينة كانت توضع على الراس لابعاد النقاب عن الوجه وكان في بدء امره قصيراً بسيطاً يصنع من الآنك الا ان التنافس في الزي جعلهنّ يتانقنَ فيه فابدلنه باسطوانة من الفضة منقوشة او من الذهب قد يبلغ طولها ١٨ قيراطاً يوضع النقاب عليها

ومما امتاز به الموارنة في هذه الايام انصبابهم على طلب العلم واجتهادهم في تحصيله فلا تكاد ترى فيهم الان من لا يحسن القراءة والكتابة وكانوا قبل منتصف هذا القرن اميين الا نفراً قليلاً من رجال الدين ٠ وقد انشأ بعض بطاركتهم مدرسة عين ورقة لتهذيب الكهنة وتعليمهم العلوم الدينية فنبغ فيها رجال اشتهروا بالفضل ثم كثر بناء المدارس في جبل لبنان وبيروت وازداد عدد الطلبة وازهر نبراس العلوم بينهم ونبغ فيهم من العلماء والادباء والخطباء والمولفين والكتبة رجال لا يستغنى عن ذكرهم بما لهم من الشهرة

والموارنة اشد الطوائف الكاثوليكية استمساكاً بتعليم الكنيسة الرومانية واكثر الطوائف النصرانية حرصاً على حفظ العقائد الدينية من حيث الايمان والتسليم المطلق بصحة ما يعتقد به احبارهم وكهنتهم ورهبانهم

والاذعان لما يامرون به و ينهون عنه وهم ليسوا بالعدد القليل وتبلغ اوقاف اديارهم نحو ثلث املاك العوام. وابطريركهم سلطة ادبية ما عدا السلطة الروحية ويلقب بالبطريرك الانطاكي وكرسيه دير قنوبين وهو دير قديم بناه القيصر ثاودوسيوس الكبير منذ اكثر من الف وخمسماية سنة على نشز في سفح جبل يشرف على وادٍ جميل تنفجر في مناكبه عيون الماء فتجري في عقيقه كاللجين الذائب وتنبت في جوانبه الرياض الناضرة والرياحين العطرة. اما موقع الدير فمتوسط بين عقيق الوادي وقمة الجبل اسفله غار واسع بنيت عليه الكنيسة والصوامع والمناسك التي كان الرهبان يتوحدون فيها. وارز لبنان الشهير لا يبعد كثيراً عن دير قنوبين وهو غابة غبياء يقصدها السياح من اقاصي الارض لمشاهدة اشجارها الباقية على رغم الدهر اثراً حياً ذكر في اقدم الكتب المنزلة. وقد وُجدت قطعة منه في انقاض نينوى حفظت في دار التحف البريطانية وثبت بالتحليل المجهرى انها من ارز لبنان وهي تُرَدُّ الى ثلاثة الاف سنة فما فوق. ومن نظر في ما كتب في التوراة عن الارز لم يسعه ان ينكر امتداد غاباته في هذا الجبل وما بقي منه الآن ليس الا اثراً بعد عين للدلالة على عظمة لبنان ومجده

المال وعلم الاقتصاد

« نقلاً عن المقتطف السنة التاسعة »

شاع عند الافرنج منذ عهدٍ قريب علم جليل المطالب جزيل المنافع يسمونه علم الاقتصاد السياسي. وقد كتب فيه جمهور من نخبة علمائهم وفلاسفتهم وقالوا انه مبني على نواميس اساسية وان معرفته لازمة لكل فرد

من البشر لانه يبحث فيه عن اسباب ثروة الامم وغرضه تعليم الناس ان يستغنوا و يعيشوا بالراحة · والعلوم التي من شانها زيادة المال والراحة كثيرة مثل العلوم الآلية والكيمياء والفلك والجيولوجيا والفقه والطب والسياسة ولكن علم الاقتصاد السياسي يبحث عن ماهية المال بالذات وعن كيفية كسبه وانفاقه فهو من الزم العلوم لكل الامم ويجب ان تدرَّس مبادئه في كل المدارس البسيطة ولا سيما في بلاد قلت ثروتها واعتاد اهاليها الاسراف مثل بلادنا كما هو راي كثيرين من كبار العلماء والفلاسفة

هذا وقد يظن القارىء لاول وهلة ان الناس في غنىً عن ان يعلمهم احد كيف يكسبون المال ويقومون به لانهم كانوا يكسبون وينفقون منذ القدَم بلا معلم ولا مرشد ومنهم من جمع ثروة وافرة وهو لم يسمع اسم هذا العلم · وهذا الاعتراض واهن من اصله وان ظهر قوياً في بادئ الراي لان اكثر العلوم مبنية على معارف متفرقة عرفها الناس بالاختبار منذ عهد قديم ولكن لا خلاف الان في ان معرفتها لا تغني عن العلوم التي بنيت عليها · مثال ذلك ان كل ارباب الفلاحة يعرفون كيف يحرثون الارض و يزرعونها و يروونها و يستغلونها ولكن معرفتهم هذه لا تغنيهم ولا تغني الذين يريدون النجاح التام في هذه الصناعة عن علم الفلاحة الذي جمعت فيه معارف الناس و بوبت ابواباً ورتبت احسن ترتيب حتى يسهل على دارسها ان يتعلم في برهة يسيرة ما عرفه الناس بالاختبار مدة قرون كثيرة · وما قيل في علم الفلاحة يقال في اكثر العلوم والفنون ولو نظرية كعلم المنطق والهندسة فان كل عاقل يعرف مبادىء علم المنطق ويعمل بها كل يوم ولكن ذلك لم يغنِ عن وضع هذا العلم وتعلمه

اما علم الاقتصاد فمبادئه غير واضحة واكثر الناس يخالفونها كل يوم ولولا ذلك لكانت احوال البشر اقل تعاسة مما هي عليه الان. مثال ذلك ان التصدق على المساكين من المبرات التي تامر بها كل الاديان. ومذهب الجمهور ان الصدقة واجبة في كل حال وانه يجب ان نتصدق على المساكين مطلقاً غير سائلين عن نفع الصدقة لهم او ضررها بهم. ولكن لدى البحث والتروي وُجد ان الصدقات التي تعطى على هذا النمط تكثر المساكين ولا تخفف كربهم بل ان اكثر ما نراه في ايامنا من المسكنة والجرائم ناتج عن اعطاء الصدقات لقوم لا يستحقونها فزاد بها كسلهم وشرهم وكثر المقتدون بهم من ولدهم وغير ولدهم. ولذلك ترى علم الاقتصاد يوجب على الناس ان يهذّبوا الفقراء ويعلموهم ليعملوا بايديهم ويكتسبوا معيشتهم ويقتصدوا في نفقاتهم ويذخروا مما يكسبون شيئاً يسد عوزهم ايام المرض والشيخوخة. وان لم يتعاموا بل بقوا عالةً على الناس واصروا على كسلهم لحسبانهم ان التسول « بارد المغنم لذيذ المطعم وافي المكسب صافي المشرب» كما قال بعضهم استحقوا جزاء ما جنت ايديهم. وقد يظن البعض ان هذا العلم ينزع الشفقة من قلوب الناس و يزيد الاغنياء غنى والفقراء فقراً والصحيح انه يوجب على الاغنياء ان لا يذخروا المال كما يفعل البخلاء ولا يبذروه كما يفعل المسرفون بل ان يعتدلوا بين الطرفين فيعطوا عندما يجب العطاء ويمنعوا عندما يجب المنع وينشئوا الاندية العمومية من مثل المدارس والمكاتب والمتاحف والحدائق والمستشفيات ويعلموا الذين اصابتهم مصائب لا يستطيعون دفعها كالكسح والعمى ونحوهما من البلايا التي يستحق صاحبها الصدقة. فعلم الاقتصاد يوجب الصدقة اذا نفعت

المتصدق عليهم ولم تضرهم ولذلك كانت اكثر الاموال التي يتصدق بها على الشحاذين ليست من الصدقة الحقيقية في شيء بل هي خسائر يخسرها المتصدقون ويضرون بها المتصدق عليهم ويكثرون شرورهم

ومن المقرر ان الناس اذا جهلوا مبادئ علم الاقتصاد الحقيقية جروا على مبادىء فاسدة اضرت بهم وببلادهم ضررًا جسيماً ولذلك يجب ان يكون للكل المام ببعض المبادىء التي سنقررها في الفصول التالية · واذ قد تمهد ذلك نشرع في موضوع هذا الفصل وهو المال فنقول

يظن البعض ان المتمول من يكون في صندوقه كثير من الدراهم والدنانير · وذلك ليس بصحيح لان المتمولين لا يوجد في صناديقهم غالباً نقود ذهبية وفضية بل اوراق من اوراق الصيارف · وهذه الاوراق لا تحسب لها قيمتها الحقيقية ما لم يكن الصيارف في احوال معلومة من الأمن والربح · ويظن البعض الآخر ان المتمول من يملك عقاراً كثيرًا وهذا ايضاً ليس بصحيح لان العقار قد يكون ثميناً كثير الريع وقد يكون عاطلاً لا ثمن له ولا ريع · ويظن غيرهم ان المتمول من يملك ارضاً فسيحة انهارها وبحيراتها ملأى بالاسماك وجبالها ووهادها بالاشجار وفيها معادن كثيرة من الفحم والحديد والذهب والفضة وهي طيبة الهواء معتدلة الاقليم · والصحيح ان هذه المذكورات لا تغني مالكها ولو اعتبرت غنى طبيعياً · الا ترى ان اهالي اميركا الاصليين كانوا يملكون اجود الاراضي واخصبها واوفرها غنى وهم في حالة يرثى لها من الفقر والمسكنة في ما ان اهالي هولندا صاروا من اكثر الناس تمولاً باجتهادهم واقتصادهم وهم لا يملكون الاَّ ارضاً ضيقة جدباء · فالتمول يتوقف على الاجتهاد اكثر مما

يتوقف على البلاد . اوَ يخفى على القارئ اللبيب ان سهول سورية الفسيحة كانت تقوت وقتاً ما نيفاً وعشرة ملايين من السكان وهي الآن تقصر عن حاجات اهاليها ولو قلوا عن المليونين . وان وادي النيل الخصيب كان يفضل عن احتياج ملايين كثيرة من السكان ويطمر بخيراته بلاد الرومان ايضاً . والبلاد لم تتغير ولكن تغيرت الناس وتغيرت شؤونهم

اما المال فقد حدّهُ سينور المشهور بعلم الاقتصاد بانه « الاشياء المنتقلة المحدودة الكمية التي تجلب اللذة او تدفع الالم » وهذه الشروط الثلاثة لازمة لكل ما يدعى مالاً الا اذا امكن نقله من شخص الى آخر وكانت كميته محدودة وكان نافعاً (اي جالباً للذة او دافعاً للالم) وها نحن نشرح كلاً من هذه الشروط على حدته

يراد بالمنتقل ما يمكن انتقاله من شخص الى آخر حقيقة كالكتاب والرداء او حكماً بحجة كالدار والحقل او بمقاولة كخدمة الخادم وعلم المعلم وهذا الشرط يخرج اموراً كثيرة مرغوبةً فيها كالصحة والمحبة والاكرام ولكنه لا ينفي وجودها في المتمولين . فالمال ليس كل ما يرغب فيه الانسان ولكنه مما يرغب فيه لانه يريحه من العتب اذا اراد ويمكنه من ابتياع ما يسرهُ ويرضيه مما يمكن ابتياعه هذا هو الشرط الاول واما الشرط الثاني وهو ان المال يجب ان يكون محدود الكمية فيتضح من انه اذا كان لكل انسان كل ما يحتاج اليه من شيء من الاشياء فلا يعتبر ما زاد عن احتياجه من ذلك الشيء مالاً مهما كان لازماً في ذاته . مثال ذلك ان الهواء من الزم الاشياء وانفعها ولكنه لا يعد مالاً في الاحوال العادية لانه غير

محدود الكمية اي لان كل انسان حاصل على ما يحتاجه منه · ولذلك لا يباع ولا يشترى ولا يحسب قنية · واما اذا كان الانسان حيث لا يصل اليه مقدار محدود من الهواء كما اذا كان في ناقوس الغواصين او في المناجم العميقة صار الهواء مالاً يباع ويشترى ويبذل في الحصول عليه الدرهم والدينار · بل ان اهالي المدن المزدحمة السكان قد يشترون من جيرانهم حق فتح كوة تطل على اراضيهم ليأتيهم الهواء النقي منها فكانهم اشتروا الهواء النقي نفسه · وما قيل في الهواء يقال في ماء المطر وماء الانهار الكثيرة المدد الفائضة عن احتياج الاهالي · واذ كان الشيء قليل الكمية عدّ مالاً ولو كانت منفعته قليلة كالذهب والالماس فان الذهب لو وجد بكثرة كالحديد لكان الحديد اغلى منه ثمناً لانه اكثر منه نفعاً والالماس لو وجد بكثرة كالزجاج لما تباهى به احد من الناس

الشرط الثالث للمال ان يكون نافعاً ويراد بالنفع هنا جلب اللذة ودفع الالم · فالآلة الموسيقية تعدُّ مالاً لانها تجلب اللذة والدواء لانه يدفع الالم والطعام لانه يجلب اللذة ويدفع الالم · ولا فرق في حصول المنفعة من الشيء او به فالمطحنة لا تلذ للذي يراها ولا تدفع عنه المًا ولكنها تطحن الطحين الذي يصير اللذة خبزاً يجلب ويدفع الالم · وقد جرت العادة عند علماء هذا الفن ان يسموا كل شيء من الاشياء التي يطلق عليها اسم المال متاعاً · فالصوف والقطن والحديد والكتب كلها امتعة في احوال معلومة وغير امتعة او غير اموال في احوال اخرى لان الصوف الذي على شاة نادّة في جبل بعيد من السكان ليس متاعاً اذ لا ينتفع به احد من الناس · والحديد الذي في معدن عميق لا يصل اليه احد ليس متاعاً ايضاً

ولدى التأمُّل يظهر ان الانسان لا يحتاج الا قليلاً من كل متاع وانه يفضّل ان يمتلك قليلاً من هذا وقليلاً من ذاك على ان تكون اكثر قنيته من متاع واحد . فما من احد يحب ان يقتصر على اكل الخبز دائماً بل يطلب ان يأكل معه لحماً وفاكهةً . وما من احد يخيط حللاً كثيرة من نوع واحد وشكل واحد بل يجعل بعضها رقيقاً وبعضها سميكاً لمناسبة الحر والبرد . وما من احد يجمع مكتبة من كتاب واحد بل من كتب متفرقة متنوّعة . وينتج من ذلك كله ان حاجات الانسان متنوعة وانه لا يحتاج الا القليل من كل شيء وهذا هو المسمى عندهم بناموس التنويع وهو من اجلّ نواميس علم الاقتصاد

وحاجات الناس متباينة في اللزوم الزمها الهواء ثم الطعام والشراب ثم اللباس ثم المأوى ثم الاثاث على انواعه . وكل حاجة من هذه الحاجات تتدرَّج على اطوار متفاوتة فاذا لم يكن للانسان شيءٌ من الطعام اكتفى بالخبز وطاب به نفساً واذا شبع من الخبز تاقت نفسه الى اللحم والفاكهة وهلمَّ جرّاً . ثم تنزع الى طلب اللباس فان لم يكن لهُ شيءٌ منه اكتفى بالساذج البسيط ثم رغب في ما هو اثمن منه واجمل . ثم يطلب المأوى ويتدرج من الخيمة الى الكوخ الى البيت الى القصر وقد يبني لسكناه قصرين او اكثر كما هو شأن الملوك والشرفاء . ثم اذا بنى بيتاً اخذ في تأثيثه وتدرج في ذلك من امتعة الحجر والخشب الى امتعة الفضة والذهب والحجارة الكريمة ومن القطن والصوف الى السندس والاستبرق . ولذلك قد ترتبت حاجات الانسان بحسب لزومها له وتدرُّجه اليها هكذا : الهواء فالطعام والشراب فالمأوى فالاثاث ويسمَّى هذا الترتيب ناموس تدرُّج الحاجات

وغنيٌّ عن البيان ان حاجات الناس لا حدَّ لها من جهة العدد وان تكن كل واحدة منها محدودة من جهة الكمية ولذلك لا يصح قول من قال

لو يجمع الله ما في الارض قاطبةً عند امرءٍ لم يقل حسبي فلا تزدِ

عند التخصيص وان صح عند التعميم . فاذا اقتصر احد على ازدراع الحنطة وكثرت حنطته حتى فاضت عما يمكنه او يأكلهُ او يبيعه فما فاض منها عُدَّ في حكم المعدوم اذ لا فائدة منه وقس على ذلك اكثر الاصناف التي تتلف اذا طال عليها الزمان . ولكن الاختبار والضرورة قد علماَ الناس ان لا يقصروا مالهم على صنف واحد . فاذا كثر زارعو القمح حتى زاد عن المطلوب عدل بعض الزارعين عن زرعه و زرعوا صنفاً آخر واذا كثر السكافون حتى صارت الاحذية اكثر من المطلوب عدل بعضهم عن السكافة الى حرفة أُخرى . وكذا في بقية الاعمال والحرف . وهذه القاعدة غير مرعية الارعاءَ التام في بلادنا وغيرها من البلدان الشرقية فان اهل حوران يزرعون القمح ولو اضطرُّوا ان يحرقوه في اخر العام وعرب البادية يقتصرون على النَّعَم ولو فاضت بها الصحراءُ ولذلك كان من اول اغراض علم الاقتصاد ان يعلم الناس ان لا يتعبوا الا بما ينفعهم وان يسدوا حاجاتهم المختلفة على اسهل سبيل وهذا لا يتمُّ لهم الا اذا علموا انه لا حاجة لشيءٍ زائد عن الحاجة . فالنجار يجب ان يكثر من الكراسي ويقلل من الموائد (اي الخواوين) لا ان يكثر من الموائد ويقلل من الكراسي لان كثرة الموائد مع قلة الكراسي خسارة بلا نفع . واذا علموا ايضاً ان يعتمدوا على كل واسطة تقلل التعب ولذلك حدَّهُ الاستاذ هرن بانه علم

الوسائط لسد الحاجات على اخصر طريق واسهل اسلوب

تقدم في الجزء الماضي ان النفع شرط لازم للمال فلا يكون المال مالاً الا اذا كان نافعاً · ولكن هذا النفع يزول غالباً باستعمال المال· فاذا حُرِقَ الفحم وأُكل الخبز وبلي الثوب لم يعد لشيء منها منفعة · لان منفعة الفحم توليد الحرارة فاذا تولدت منه واستعملت فقدها واستحالت دقائقه الى مادة اخرى لا ثمن لها · ومنفعة الخبز تغذية الانسان وتوليد القوة والحرارة فيه فاذا اكله واغتذى به اخذ منفعته منه ولم تعد فضلاته صالحة للغذاء· ومنفعة الثوب الزينة والوقاية من الحر والبرد فاذا لُبِسَ حتى بلي زالت منه هذه المنفعة ولم يعد صالحاً للزينة ولا للوقاية · وقد تزول منفعة المادة بدون ان ينتفع بها احد مثلما اذا انتن السمك فلم يعد صالحاً للاكل او مضى زمان الرزنامة قبل ان تستعمل او غرقت السفينة في قلب البحر او احترق القمح على البيدر وهلمَّ جرًّا · والاقتصاد يوجب على الناس ان يستفيدوا من كل النفع الذي يمكن اكتسابه من المال وان يستعملوا المال وقتما تكون منفعته على اشدها

ومن المال ما لا تزول منفعته بالاستعمال كالكتب والصور والتحف فانه يمكن للانسان ان ينتفع من الكتاب الواحد مرةً بعد مرة بعد اخرى وان ينتفع منه كثيرون في ازمنة مختلفة · وما قيل في الكتب يقال في الصور والتحف المختلفة · ولذلك تكثر منفعة هذه الاشياء بانتقالها من شخص الى اخر او بعرضها في مكان عمومي حتى يراها كثيرون · وعلى هذا المبدإ انشئت المكاتب والمتاحف العمومية · لان الكتاب الذي في

مكتبة عمومية قد ينتفع به الوف من القراء كل سنة ولايخسر شيئاً من نفعه والآلة التي في متحف عمومي قد ينتفع برؤيتها الوف من الصناع كل سنة ولا تخسر شيئاً من نفعها . لذلك يجب انشاء هذه المنافع العمومية في كل بلد لان نفقة انشائها لا تحسب شيئاً في جانب فوائدها الكثيرة المتعددة . بخلاف المنافع الخصوصية التي تنفق عليها الاموال الكثيرة ولا ينتفع بها الاصاحبها او لا ينتفع بها احد

واذا كان نفع المال يزول حال استعماله كما في الطعام فلا ينتفع به الا شخص واحد وحالما ينتفع به لا يبقى له نفع وجب على الحكيم المقتصد ان لا يستعمله الا عند ما يمكنه ان ينتفع بكل نفعه فلا يا كل وهو غير جائع ولا فوق الشبع لانه لا ينتفع من الطعام في هذين الحالين . واذا اتاه في قفر موحش ولم يكن معه الا قليل من الطعام وجب ان لا يا كله دفعة واحدة بل ان يتبلغ منه بما يمسك رمقه لئلا تطول مدة تيهه في ذلك القفر فيهلك جوعاً . ويجب على الصانع ان لا ينفق كل دخله عندما تروج صناعته لئلا تكسد بعد مدة فيحتاج الى القوت الضروري بل ان يقتصد في نفقته ولا ينفق وقت الرخاء الا ما يحتاج اليه حتى يكون له ما ينفقه وقت الشدة وكم من مرة رأينا كثيرين من اهالي بلادنا يهملون هذه القاعدة فالفلاح منهم ينفق فوق احتياجه وقت الخصب ويطعم مواشيه القمح وقت الحصاد ويقتصر على غث الطعام وقت القحط وتهلك مواشيه جوعاً ايام الشتاء والتاجر اذا راجت تجارته اولم الولائم ولبس الحرير والذهب ولم يجل الا راكباً واذا كسدت اكتفى بالقليل من الطعام والرثيث من اللباس وجال يومه كله ماشياً . والشاب والكهل ينفقان اموالاً كثيرة على

الملذات والملاهي ثم اذا بلغا سن الشيخوخة تضوّرا جوعاً · وهذا عين الاسراف وعدم التدبير وامثلته كثيرة والشرور الناتجة عنه اكثر من ان تحصى ودواؤها الوحيد تعليم الناس ان لا ينفقوا شيئاً الا عند ما ينتفعون بكل نفعه · فاذا رسخت هذه القاعدة في اذهانهم وجروا عليها نجتهم ونجت البلاد كلها من شرور كثيرة وازالت اكثر ما نراه في بلادنا من الفقر والشقاء · فعسى ان ينتبه اليها جمهور القراء ويعملوا بها ويربوا اولادهم عليها

ويزعم قوم انه يجب عليهم ان ينفقوا بسخاء ترويجاً للتجارة وباقي الاعمال ويقولون انه اذا اقتصد كل الناس في نفقاتهم وخزنوا اموالهم تكسد سوق التجارة ويفتقر العمال · ومن مذهب التجار التصديق لهذا القول ترويجاً لتجارتهم وتكثيراً لارباحهم ولكنه قول فاسد لانه اذا اخزن الغني فضته وذهبه في صندوقه اشتد احتياج الناس الى الذهب والفضة فتطلّبوهما معادن من الارض وراجت بذلك صناعة استخراج المعادن وما يتعلق بها من الصنائع والاعمال كما لو انفقهما على الطعام والشراب · واذا اعطاهما لصراف مدّ الصراف بهما اهل الزراعة والصناعة والتجارة فراجت الاعمال كما لو انفقهما الغني على نفسه واكثر · فليست المنفعة وعدمها في انفاق المال بل في الغاية التي ينفق لاجلها · فان انفق على وليمة فمنه لذة وقتية تزول حالاً وقد يعقبها الالم والوجع وان انفق على فتح سكة حديدية خفت به مشقات السفر على كثيرين ودامت لذته ومنفعته ما دامت تلك السكة · فيجب ان تكون المنفعة الحاصلة من انفاق المال هي الغاية التي ينفق لاجلها

ويزعم قوم آخرون انه لا منفعة من الاتفاق قط فيضعون اموالهم

عند الصيارفة ويتركونها حتى تربو سنة بعداخرى او يخزنونها في صناديقهم ولا ينتفعون بها ولا ينفعون غيرهم وهم البخلاء الذين يحرمون انفسهم كل لذة· لكي يصيروا على ولا ضرر منهم بل هم ينفعون من يخلفهم ويستولي اموالهم وينفعون البلاد كلها اذا وضعوا ما لهم في البنوك لان البنوك تعمل الاعمال العمومية النافعة وهو البخلاء خير من المسرفين ولكنهم لو تأملوا قليلاً لرأوا انهم فقراء وهم يحسبون انفسهم اغنياء لان المال لا يحسب مالاً لصاحبه ما لم يكن نافعاً وملذًّا له فان كانوا لا ينتفعون بمالهم ولا يلتذون به فهو ليس لهم· هذا فضلاً عن انه لو كثر عدد البخلاء وكثرت اموالهم التي يضعونها في البنوك عن احتياج البلاد ما بقي في الزائد منها منفعة لاحد

وينتج من ذلك انه يليق بكل احد ان ينفق امواله على اسلوب يناله منه النفع الاعظم لنفسه وانسبائه واصدقائه واهالي بلاده

المال والعمل

«نقلاً عن المقتطف ايضاً»

قد يعثر الانسان على المال عثوراً كمن يجد جوهرة بغير تعب ولا قصد او يصادف كنزاً مخفياً في حقله · وذلك نادرٌ لا يقاس عليه · وقد يحصل المال بالعمل والتعب وهو الاسلوب المعوّل عليه للكسب وغاية اكثر العلوم والفنون تقليل الاتعاب وتعليم الناس كيفية كسب المال باقل شيءٍ من المشقة ولهذا صنعت الآلات البخارية ومدت السكك الحديدية · وانشئت المعامل والمدارس وهلمَّ جرًّا · واذا امعنا النظر راينا ان الناس لا يستطيعون الكسب في الوقت الحاضر ما لم توجد عندهم اسباب الكسب

الثلاثة وهي الارض والعمل وراس المال . وسنوضح كلاً من هذه الاسباب ولو بالايجاز

السبب الاول الارض　وهي تعم اليابسة والمغمورة معما يتصل بها من الهواء والمطر والنور والحرارة لانها مصدر الطعام والشراب واللباس والمعادن والحجارة الكريمة والحيوانات الداجنة والعقاقير الطبية ومواد الضوء والزينة ومصدر كل القوى الطبيعية كالقوة البخارية والكهربائية العضلية والعصبية وكل ما يدعى مالاً فهي السبب الاول من اسباب المال ومصدر الاموال كلها

السبب الثاني العمل　ان كل ما ذكر من مواد الارض الطبيعية لا يحسب مالاً نافعاً ما لم يقترن بالعمل . فاحرار البقول التي تنمو في الارض من نفسها وتؤكل بلا طبخ ولا معالجة لا ينتفع بها الانسان ما لم يقتلعها من الارض . والاثمار البرية الصالحة للاكل لا ينتفع بها ايضاً ما لم يقتطفها من الاشجار . والطيور والوحوش والاسماك لا ينتفع بها ما لم يصدها من البر والبحر . والمعادن والحجارة الكريمة لا ينتفع بها ما لم يستخرجها من الارض . ولا يخفى ان اقتلاع البقول واقتطاف الاثمار واصطياد الحيوانات واستخراج المعادن اعمال يعملها الانسان ويضطر اليها ولو عاش عيشة البرابرة ولا يحيا بدونها . فلا بد من العمل للانتفاع بمواد الارض ولذلك جعل سبباً من اسباب المال . وقيمة الاموال تزيد وتنقص عند المتمدنين بالنسبة الى العمل الذي عملت به لا بالنسبة الى مادتها . فمن يملك قنطاراً من الحديد يملك غروشاً قليلة ولكن من يملك قنطاراً من الابر يملك الوفاً من الغروش لانه يملك العمل الذي عمل به الحديد ابراً

السبب الثالث راس المال　ويراد به كل ما يستعمله الانسان من

القوت والكسوة والادوات قبلما ينال من عمله ما يقوته ويكسوه · وهو سبب ضروري لتحصيل المال فان لم يكن للانسان طعام يقوته ولو مرة واحدة في اليوم سعى اولا في الحصول عليه ولو لم يحصّل في نهاره الا ما يمسك رمقه · ولم يزل كثيرون من نوع الانسان ياكلون نباتات الارض ويصطادون حيواناتها كالبهائم ويسعى الواحد منهم يومه كله ولا يحصّل كفافه الا بعد المشقة الشديدة · فهولاء لا راس مال عندهم الا ما استنبطوه من الادوات لاقتلاع الجذور واقتناص الحيوانات · وما يتبلغون به اليوم ليتقووا على السعي في طلب رزقهم في الغد ولكن الفريق الاكبر من بني البشر قد جاوزوا هذه الخطة وادّخروا راس مال ينفقون منه و يعتمدون عليه وقت العمل · وفلاحهم يتعب تعباً شديدا على فلح الارض وزرعها ويلتزم ان يلبث بضعة شهور يقتات ويكتسي بما عنده من المال قبلما يستغل زرعه وينتفع به ولكنه يجد الغلة توازي التعب وتزيد عليه · واذا كان راس ماله كثيراً استغنى عن الغلة واحتكرها الى وقت ارتفاع الاسعار فباعها بثمن غالٍ وحصل ما لا يحصله المتوحش بمضاعف التعب وقس على ذلك بقية اعمال المتمدنين · ولا يخفى ان السببين الاولين اي الارض والعمل ضروريان لتحصيل المال اذ لا يمكن الحصول عليه بدونهما واما الثالث اي راس المال فغير ضروري ولكنه لازم جداً لتحصيل الكثير من المال بالقليل من التعب

ثم اذا دققنا النظر في السببين الاولين اي الارض والعمل رأينا ان الثروة تتوقف على الثاني منهما اكثر مما تتوقف على الاول لان الارض الواحدة قد يعيش اهلها في اليسر والرخاء وتتدفق عليهم الثروة حتى تفيض على ما

حولهم من البلدان. وقد يعيشون في العسر والضنك ولا يفيض عنهم شيء من سنة الى سنة . وامثلة ذلك كثيرة جداً اقربها بلادنا هذه فان اهاليها الآن في ضنك شديد ولم يكونوا كذلك منذ الفي سنة مع انهم كانوا اكثر عدداً . والبلاد لم تتغير ولكن تغير الناس وتغيرت اعمالهم . وكذلك بلاد اسبانيا فانها كانت ايام استيلاء العرب عليها جنة تتدفق بالخيرات ثم ابتلعت اموال اميركا وهي الان اقل ثروةً منها في ايام العرب مع انها لم تزل في طيبة هوائها وجودة تربتها وكثرة معادنها. واهاليها الاسبانيون اقوياء البنية اصحاء الاجسام لا يهملون الاعمال . ولكن لا تحصل الفائدة الكبرى من العمل ما لم يستوف ثلاثة شروط وهي ان يعمل في انسب الازمنة واصلح الامكنة واجود الاساليب . وكل بلاد عمل اهاليها بموجب هذه الشروط الثلاثة وكانت عندهم اسباب المال الثلاثة المذكورة انفاً صارت في مقدمة البلدان ثروةً وعمارة. وها نحن نشرح كلاً من هذه الشروط شرحاً موجزاً

الشرط الاول مناسبة الزمان . من المعلوم ان الازمنة لا تناسب كلها للعمل الواحد على حد سوى . فالفلاح قد علمته التجارب ان يفلح الارض في الوقت الانسب لفلحها و يزرعها في الوقت الانسب لزرعها وقد علمته ايضاً ان لزرع هذا النوع من الحبوب وقتاً آخر . فان خالف بينهما او لم يجرِ اعماله في اوقاتها المناسبة لم يستفد منها الفائدة الكبرى . والتاجر قد علمه الاختبار ان يجلب الانسجة الصوفية في الشتاء والقطنية في الصيف. وهذا وان ظهر انه واضح لا يقبل زيادة ايضاح الا ان الاعمال كثيرة واختبار الانسان الواحد لا يكفي فلا بد له من الاعتماد على اختبار غيره

من العمال ولا سيما الذين ينقطعون الى البحث في طبائع الامور ولولا ذلك لافلح الناس كلهم على حدٍ سوى ولكنهم يتفاوتون كثيرًا في احكام الاعمال في اوقاتها فلا تاتي اعمالهم بنتائج متساوية ولا يفلحون كلهم

الشرط الثاني مناسبة المكان · وهذا الشرط ظاهر ايضاً في احوال كثيرة فاننا لم نرَ احدًا يزرع قمحًا على الصخر او يصطاد سمكاً من الرمل ولكنه غير ظاهر في احوال اخرى بل كثيرًا ما نرى الناس يحاولون نقضه فيرجعون بخفي حنين · مثال ذلك ان الارز يجود في وادي النيل اكثر مما يجود في اراضي سورية والتبغ يجود في اراضي سورية اكثر مما يجود في وادي النيل فلا يحسن زرع الارز في سورية والتبغ في مصر · والحرير كثير في سورية والحديد قليل فيها او هو كثير في الارض ولكن استعماله متعذر لقلة الوقود ولصعوبة النقل ومع ذلك لم تنشأ في بيروت شركة لنسج الحرير بل انشئت فيها شركة لسبك الحديد وهذا عمل وضع في غير محله وكانت عاقبته انه ذهب ادراج الرياح وضاعت الاموال التي بذلت فيه · واذا لم يكن في نواحي بيروت تراب صالح لعمل القرميد فالمعمل الذي أقيم فيها منذ مدة لعمله قد وضع في غير محله ولا فائدة منه وكان الواجب على صاحبه ان يتأكد اولاً مناسبة المكان لانشاء هذا المعمل من حيث وجود التراب والماء والوقود ويتأكد ايضاً امكان بيع كل ما يصنعه في هذه البلاد او امكان نقله الى بلاد اخرى بحيث تكون نفقته مثل نفقة قرميد الافرنج او اقل · ومن تدبر هذا الموضوع جيدًا رأى ان اكثر الاعمال التي لم تنجح لم تكن موضوعة في محلها

وافضل اسلوب للنجاح وتكثير الثروة ان تقتصر كل بلاد على على الاعمال التي يمكن ان تتم فيها باقل شيء من التعب وان تطلق السبيل للتجار لكي ينقلوا ما يشاؤون من حاصلات بلادهم ومصنوعاتها الى البلدان الاخرى ويجلبوا منها ما تحتاج اليه بلادهم من المصنوعات والحاصلات · وهذا الموضوع واسع ايضاً وسنعود اليه في فرصة اخرى

الشرط الثالث حسن الاسلوب · لا بد لكل عامل من اتقان اسلوب العمل الذي يعمل به حتى لا يذهب شيء من تعبه سدى · وقد يمكن ان يعمل العمل الواحد على اساليب مختلفة ولا بد من ان يكون بعض هذه الاساليب افضل من البعض الآخر فيجب ان يكون العامل عالمًا بحقيقة العمل حتى يختار الاسلوب الافضل ويتخلص من العبث · فيجب تعليم العملة مبادىء العلوم الطبيعية والميكانيكية اللازمة لاتقان الاعمال واذا تعذّر ذلك وجب ان يقام لهم مدير عالم يدربهم في اعمالهم · وعندنا ان هذا هو السبب الاكبر لتأخر الاعمال في بلادنا وقلة الثروة فيها فان اهاليها امسوا لقلة علمهم غير قادرين على مجاراة الافرنج في عمل من الاعمال · فكم من عامل رأيناه يدأب نهاره وليله على اختراع آلة تتحرك من نفسها حركة دائمة وهو لو درس مبادىء العلوم الطبيعية والميكانيكية لعلم ان ذلك ضرب من المحال وتخلص من اضاعة الوقت والتعب · وكم من مرة سمعنا ان الصباغين في بلادنا فسد نيلهم ولم يعد صالحًا لشيء فخسروا ما لهم وتعبهم وهم لو تعلموا المبادىء الكيماوية المتعلقة بالصباغة لتخلصوا من هذه الخسائر كلها او يخفى على احد من اهالي لبنان ان معدل غلة مد الحنطة لا تزيد على خمسة امداد في بقاع العزيز اخصب اراضي هذه

البلاد وبالقرب منه اراضٍ لبعض الفرنسويين غلة المدّ فيها خمسون بل ستون مدًّا · هذا ولو اردنا ان نفصل افتقار الاعمال للعلم ونبين سبب تاخر كل عمل من اعمالنا لطال بنا المقال فوق الاحتمال

ثم ان الاعمال لا تتقن الاتقان التام ولا تعمل باقل شيء من النفقة ما لم يشترك فيها كثيرون ويعمل كل منهم جزءًا منها فقط ويقال لذلك تقسيم الاعمال وهو شرط لازم لاتقانها · والظاهر ان الناس انقادوا اليه منذ القديم فترى في كل قرية من القرى الكبيرة خبازًا وقصابًا وحدادًا ونجارًا وكلاً منهم يقتصر على صناعته بل ترى تقسيم الاعمال جاريًا في بيوت القرى الحقيرة ايضاً فالرجل يفلح والمرأة تغزل والصبيان يرعون المواشي والبنات يحلبنها · ويزداد تقسيم الاعمال بازدياد التمدن فترى في المعمل الواحد عملة كثيرين بين المدير والكاتب والموقت والصناع على اختلاف اعمالهم والحمالين والخدم · ولهذا التقسيم ست فوائد كبيرة

الاولى ازدياد مهارة الصناع وهي لا تزيد الا بالمزاولة الشديدة والتكرار حتى يصير العمل ملكة في العامل مثال ذلك ان الحداد الذي لم يمارس عمل المسامير لا يستطيع ان يعمل في اليوم اكثر من مئتي مسمار او ثلاث مئة ولكنه اذا مارس عملها يصير قادرًا ان يعمل ١٠٠٠ مسمار في اليوم واذا تربى على ذلك من صغره قدر ان يعمل ٢٣٠٠ مسمار في اليوم

الثانية عدم اضاعة الوقت بالانتقال من عمل الى آخر · فان كل عمل يحتاج من الادوات والاستعداد ما لا يحتاجه غيره فاذا عمل الانسان هذا العمل ثم تركه ليعمل عملاً آخر اضطرَّ ان يترك الادوات

الاولى ويستعمل غيرها وقد يضيع في هذا الانتقال وقتاً قدر الوقت اللازم للعمل · وهذا ايضاً واضح وهو من اكبر الاسباب لرخص البضائع الافرنجية مع غلاء اجرة العملة عندهم

الثالثة تكرير النفع اي ان تقسم الاعمال يمكن كثيرين من الانتفاع بعمل انسان واحد في وقت واحد · فاذا اراد زيد ان يرسل كتاباً من بلد الى آخر اضطرَّ ان ياخذه بنفسه او ان يستاجر رسولاً ويرسله معه ويدفع اجرته كلها وكذا لو اراد عمرو ان يرسل كتاباً لاقتضى ان يستاجر رسولاً اخر وهلمَّ جرًّا · فلو قام رجل جعل حمل المكاتيب حرفة له لخدم اهل البلد كلهم وهو يخدم واحدا منهم · وعلى هذا المبدإ قد انشئت البرد وقلت اجرة نقل المكاتيب والجرائد ونحوها حتى صارت اقل من من القليل وعلى هذا المبدأ ايضاً قام اناس واتخذوا لهم انشاء الجرائد الاخبارية والعلمية فتكرر نفعهم الوفاً من المرات ولم يزد التعب والنفقة الا قليلاً · وعلى هذا المبداء ايضاً عمل الافرنج آلات كثيرة تصنع الوفاً من المتاع الواحد على نسق واحد كأنها تسبكها سبكاً في قالب واحد فرخصت مصنوعاتهم ولم يعد ممكناً لاحد ان يجاريهم ما لم يستخدم تلك الالات

الرابعة اختيار العمل المناسب للشخص · فانه يحدث من تقسيم الاعمال ان القوي يختار الحدادة حرفةً له والضعيف الحياكة او السكافة والحاذق عمل الساعات والجاهل تصليح السياجات (الوشع) وكل انسان يختار العمل الذي يربح منه اكثر مما يربح من غيره من الاعمال وكلما كثرت تقاسيم الاعمال سهل على كل احد ان يجد عملاً مناسباً له فيمهر فيه ويزيد ربحه منه

الخامسة اختيار المكان المناسب للعمل فان الاماكن المختلفة لا تناسب الاعمال كلها على حد سوى فاذا انقسمت الاعمال اختص بعضها بهذا المكان و بعضها بغيره واشترك البشر كلهم في خدمة بعضهم بعضاً وتمكنت علاقاتهم بعضهم ببعض بواسطة التجارة · ولولا ذلك لبقيت كل امة بل كل قبيلة عائشة وحدها مستقلة عن غيرها من القبائل

السادسة التعاون على الاعمال · لان تقسيم الاعمال لا يبعد الصناع بعضهم عن بعض بل يقرّبهم حتى يُعاون بعضهم بعضاً · فانظر كم من العملة يتعاون على طبع الكتاب كسابك الحروف وجامعها وصانع المطبعة وصانع الورق وصانع الحبر والمؤلف والمحرر والمصحح والطباع والخياط والمجلد وكثيرين غيرهم من مستخرجي المعادن وسابكيها وجامعي الخرق والمتجرين بها وصانعي الاصباغ ومازجيها · وهم كاجزاء آلة واحدة يعمل كل منهم عملاً خاصاً ويتعاونون كلهم سوية على اتمام العمل الاخير المقصود من اعمالهم كلها · واذا امعنا النظر لم نرَ صناعة مستقلة بنفسها بل رأينا التعاون في الاعمال نتيجة لازمة عن تقسيمها · فالساعة الواحدة لا تعمل حتى يتعاون عليها اكثر من اربعين عاملاً وقطعة القطن لا تنسج حتى يتعاون عليها اكثر من مئة عامل · وكلما اكتشف اكتشاف جديد زادت الصنائع عدداً وزاد تعاون الناس · فانه لم يمضِ على صناعة الفوتوغرافيا الا مدة وجيزة ولكنها قد اوجدت ست عشرة حرفة جديدة وكلها لازمة لعمل كل صورة من صور الفوتوغرافيا · ويسمى هذا النوع من التعاون بالتعاون المركب تمييزاً له عن التعاون البسيط الذي يتعاون فيه كثيرون على عمل واحد في وقت واحد ويعملون فيه معاً كما اذا جذب كثيرون حبلاً واحداً

لرفع شيء ثقيل · والغالب ان الناس الذين يقتسمون العمل يتعاونون التعاون المركب والبسيط حسبما تدعو الحال فيعملون معاً اكثر من مجموع اعمال كل منهم

هذا من جهة المنافع الناتجة من تقسيم الاعمال ولكن لا يليق بنا ان نذكر المنافع ونترك المضار ولو كانت قليلة جداً بالنسبة الى المنافع · ومرجع هذه المضار كلها الى حصر قوى العمال ضمن حدود ضيقة · لان الانسان الذي يزاول عملاً واحداً لا يقدر غالباً ان يعمل غيره فاذا كسد عمله او اضطر ان يتركه لسبب اخر لم يستطع غالباً ان يعمل غيره · وما من دواء لذلك الا الصبر والاجتهاد على تعلم حرفة اخرى حالما تكسد الحرفة الاولى واطلاق الحرية لكل الناس ليحترفوا الحرف التي يريدونها فان الحاجة تدعوهم الى احتراف الحرف المناسبة لهم ولغيرهم · والزمان يصلح كل خطاء يقع في ميزان الاعمال

طلب المعالي

لنعوم افندي شقير

« نقلاً عن اللطائف السنة الثانية »

كلٌّ لهُ غرضٌ يسعى ليدركه   والحرُّ يجعل ادراك العلى غرضه

هي المعالي امجاد النفس وعزُّ الوجود وفخر الانام · وهي النفس نفس الحرّ محلقة في سماء تلك المعالي تروم اسماها وما اولاها بهذا المقام · فالمعالي المعالي نداء الاحرار وهي هي غاية مطالبهم وجل غرضهم وكلهم يسيرون اليها كالاسود الظافرة لا يرهبون خطراً ولا يقدمون حذراً وفي مقدمتهم

شاعرهم ينادي

دعيني اجدُّ السعي في طلب العلى فابلغ سؤلي او اموت فاعذرُ

ولقد جاهدوا في هذا السبيل جهاد الابطال واقتحموا الشدائد والاهوال ولهم همة من قال

وما انا راض انني واطئ الثرى ولي همةٌ لا ترتضي الافق مقعدا

فنهضوا بالجيلة البشرية من حضيض الجهل والبوار الى اسمى ذرى المجد والفخار وشادوا للتمدن حصناً حصيناً وللعمران عماداً رفيعاً وللانسانية مناراً هادياً واصبح العالم « باجزائه » يثني عليهم والخلف كلهم يسبحون بحمدهم وقام لهم في الارض ذكر واثر مذكور

وهذا العمل لم يكمل بعد فابواب المعالجة لا تزال مفتوحة لكل حرّ نشيط ومغلقة عن كل خاملٍ بليد فللمعالي سبل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها الا المقدام الجسور ولا يتغلب على عقباتها الا الحرّ الصبور والرجل الخامل ينظر الى المعالي من بعيد ويتأملها مبهوتاً ولا يجسر ان يمدَّ لها يداً

واول السبل الى درك المعالي هو الاقدام والتعب فالذي لا يقدم على الامر الخطر بكل عزمه لا يناله والذي لا يتعب في غايته ولا يسقيها من ماء فكرته لن يدركها وكيف يرقى العلى من طبعه الكسل

يا من يسامي العلى عفواً بلا تعبٍ هيهات نيل العلى عفواً بلا تعبِ

عليك بالجد اني لم ارَ احداً حوى نصيب العلى من غير ما نصبِ

فلقد جعل الله سبحانه الراحة في بساط التعب والمجد من شامخات المصاعب وتاج العلى على هام المجد المجاهد وعرف الناس هذه السنّة وغنى بها الشعراء فقال بعضهم

دعيني أنل ما لا ينالُ من العلى　　　فسهل العلى في الصعب والصعب في السهلِ
تريدين ادراك المعالي رخيصةً　　　ولا بد دون الشهد من ابرِ النحلِ

وقال آخر

ان كنت تطلب عزًّا فادَّرع تعباً　　　او فَارضَ بالذلّ واختر راحة البدنِ

ثم ان الاقدام والتعب لا يصلحان للنجاح الا اذا رافقتهما حكمة ودراية فالحكمة في العمل توفر في التعب وتقسط العمل وتعجل في السير وراء الفلاح . ألا ترى ان في تفتيت حجر على الطريق يجهد الواحد طويلا ويصرف كل عزمه ولا يستطيع ذلك وآخر يلطمه لطمة واحدة تصيب الغرض فيفتته تفتيتاً

وذو الدراية اذا تعددت عليه الاعمال وعظمت لا يرتبك ولا يفشل بل يقضيها كلها بالترتيب حسب اهميتها (١) مبتدئاً من الاهم الى ما هو اقل اهمية منه وهكذا حتى ينتهي منها كلها (٢) لا يعمل في وقت واحد الاَّ عملاً واحداً (٣) العمل الذي يبتدئ به يتممهُ جيداً (٤) لا يؤخر عملاً مستدركاً عمله في اليوم الى غدٍ وهو القائل

ولا أوخر شغل اليوم عن كسلٍ　　　الى غدٍ ان يوم العاجزين غدُ

هذا والحكمة في العمل تستدعي الانتباه الى الوقت وتقديرهُ قدرهُ فالوقت هو السلم الذي نتدرج به في مراقي الفلاح وهو يتقلص و يتمدد فتقرب درجاته بعضها من بعض وتبعد حسب استعماله . فاذا اضعنا فرصةً سدى تمدد السلم و بعدت درجاته بعضها عن بعض وصعب علينا الصعود و بعد عن الغرض المقصود و بعكس ذلك اذا ما انتهزنا الفرص وانتفعنا بكل لحظة تمرُّ بنا فالسلم يتقلص و تقرب درجاته بعضها من بعض ويسهل علينا

الصعود فننال الغرض عزّ او هان وطالب العلى اذا كان حكيماً يستخدم الوقت بروح القائل

اذا مرّ بي يوم ولم اتخذ يداً　　ولم استفد علماً فما ذاك من عمري

وهذا المبدأ اعم واهم مبادىء النجاح ومن لا يتخذه دستوراً للعمل فلا عجب ان طرحه العالم وراء ظهره ودكته النوائب الى حضيض الهوان

ثم ان الإقدام والتعب وان تعزّز بالحكمة والدراية لا يتكفلان بثبوت النجاح الاّ اذا تأسسا على اسس الاستقامة وتحليا بحسن الخلق . فالاستقامة في العمل وتعرف بالامانة هي التي تتكفل بثبوت النجاح وتكسب الاعمال رونقاً جميلاً وذكراً طيباً وهي لازمة للاشغال لزوم النور للضياء فاذا بيع النحاس ذهباً والقطن صوفاً وجعل السم ترياقاً والباطل حقاً ارتبكت الاشغال واشتد النكال وكان مصير العلم والعالم الى الزوال فكل نجاح يقوم بالغش والخداع لا بد ان يسقط وما نصيب الغاشين الخدّاعين الاّ الهوان والاستقامة في العمل هي التي حملت القائل على قوله (المنايا ولا الدنايا وخير من ركوب الخنا ركوب الجنازه) فالرجل المستقيم لا يخاتل ولا يحاول ولا يروغ ولا يماري ولا يرشي ولا يرتشي كما يفعل القوم الانذال بل يسير بالاخلاص والنزاهة وعزة النفس والشهامة لا يخلف وعداً ولا يرهب في الحق وعيداً

وحسن الخلق واعني به حسن السلوك افضل ما يتزوّده المرء في سبيل المعالي . فبحسن الخلق تحلو الاعمال وتتجمّل الاحوال وقد قيل مَن حسنت اخلاقه درّت ارزاقه وقالوا نعمَ الحسبُ الخُلق الحسن وقال الشاعر

وما اكتسب المحامد طالبوها بمثل البشرِ والوجه اللطيف

واحسن قاعدة للسلوك ما قال الشاعر العربي

وما الناس الاَّ واحدٌ من ثلاثةٍ شريفٌ ومشروف ومثلٌ مقاومُ

فامَّا الذي فوقي فاعرف فضله واتبعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ

واما الذي دوني فان قال صنت عن اجابته نفسي وان لامَ لائمُ

واما الذي مثلي فان زل او هفا تفضلتُ ان الحلم بالفضل حاكمُ

والعاقل من جعل عقله معياراً يلقى كل مثال بمثاله على حد قول القائل

« وما لي لا أُوفي البريَّة قِسطَها على قدر ما يُعطى وعقلي ميزانُ »

وليس حسن الخُلق وطيب النفس مما يعامل به احد

فالبعضُ يُضرَبَ بالعصا والبعض تكفيه الاشارة

وخلاصة القول ان سنة الله في خلقه (١) ان الذي لا يعمل لا يفلح وقد قال لآدم « بعرق وجهك تاكل خبزك » وان العمل لا يسير بنا في سبيل المعالي الاَّ اذا سار بالاقدام والتعب . (٢) وان الاقدام والتعب لا يجودان في السير الاَّ اذا عززتهما حكمةٌ ودرايةٌ . (٣) وان الدراية مع التعب لا يتكفلان بثبوت النجاح الا اذا قاما على اسس الاستقامة وتحليا بحسن الخلق . ذلك كان سير الاحرار ورجال الاعمال وكل من رقي المعالي او نال من المجد شيئاً مذكوراً . فهلموا بنا نسير في هذه السبل الشريفة ولا نرهبنَّ عناء المسير هلموا بنا ننهض من رقاد الكسل وننشط من عقال الجهل ولا نرضخنَّ على ذل الحال فالمرء حيث يجعل نفسه فان رفعهـا ارتفعت وان وضعها اتضعت قال الشاعر

وقد قالت الحكماء . النفس عروف غروف ونفورٌ ألوف متى ردعتها ارتدعت ومتى حملتها حملت وان اهملتها فسدت

« والنفس راغبةٌ اذا رغَّبتها وإذا تُردُّ الى قليل تقنعُ »

فلا تردُّوا النفس الى القليل ولا تقنعوا بذل الحال فقد ان وقت الجهاد وعظم الخطب في البلاد خطا الغرب في سلم المعالي خطوات ونحن بعد نزحف وراءهم في اسفل الدرجات وهم ينظرون الينا من سمو مرتبتهم تهكماً واستخفافاً هازئين بالحال التي نحن فيها وبالقدر الذي لبثنا عليهِ واذا جاهد شرقي ونزَّل نفسه منزلتهم واظهر بجدّهِ واقتداره انهُ ندّاً لهم تألبوا عليهِ جماعات وشدّدوا عليهِ النكير وقالوا يشمخون الا شرف الاَّ في الغرب وما الاشراف الاَّ أهلوهُ وكيف ايها الشرقي الغبيُّ الوقح تجرأت ان تطأ هذه المرتبة الخطيرة وتدعي في آخر الايام المجد والشرف فما قولكم بعد هذه ايها الوطنيون أنرضخ للعار وترضى بالذل ونبقى نزحف وراء الافرنج صاغرين . لا

لا تسقني كاس الحياة بذلَّةٍ بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

اجدادنا لم يرضوا بالذل منزلة وقد احلوا هذه البلاد محلاً رفيعاً وافتخروا على أمم الارض بالعلم والمعرفة والحكمة . وانتم ابناؤهم ألا اسمعوا . . . ألا اصغوا . . . صوت خارج من رفات القبور ينادي وكانهُ في ضنك شديد . . . ايها الابناء اورثناكم انفساً ابية فكيف تذلون . خلفنا لكم بلاداً عزيزة فاهملتموها والى مَ تتهاملون » . . . فها الاموات من القبور نهضت تنهض هممنا وتتعوَّذ من الذلّ الذي نحن فيه . فالى مَ هذه التقاعد والكسل وحتى مَ نبقى في الذل والهوان فهبوا ايها الوطنيون من سنة الغفلة

[illegible]

الاعظم واطلبوا المعالي من ابوابها واجتنبوا الطيبات ولا تثنوا عن عزمكم حتى تحني لكم مراقي العلى الراس ويجيبكم بشير النصر اجلالاً واكراماً

فقلَّ من جدَّ في امرٍ يحاولهُ　　واستصحب الصبر الاَّ فازَ بالظفرِ

الذوق في الكتابة

« عن مجلة انيس الجليس — السنة الثانية »

(راجع ص ٧ و١٨ من هذا الكتاب و ص ١ و٧ من المجاني المجلد الاول)

الكتابة او الانشاء بجملته سواء كان نظماً او نثراً من اشرف واجل ما نشأ مع الانسان او تولد عنه بل الانشاء هو الانسان حقيقة وبه تتفاضل مراتبه وتتفاوت مقادير عقله ونبله ولولا هذا القلم والقرطاس وهما آلة العقل ووسيلة ظهوره لما كان الانسان الا بهيماً او شبه بهيم كالمتوحش الذي قل ان يفرق عن البهيم بشيء من الجهة المعنوية

وليس من غرضنا في هذا المقال ان نبين طرق الانشاء او صحيح الكتابة من فاسدها فان ذلك مما يعدو طوقنا وهو من ولاية اصحابه والمشتغلين فيه ولكن قصدنا ان ندل على تأثير الكتابة في نفوس قرائها ونبين العلاقة التي تربط نفس الكاتب بنفس القارىء من حيث الاقبال والنفور والود والكره فان ذلك لدى الحقيقة اجل من صحة الكتابة وفسادها من جهة وقعه على الخاطر وتأثيره في النفس

ومعلوم ان الناس تتفاهم باقلامها كما تتفاهم بالسنتها وكما انهم يتنافرون ويتقربون في حديثهم فكذلك هم في كتابتهم وعرض اقوالهم بعضهم على بعض · على انه ليس شرطاً ان يستثقل المرء نفس محدثه او يستلطفه لمباشرته

اياه في الحديث فانه يكون معه على هذه الحالة وهو يسمع قوله الموجه الى غيره وما يكون في الحديث يكون في الكتابة ايضاً ولكن الكتابة ادق جداً من الحديث وقد يكون الكاتب على شدة بعده من القارىء وعدم تعارفهما قط اشد دلالة على نفسه من نفس المحدث القريب الذي تسمع صوته وتنظر اشاراته وحركاته وغير ذلك مما هو في ظاهره اوقع في النفس واكثر تأثيراً ولكنه في الحقيقة اقل من تأثير الكاتب البعيد وهذا من غريب وجدانات النفوس وسمو لطفها ورقتها

تطالع قول الكاتب وهو في الهند وانت في مصر فتتعشقه او تكرهه لا لفصاحة في قوله او سقم في عباراته بل لشيء في كتابته دل على نفسه وطرق عشرته وكيفية عيشه فاذا احببته فليس لانه افادك ودلك على الصحيح فقد يكون قال الخطاء وكتب ما ليس بصواب ولكن لان قوله لطف على نفسك فترسمه في خاطرك على الصورة التي تريدها وترضاها ثم انت تكرهه وهو يكتب الصواب واعتقادك فيه الحق وانما كرهته لشيء في اثناء كلماته خشن على نفسك وتجافى عن ذوقك فيرتسم لديك على اقبح ما تبغض

ولا يتوهمن القارىء ان هذا الشعور يكون بين نفس ونفس فقط بل هو بين نفس ونفوس اي بين نفس الكاتب ونفوس قرائه فاذا احب احبه الجميع واذا كره كرهه كلهم وذلك على الغالب واذا لم يكن هذا فقد امتنع اذن ما نسميه بالذوق وامتناع هذا محال ما دام الشعور يثبته والاجماع على المحاسن ونقائضها يقربه ثم ان في هذا الذوق ما يتعلق بالعلم وشروط صحته والترجيح فيه وهو مختص باللفظ من حيث انه قالب للمعنى ومنه ما

لا علاقة له بشيء من العلم وهو الذي نعنيه الان

انظر الى المتنبي شاعرنا العظيم تجده محبوباً من كل من يقرأ شعره وذلك ليس لسمو اشعاره وشرف معانيه بل لظرف نفسه ولطف شعوره ثم هو كان يتكبر ويختال كثيراً في شعره والكبرياء مكروهة ولكنه معها محبوب وذلك لانه لم يتكلفها تكلفاً بل جرت مع حقيقة نفسه فوردت بسيطة تدل على شرف نفسه وانه واصف ذاته بالصدق والحق على حين لا تجد هذا الافتخار محبوباً من ابي تمام مثلاً مع انه في طبقته بالبلاغة وعلو المعاني وذلك لانه يغالب نفسه ويريد انزالها حيث لا تنزل والذي يتفقد شعر ابي تمام يستثقل بعضه ولو كان وارداً في الطف الاغراض

ثم انظر الى البديع الهمذاني فانه معشوق من كل من قرأ رسائله وهو في النثر كالمتنبي في النظم وله هجو وافتخار كثير في اثناء كلامه وكلاهما مذمومان ولكنه على ذلك محبوب لان كلامه على علاته خفيف المحمل على الصدور مهما خشن معناه ولفظه وذلك لانه كان يرسل كلامه من عند نفسه اللطيفة فيتكفل الذوق بحسن ايرادها بما يضمن له محبة القارىء ٠ وهذا الذوق هو انه عمدة الكاتب والشاعر والمحدث والخطيب وبدون الذوق لا يمكن ان يطيب كلام او يحلو شعر مهما كثرت سلامتهما من الخطأ وابتعدا عن المعاني المبتذلة

هذا ابو العلاء المعري وهو شاعر ناثر مُجيد ويكاد يكون ارفع منزلة من الهمذاني في لغة العرب وشروطها ولكنه على بلاغته وسلامة كلامه لا يقاس بشيء من جهة الذوق مع الهمذاني بل ان له من الرسائل ما يصح ان يعاقب بقراءتها كل ذي ذوق حسن وشعور لطيف غير اننا مع اعترافنا

بما فات نفس المعري من هذا الذوق قياساً على بعض شعره فاننا في شك كثير من ان تكون تلك الرسائل صادرة من قلمه . وقس على هولاء الاعلام كثيرين من امثالهم ممن نزلوا ارفع درجة من الفصاحة والبلاغة فانهم على قلة التفاوت بينهم من حيث العلم وصحته متفاوتون جداً في الذوق والدلالة على لطف النفس

اما سبب هذا الذوق في النفوس فليس صادراً عنها بذواتها كالبخل مثلاً اذا كان في نفس فلا سبيل الى رده بل هو اذا كان فاسداً فقد يمكن اصلاحه وفساد الذوق انما يكون على الغالب صادراً عن كلام كثير في معنى واحد ولو كان المعنى جليلاً وعن الدعوى على غير استحقاق من صاحبها وهذا العيب فاش عند بعض الكتاب في بلادنا فترى الواحد منهم يكتب في الموضوع الحسن والمعنى الجيد او يقص قصة مسلية ولكنه يحشوها من دلائل الدعوى والاعتداد ما يمل القارىء ويسبب له العداوة والكره في نفسه مع انه يكون قد افاده من حيث حقيقة ما كتب

يصف الواحد منهم انه لقي رجلاً رفيع المنزلة عالي القدر فيقول مثلاً لقد تشرفت بلقاء فلان فادناني من مجلسه وخصني بعنايته ثم تنازل وتعدى مبلغ قدري حتى قصر حديثه عليّ دون جلسائه مع انهم من ذوي الشرف والنبل . ومثل هذا الكلام على ما فيه من ظاهر الاشارة الى اتضاع قائله فان فيه من الصلف والخيلاء ما لا يغتفره ذو ذوق سليم بحيث يتمثل قائله في ذهن القارىء على اقبح حالة واردأ خلق ثم يكون له عدواً . واين ذلك القول من وصف الهمذاني لمقابلته احد العظماء اذ قال « فلما لقيته فرشت الارض بيدي فرشاً ونقشت التراب بفمي نقشاً وخطا اليّ خطوات

كادت الارض لا تسعها وكادت الملائكة ترفعها » فان الهمذاني كونه قد جعل نفسه بمنزلة من يعفر وجهه امام العظماء وهو نهاية الضعة فانه قد سما في نفس قارىء كلامه سمواً عظيماً حتى نسي عظمة الممدوح واخذ يتمثل عظمة الهمذاني ولطف نفسه وحسن ذوقه ومثل هذا لا علاقة له بالعلم وصوغ الكلام وانت ترى ان كلا القولين اذا تفاوتا شيئاً من حيث جودة الصنعة وحسن التركيب فقد تفاوتا جداً شيئاً من حيث الذوق ولطف الايراد بل لو كان القول الاول اجود وضعاً واحلى الفاظاً لما لقي في نفس قارئه من الانبساط والتودد لقائله ما لقيه من القول الثاني

ويقرب من هذا القول قول المتنبي يصف مقابلة عظيم

فلما رآني مقبلاً هز نفسه   اليَّ حسام كل صفح له حدُّ
فلم ارَ قبلي من مشى البحر نحوه   ولا رجلاً قامت تعانقه الاسد

فان المتنبي هنا قد علا جداً بنفسه اذ خصها من المديح باكثر مما خص به الممدوح ولكنه تلطف جداً في بيان ما وصف حتى انصرف ذهن القارىء من التامل في كبرياء المتنبي الى الاعجاب بذوقه والحب لرقة روحه

وهذا وامثاله انما يرجع كله الى الذوق وحده وما احرانا جميعاً ان نروض نفوسنا على هذا الذوق ونتعلمه تعلماً اذا لم يكن فينا سجية فان الناس ينكرون على العالم الحقيقي ثلاثة ارباع علمه اذا لم يكن لطيفاً في بيانه فكم ينكرون على امثالنا ودوننا ودون الحقائق مراحل

المرء بسعيه

« عن مجلة الطائف — السنة الرابعة »

(راجع ص ١٦٧ والمقالات الادبية لاحمد فارس ص ١٨٨ من المجلد الاول)

ما حكَّ جلدكَ غير ظفركْ   فتولَّ انت جميع امركْ

العالم الذي نحن فيه عالم نزاع يتبارى الناس في مضماره فمن كان خاملاً اخرق ناء به حمله ووقع خاسرًا ومن كان مقداماً هماماً فاز بامنيته وثبت فيه ظافرًا · وقلما تثبت في هذا الصراع قدم امرئ وكلٍ ينتظر النجاح على ايدي التقادير او يومل نوال مناهُ على يد سواه

فانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوّل في الدنيا على رجل
وقلَّ من عاش في الدنيا على املٍ   واستنجد الجد الاَّ فاز بالامل

وما من شيء ينهض بالمرء من حضيض الفقر والخسة الى اوج الغنى مثل جده وسعيه بنفسه وراء خير نفسه · ولم يتقدم امرؤٌ بين الناس وهو ملازم بيته او متقلب على فراشه فانك اذا سألت كبار العالم والذين نجحوا فيه او لو تفقدت احوالهم لوجدت ان اكثرهم لم يدركوا المعالي تراثاً ولا نالوها بالصدقة انما حصلوها بتضحية اوقاتهم وسكب عرق جباههم في سبيلها

ولا ييأسنّ امرؤٌ يعتقد ان الدنيا اقبال وادبار ولا حيلة للمرء في الوقوف امامها فهي اذا اقبلت فاضت عليه بخيرات السماء وانهالت عليه نعمها كالديم الوطفاء حتى اذا تسترمنها لحقته الى ما وراء الستار اضطرارًا وارسلت عليه السماء مدرارًا وان ادبرت برته بشفارها وقلبته على نارها واقامت دون كل مساعيه سدًا وصدّت خيراتها عنه صدًا ولا نزال الى ان

تاتي عليه وتسوقهُ الى احتذاء الوجى واغتذاء الشجي · ولا تخورنّ قواه من امرها فان للاحوال حقاً لا ينكر ولكنها نادرة بين الناس والنادر لا يبنى عليه قياس· والجاد ذو العزم الثابت تذل له الاحوال وتخدمه بالرغم عنها كما صدمت كثيرين كانت واقفة لتأخرهم بادىء بدأة بالمرصاد ثم وجدتهم ابطالاً لا يلحق لهم غبار فطأطأت لهم الراس واناخت ضاغساتها واتت تخدمهم اذلّ من بيضة البلد

ولا شك ان من يتوكل على الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب انما ذلك مشروط باجتهاد العبد وجدّه فقد جاء في اقوالهم ان الله يقول لعبده قم يا عبدي لاقوم معك وساعد نفسك تساعدك السماء· واي امرءٍ من الناس لا يحتقر نفسه وهو يرى انه لا يحصل رزقه الا بتصدق الغير عليه او يعد نفسه رجلاً وهو لا يعمل عملاً ما لم يشر به عليه زيد او يقوده اليه عبيد فان تسميته بالة بين ايدي الناس لاخلق واحرى به من تسميته برجل بينهم · اذ انه لا يلبث حيناً من الدهر حتى يضعف كل عزمٍ في صدره وتموت كل شهامة فيه فيصير وغداً لئيماً لا تستحيي ان تصفعه · وان من اقبح المناظر منظر شاب جيد الصحة قويّ البنية عريض الاكتاف يقف مطرحاً يديه او واضعاً اياها في جيبيه كسلانَ يطلب مساعدة الناس ولا يقدم على العمل ويريق دماه في سبيل الجد

ومما يحكى عن السرطان انه اذا قذفته المياه الى اليابسة لبث هناك ريثما تعود ثانية وترجع به اليها · فان لم تعد اليه بقي هناك مؤملاً الرجوع صابراً على مضض الجوع الى ان يموت او يجعل الله له سبيلاً مع انه اذا بذل الهمة وحرّك ارجله قليلاً وصل الماء الذي لا يكون بعيداً عنها

في اكثر الاوقات الا دون الذراعين . وكم من اناس في العالم كالسرطان في معيشتهم لا بل يفوقهم السرطان جداً ويعلمهم الاعتماد على النفس لا يستطيعون القيام في هذا العالم ما لم يتهيأ لهم ان يعيشوا كالحمام او ان يهال الرزق عليهم هيلاً دون ان يمدوا لاخذه يداً . والانسان في سيره وراء العلياء لا يجد الامر هيناً والطريق سهلة فان دون ذلك من العقبات ما لا يفريه إلاَّ همةً تعبث بالثريا وعزم كالجبال وعليه حين تهاجمه ان لا يتذلل لها ويرجع الى الوراء بل ان يقتحمها بكليته ولا يرتد عنها ما لم يذللها او يقضي الله امراً كان مفعولاً . ولا شك ان هذه الصعوبات والموانع تفيده بمعاندتها له ووقوفها في سبيله اكثر مما لو بلغ امانيه وفاز بغرضه من دون تعب او وصب والانسان لا يشعر بلذة العز ما لم يكن حصله بنفسه . ولا يقدّر الراحة قدرها الا بعد التعب ولا يعرف قيمة نعيم الغنى ما لم يكن تلظى قلبه في جحيم الفقر . وما اشبه الصعوبات والمتاعب التي تقف في سبيل الانسان بالاسد الذي اقبل على شمشون قصد افتراسه وتمزيقه باضراسه فان شمشون اول مرة لم يفر من امامه بل تلقى اظفاره المحددة وانيابه المشحوذة بعزمه وقوة باسه ولم يزل حتى اتى عليه ورماه فلما مرّ به في المرّة الثانية وجد اظفاره المحددة لا تؤذي وانيابه المشحوذة لا تنهش ووجد فيه عسلاً بدلاً من تلك . ومعلوم ان الانسان كلما داهمته الموانع وتمرس بالاتعاب اشتدت عضلاته وتضاعفت قوته وازدادت همته وتعلم منها كيف يتدبر بموانع واتعاب اعظم من تلك واكثر منها حتى اذا داهمته تقى وفدها طلق المحيا ولم يحسب لوطأتها حساباً

ولقد سأل احدهم اللورد ثرلو مستشار انكلترا عن احسن الوسائط التي ينصح له بها لتكفل نجاح ولده في شغله فقال له زوج ابنك وتخل عنه الى ان يصرف كل ما عنده وعند زوجته من المال والعقار ثم ضعه في اي مهنة كانت وانا اؤكد لك انه ينجح · ولم يقل اللورد ثرلو هذا القول الاّ لانه كان مختبراً عالماً ان الفقر لعزيز النفس اول باعث على الجدّ والنجاح وان الرجل الغني الذي عنده ما يكفيه قلما يجهد نفسه في العمل وبالنتيجة لا يرتقي ذرى المجد الا فيما ندر · وعليه فمن الغلط اذاً ان يدأب الرجل ليله ونهاره ويقاسي الاهوال ويتجشم المشقات ليحتشد الاموال ويتركها لولده كي يتنعم بها من بعده لان ذلك يرمي ولده في هوة من الكسل تتحطم بها اعضاؤه وقلما ينجو منها الا اذا قلت دراهمه عاجلاً وصحا من نشوته وبدا يكدح وراء نجاحه ورفعته ولقد قيل ان الفتى الذي يبتدىء في التقدم من حيث انتهى ابوه ينتهي الى حيث ابتدأ الاب

ومن هم الذين رفعوا العالم يا ترى واوصلوه الى هذه الدرجة من التقدم والنجاح ومن الذين استنبطوا الادوات واخترعوا الآلات التي سهلت سبل العمل ورفعت منار التمدن وشيدت اركان العمران · أهم اولاد الغنى الذين ربوا في مهد العز وتنعموا على بسط الراحة ام هم اولاد الفقر الذين لم يربوا الا في حضن القهر ولم يقوموا بانفسهم الاّ بعد ان كلت ايديهم ونضب عرق جباههم غير متكلين على صدفة ترفعهم او مساعد ينفعهم او غني ورثوه او صديق امنوه بل على انفسهم فرزقوا منها خيراً وكانت خير متكل

وصعوبات العالم وموانعه خير مدرسة توضح للمرء طرق النجاح

ورفعة الشان لان فيها لا تعلمه الكتب والاساتذة بل تعلمه نفسه ونعم المعلم فيصبح رجلاً ذا باس وقوة ومراس يحتسب لنوائب الدهر ومصائبه وذلك امرٌ معروف ومالوف فقد جاء عنهم ما معناه « لا تعلم ولدك فالدهر يعلمه » « وما علم الانسان احسن من نفسه »

وان المساعدات الخارجية والوسائط التسهيلية كثيرًا ما تضرّ بالانسان ولا يصير المرء رجلاً حقيقياً ما لم تحدق به الموانع وتحف به الصعوبات وينتصر عليها اذ هي التي تصيره رجلاً لا تلك . وهو من هذا القبيل كالازهار فانها ما لم ترصع وتسحق وتنقلب على النار لا تعطي كل روائحها العطرية او كابي سقاية (الحسون) فانه يقال انه اذا وضعت ابرة محماة في عينه اتى بابدع الحانه واشجاها ولقد اجاد من قال

ان الرجالَ صناديق مقفلةٌ وما مفاتيحها الاَّ التجاريبُ

وعلى ما يظن ان بعض الاختراعات والتسهيلات التي في هذا العصر قد اضرَّت ببعض الناس اكثر مما نفعتهم فقد اصبح المعلم يصب العلم في دماغ التلميذ صباً ويقطع به فوق جبال المعارف كما يقطع الوطني في بعض البلدان بالمسافر على ظهره فوق جبال بلاده واصبح الناس ينوطون امر صلواتهم بروساء الدين لكي يصلوا عنهم ويتخلصوا من امرها ويريدون ان تحملهم كتبهم الى ذرى العلم والمجد وهم ينظرون اليها بطرف يخالطهُ السهاد ويخالجه الاغماض كما تحملهم سكة الحديد الى حيث يشاؤُون وهم نيام مستريحون . ويعودون في عمل حساباتهم الى الكتب والآلات وفي مطالعاتهم الى القصص والروايات لكي لا يتعبوا ادمغتهم . ويستعملون ادوات يطفون بها على الماء كي لا يتعبوا اذرعهم في السباحة ويقتنون

المركبات كي لا يحركوا سوقهم ومن هذا القبيل ان في بعض النزول (اللوكندات) الات ترفع النزيل من غرفة المائدة في اسفل البناء الى غرفة النوم في اعلاه كي لا يسام تعباً بتحريك رجليه في الصعود على السلم ولا يبعد ان يسوق الكسل بعض الناس الى اختراع آلة تغسل لهم وجوههم وتمشط شعورهم وتلبسهم ثيابهم وتجلسهم على الخوان ليتناولوا الطعام لا بل على الة تحشيهم لكي لا يساموا تعباً في مدّ ايديهم الى افواههم ومضغ الطعام فيها

ومهما كان الانسان في العالم يجب ان يعتمد نفسه في كل امر ويشتغل جهده في كل مركز لا ان يشتغل شغلاً محدوداً لراتب محدود ويقتنع بذلك تاركاً قواه العقلية في حقل اهملت حراثته وتروخي في نقبه حتى لا تلبث حيناً الاّ يقل عنها الغذاء وتصير الى الفناء · ومهما كانت قواه العقلية ضعيفة واحواله عسرة يجب ان لا يتراخى في امره ولا يتاخر عن السعي وراء المعالي فان غريغوريس السابع بابا رومية كان ابن نجار وسكستوس الخامس راعياً وادريان السادس بحرياً وكوبرنكوس الفلكي الشهير ابن خباز وكبلر ابن صاحب نزل ومخترع الة الطبع التي قلبت تمدن العالم راهباً حقيراً وكلاركسون محرر العبيد نظيره · فان هذا راى ايام كان الاسترقاق في معظمة ان عاقبته وخيمة وانه لا بد من تلافي امره وتنقية البلاد منه فقام اليه من ساعته ولم يهمه ما كان عليه من سوء الحال ومن سخر الناس به بل كرّس نفسه لاستئصال الاسترقاق ولم يزل يسعى وراء غايته حتى فاز بها ونال مشتهاه

ولا يسعنا المقام لايراد غير هولاء من الذين نهضوا من هوّة العسر [illegible] ذكرنا

برهانًا يسد افواه المتسترين وراء ضعف قواهم وسوء احوالهم الذين لا يلذلهم الا الكسل والتنعم على بساط الاهمال وينتظرون ان يرقوا المعالي على سلم الامال

ومن طلب العلى من كدِّهِ　　　سيدركها متى شاب الغرابُ

ولا ينكر احد ان للاحوال يدًا في ترقية الناس ورفعة شانهم انما الانسان الحقيقي لا يعطيها المقام الاول بل يضع نفسه فيه ويستخدمها لبلوغ ماربه ولا يرضى ان يكون آلة في يدها لها الامر شاءت تضعهُ او ترفعه وكم من انسان مهدت له السبل وخدمته الاحوال فلم تزده الا خمولاً ولم يمض عليه الوقت اليسير حتى سقط وكان سقوطه عظيماً · وكم من رجلين يتقلبان في نفس الاحوال فيستخدمها الواحد متكلاً على جده فيرقى المعالي ويفوز بغرضه ولا يكترث لها الاخر فتستخدمه وتحطه الى اسفل دركات الذل والعار ولا يلقى منها الا عدوًا مبينًا يعض البنان عنده ويصيح يقول بعده

رُبَّ من ترجو به دفع الاذى　　　كان يأتيك الاذى من قبله

وخلاصة الامر ان الانسان المهمل المتكل على غيره الذي ينتظر حلول الاحوال المناسبة ويتوقع انها ترفعه دون ان يسعى ويتعب نفسه بعض التعب لا ينال العلى ولا يحلم بها والاحسن لمثله ان يطوق عنقه بحجر رحى ويلقي نفسه في البحر · فان العلى لا تنال وطالبها على بساط الكسل والامل لا يدرك ما لم يبادر صاحبه الى العمل · ومن الامور التي يحسن ذكرها ما قاله ارخميدس اعطني مركزًا جيدًا فاقلب العالم او ما

يوحنا كالهون انه وهو في مدرسة ييل الكلية كان لا يلقى من جانب ارفاقه الا هزءًا وسخرية لانه كان مجتهدًا كادًّا في دروسه معتمدًا على نفسه في كل اعمالهِ . وفي احدى المرَّات سألهُ ارفاقهُ عن سبب اجتهادهِ فاجابهم انهُ لا يستطيع الاَّ ان يبذل كل قواهُ في مدته القصيرة في المدرسة لكي يصير اهلاً لعضوية مجلس النواب فلم يرَ منهم الاَّ ضحكاً وهزءًا فقال لهم اتشكون بذلك فلا بد من ان اريكم اياه بالعيان وعند الصباح يحمد القوم السرى . فيا حبذا لو اتكل كل رجل على قوته وجدّه نظيره واضعاً الارتقاء وكل مركز يطلبهُ امام عينيه لان ذلك اول علامة من علامات النجاح

ولا يخيب امرؤ بالجدِّ معتصمٌ		حتى ولو جعل الجوزاء من غرضه

وعلى كل امرءٍ ان يعرف حق المعرفة ان لا صديق ولا رفيق على وجه البسيطة ينفع الانسان مثل نفسه و يعتقد بما كان يقوله بستالوزي من ان لا رجل يحب مساعدة الآخر وان الانسان يجب ان يخاف لا يرث وان يهب لا يستقرض وانه عوضاً عن يقول لو كنت متعلماً ولي مال واصحاب لكنت اصير رجلاً ليذكر ما قال هو راس وهو ان الرجل الحقيقي يتنعم بكل ما يشتهيه وليجرّب جهده معتمداً على نفسه في بلوغ مناه قائلاً ما دام يسعى

اراني بغور المجد ملقىً وانما		سأسعى لارقى منه ذروة نجدهِ
فلا ينفعنّي غير نفسي من الورى		ولا ينجح الانسان الاَّ بجدّهِ

البخل والبخلاء

« لجرجس افندي خولي »

« عن المقتطف – السنة الخامسة عشرة »

لو اجاد البخلاء التأمل في حقيقة هذا الدينار اللامع لرأوا ان اموالهم الكثيرة ما كانت لتندَّ شيئاً مذكوراً لو لم تقتضيها حاجات المعيشة. ولو علموا ان البذل والمنع سيان عند مَن وفرت دراهمه وقدر الحقائق حق قدرها وان البخل ليس هو الا الولع الشديد بجمع الدراهم مع الامساك عن البذل لنزعوا عن البخل القبيح الذي لا يكسبهم سوى الاهانة والعار الى الكرم الذي يرفعهم الى ذروة المجد والشرف. ولكن انَّى لهم ان يدركوا هذه الحقائق وقد ختم الله على قلوبهم حتى عدموا الرشد وغدوا لا يفقهون شيئاً فآثروا الرذيلة على الفضيلة واستأثروا بغناهم استئثاراً جائراً افضى بهم الى ضنك العيش بدلاً من رغده. فلا غروَ والحالة هذه من امساكهم عن البذل في منفعة غيرهم اذا كانوا هم انفسهم لا يتمتعون بما رزقهم الله حلالاً طيباً. ولا يخفى انه اذا لم يكن الغنى الا واسطة لقضاء الحاجات اللازمة للحياة كان من الضرورة ان ينفق في هذا السبيل على نسق يؤدي الى الانتفاع به مع منفعة القريب لانه من الخطإِ المبين ان يخزن في خزانةٍ مقفولاً عليه طوال الدهر على حين لا حاجة اليه الا لهذه الغاية. وكان على الانسان ان يهتمّ بتحصيله مع مراعاة جانب العدل وفقاً لراحة الضمير وان يطلبه للغاية نفسها ولكن اذا طمح في الطلب بان يقع له واقعٌ من الشغف حتى يضحي قلبهِ مشغوفاً باحرازه او يستلذ الجمع

استلذاذاً يحمله على الامساك عن ان ينفقه في السبيل الذي يأمر به العقل وحبُّ القريب فذلك الانسان هو البخيل بعينهِ . وبخلهِ يخطئ ضدَّ نفسه وضدَّ عائلتهِ وضدَّ القريب وضد الانسانية وبالجملة ضد كل حقيقة حتى يغدو مبغضاً من العموم . ويؤثر خزن الدينار على كل عمل خيريٍّ ولا يهمهُ مات الناس او عاشوا ويضرُّ عائلته واحياناً نفسه حتى لا يدفع الضرر بما قيمتهُ دون الطفيف

لا جرم ان البخل مرَضٌ يصيب العقل فيعدمه الادراك والاَّ كيف يرضى البخيل لنفسهِ خلةً قبيحة كهذه اجمع الناس على ذمّها وهي تحسب رذيلةً كبرى بل تعتبر ام الرذائل اذ قلما يحدث رذيلةٌ لم تكن متسببة عن البخل . ام كيف لا يثنيه الخجل عن ان ينظر الى الناس وهو يعلم ان لذكره في مجالسهم ومحافلهم من الاستهجان ما يقضي عليه بالانزواء في احدى زوايا بيته ام كيف يخطر بينهم وهو متسربل بسربال العار وطالما سدَّ بخله ابواب الفرج دون المتضايقين منهم ام كيف لايحسب مختل العقل وهو الغني الذي لا لذة له من غناه الا علمه به . فان قال قائل ان الانسان ميال بالطبع الى احراز المال فلا يسوغ القول بكون البخل نتيجة اختلال في العقل وانما هو هوى غريزي في النفس يصبو اليه المرء فغاية ما يقال اذاً في البخيل ان الانفعال وقع عليه وقوعاً اشد منه على غيره . قلت كفى بعقله اختلالاً انه رجل متبع هواه وما من احد يجهل ما للانفعال الناشىء عن هوى النفس من الاضرار بالعقل وما بين الاهواء النفسانية والاحكام العقلية من المباينة المقررة التي لا يختلف فيها اثنان . وبعد فاذا كان الانسان غير قادر على ان يجمع بينهما لتعذر الجمع بين ضدين

متباينين كان لا بد له من ان يختار واحداً من الاثنين لتجري اعمال حياته بمقتضاه. اي ان الانسان لا يتسنى له ان يتبع اهواء النفس ويخضع لاحكام العقل في وقت واحد ولا يمكنه ان يكون هائماً وعاقلاً معاً . فلا بد له والحالة هذه ان يعيش بمقتضى احد الامرين. على ان العقل قد يجعل لميلان النفس حداً لا يتجاوز الاعتدال بحيث يمكن الجمع بينهما . ولكن لما كان (اي العقل) غير قادر على الاستقلال عن النفس كان الميلان قادراً على ان يتخطى الحد العقلي الى حالة تؤدي الى الشغف والولوع وتفضي بالعقل الى الخمول حتى يبطل عمله فاذا انقاد المرء لمثل هذه الحالة المفرطة التي بها يكون العقل خاملاً متعطلاً خبط في حياته كمن يخبط في ليل بهيم حتى يقال فيه اخبط من عشواء والحاصل ان المتبع هواه لا يكون الا غاوياً فاقد الرشد زائغاً عن الطريقة المثلى فلا يفرق اذاً بين عاشق النساء كمجنون ليلى وعاشق الدينار كصاحبنا البخيل لان سائر الاهواء النفسانية تجري على ناموس واحد من حيث اضرارها بالعقل مهما اختلفت مواقعها . وعليه لا مندوحة عن القول بان البخيل مختل الشعور

على ان البخل لا يقتصر على الاخلال بالعقل وحده بل يتجاوزه الى الاجحاف بالدين والشرف . اما اجحافه بالدين فلانه منهي عنه فيه . واما اجحافه بالشرف فلانهما ضدان لا يجتمعان وذلك لان البخل يدفع الانسان الى ذخر المال والشرف يدفعه الى بذله فيما يصون به عرضه فهما والحالة هذه قوتان مختلفتان تتجاذبان المرء حتى ينقاد لواحدة منهما فتعمل فيه عملها وتبطل الاخرى. وقد يستدل ايضاً على هذا الحكم بالمشاهدة

فاننا قلما نرى البخلاء يعباون بالفضيلة او يعرضون عن الرذيلة بل هما في معتقدهم سواء على ان من كان منهم غائصاً في لجة البخل نزع بكليته الى النقيصة فراراً من البذل. فكم نشاهد مثل هذا عياناً في كثير من البخلاء الذين يذهبون الى ان الدنيئة تحفظ المال من الرزيئة وان الشرف يؤدي الى السرف. وكم نراهم يقبلون على النقائص ويميلون الى الخسائس ويغالون في الدنايا ويرتاحون للخمول وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً. أليسوا هم القوم الذين يفضلون طنطنة الدراهم على طنطنة المجد والمفاخر وعندهم انها لمن ألذ الانغام واشهاها. ولعله لا يخلو كتابٌ من كتب الامم الدينية والادبية من مذمة البخل. وقد ورد عن الرسول انه قال اياكم والشح فان الشح اهلك من كان قبلكم. وقال البخل شجرة من شجر النار واغصانها متدليات الى الدنيا فمن تمسك بغصنٍ منها جرّه الى النار. وقال البخل جامع لمساوىء القلوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء. وقد رُوي عنه انه استعظم ذنب البخل استعظاماً كبيراً وذلك ان رجلاً غنياً قال له يا رسول الله ان السائل يأتيني ليسألني فكانما يستقبلني بشعلةٍ من النار فقال له اليك عني لئلا يحرقني الله بنارك فوالذي بعثني لو قمت بين يدي الركن والمقام ثم صليت الفي الف عام وبكيت حتى تجري من دموعك الانهار وتسقي بها الاشجار ثم مت وانت لئيم لاسكنك الله النار اما علمت ان البخل كفرٌ والكفر في النار

وغاية ما يقال ان البخل مفسدةٌ كبرى تبعث على كل ما من شأنه ان يقلب الهيئة الحاضرة بحيث يفقد الاجتماع الانساني خصائصه المتكفلة براعاة المصالح المتبادلة فتنفصم عروة الارتباط وتضمحل العصبية وتتلاشى

الانسانية حتى يعدو الانسان على وجه البسيطة كما يعدو الحيوان الاعجم

على انه ما احدٍ يجهل ما للبخل من الاضرار والشرور والنتائج الردية والمعايب الادبية حتى البخلاء انفسهم قد يعلمون بما لهم من قبح السمعة وما لبخلهم من الاستهجان ولذلك تراهم يدافعون عن انفسهم اشد الدفاع ليستروا عيوبهم ولكن بسفسطة الكلام لا بالحقائق الراهنة اذ يتعذر عليهم ان يجدوا لرذيلتهم ستاراً يقبله العموم . وكثيراً ما يدَّعون بان بخلهم انما هو بالحقيقة حسن ادارة واقتصاد فكأني بالبخل مدرسة السفسطة والبخلاء اساتذتها . ومن سفسطتهم المضحكة ما قاله ابو العتاهية الشاعر البخيل وذلك انه قيل له يوماً لِمَ لا تزكي مالك فقال كيف ازكي وما انفقه على عيالي هو زكاة مالي فأجيب سبحان الله انما ينبغي لك ان تخرج زكاة مالك للفقراء والمساكين فقال لو انقطعت عن عيالي زكاة مالي لم يكن في الارض افقر منهم . على انه هو القائل

كل حيّ عند ميتته حظه من ماله الكفن

ولا ريب ان البخلاء يقولون ما لا يفعلون فلا يخدعنك ما تسمعه من بعضهم من الاقوال الدالة على زهدهم او على شيء آخر مما يبعث على حسن الظن بهم فانهم لما علموا ان البخل مجلبة للهوان وانه يوقع بينهم و بين الناس العداوة والبغضاء عمدوا الى التظاهر بما ليس في الواقع فاخفوا باطن امرهم واخذوا يخادعون الناس بما ليس فيهم على ان زهدهم في البذخ والملابس الفاخرة ونحو ذلك من لذات الدنيا انما هو طبيعي فيهم . وهو محمول على محبة الدينار وليس على محبة الله فهم يزهدون في كل ما من شأنه ان يحملهم على بذله فتأمل

والبخلاء اكثر من ان يحصوا ولهم اخبار ونوادر تضيق دونها الصحف الكبيرة وكلها على كثرتها غريبة عجيبة يقف عندها العقل متحيراً لانها بعيدة عما تستلزمه الانسانية وتقتضيه الهيئة الاجتماعية

الصدق

« للفيلسوف هربرت سبنسر »
« عن المقتطف ـ السنة السادسة عشرة »

(ترجمنا هذا الفصل بقليل من التصرف لكي يرى كتابنا كيف يبحث فلاسفة العصر في المسائل الادبية بحثاً علمياً فلسفياً فلا يعتمدون على الحدود والتعاريف والاستشهاد باقوال الشعراء بل يعولون على الاحصاء والاستقراء ثم يبنون احكامهم عليهما)

الصدق المحض من اندر الفضائل والذين يحسبون انهم صادقون تماماً لا يمضي يوم الا و يرتكبون الافراط والتفريط في اقوالهم فان المبالغة تكاد تكون شائعة والدأب على استعمال كلمة « جداً » حيث لا داعي اليها يدل على رسوخ عادة التمويه وشيوعها مع ان المموهين قد يكونون من اكبر ادعياء الصدق فتراهم يحثون عليه ثم يقولون اقوالاً يستعملون فيها المبالغة والاطناب حيث لا داعي اليهما و يصورون ذلك صوراً منطبقة على الحقيقة في شكلها و بعيدة عنها في لونها و برقشتها

وليس من غرضنا الان ان نتكلم عن الاقوال والاحكام المخالفة للحقيقة بل عما كان منها مناقضاً للحقيقة ولا سيما فيما اذا كانت هذه المناقضة مبنية على مصلحة شخصية كالاضرار بالغير او استجلاب النفع او للنجاة من قصاص

او مضرة او مظلمة او للتزلف الى شخص والانتفاع منه لان محبة الصدق لذاته من غير التفات الى النتائج امرٌ نادر

وهاك بعض الامثلة التي تدل على تمكن الكذب من بعض الشعوب والصدق من البعض الآخر

ان الذين ساحوا بين الشعوب المتبدية التي تعيش بالحرب والغزو يشهدون ان الكذب شائع بينها كما هو شائع بين الخاضعين للولاة المستبدين . قال برش عن هنود دكوتا « انهم مثل غيرهم من المتوحشين لا يقولون الصدق مطلقاً » . وقال غرفث عن قبائل الشمس « ان الصدق قليل القيمة عندهم حتى لا يقدر الانسان ان يثق كثيراً بما يقولون » . ويقال عن اهالي اواسط اسيا ان الصدق آلة بيد القوي ومن يحكم باللين قلما يكرم وقال وليمس عن الفيجيين « ان الميل الى الكذب شديد فيهم حتى انهم لا ينكرونه وقد مهروا في الكذب لانهم يعولون عليه كثيراً في اخفاء مقاصد الرؤساء ودسائسهم فان للكذوب الماهر قيمة كبيرة عند الرئيس منهم . والصدق في لغة الفيجيين مرادف للكذب » . ومثل ذلك اهالي اوغندا فقد قيل « ان الصدق محتقر عندهم كما هو محتقر عند سائر المتوحشين ولا يحسبونه خطأً والكذّاب الماهر في الكذب معدود من النوابغ الذين يستحقون ان يعجب بهم »

وكان اهالي اواسط اميركا كذلك فقد قال ده لايت عن قوم منهم خاضعين لحكومة استبدادية دموية انهم كذبة مثل سائر الهنود . ومثلهم الهنود الحاليون الذين حافظوا على اخلاق اسلافهم فقد قال دنلوب عنهم « انني لم اجد في اواسط اميركا احداً من الوطنيين يسلم ان الكذب رذيلة .

واذا نجح احدهم في خديعـة غيره قال الاهلون عنه انه رجل ماهر مهما كانت الواسطة التي استعملها قبيحة » ويشبه ذلك ما قاله نور من عن أهالي جزائر فيلبين فقد انهم لا يعتبرون الكذب خطيئة بل حيلة محللة

واذا تصفحنا الكتب القديمة راينا انه لم يكن للصدق منزلة كبيرة فقد وصف هوميروس الآلهة في الالياد بانهم يخدعون الناس ويخدع بعضهم بعضاً وان الرؤساء « لا يحجمون عن كل نوع من الكذب» . وقال ان الهة الحكمة (بلاس اثينا) كانت تحب عولوس لانه خدّاع . وقد قيل عن الكريتيين انهم « دائماً كذّابون » ولكنهم لم يمتازوا بذلك على غيرهم من اليونان امتيازاً جوهرياً . ووصف بهافي اليونان في العصور الحالية وقال ان داريوس المادي حسب ان اليوناني الذي يصدق بكلامه نادرة من النوادر

ويظهر من تاريخ اوروبا ان عدم الاحتفال بالصدق كان شائعاً في ايام الحروب التي فشت فيها في عصر الدولة الاولى من دول فرنسا (العصر المروفنجي) عصر سفك الدماء فقد كان الولاة يقسمون الايمان المعظمة وايديهم على المذابح ثم يحنثون باقسامهم حتى قال سلفيان « انه اذا حنث الفرنجي فلا عجب لانه لا يحسب الحنث ذنباً بل صورة من صور الكلام»

ثم توالت الحروب في اوروبا الى القرن العاشر فانتشر فيها الغش والخداع حتى امحت اصول الفضائل من النفس كما قال مرتن ولما استتب الملك لملوك فرنسا بقي الامراء والاشراف مظهراً للخيانة ولم يكونوا يحفلون بالصدق ولا بالامانة ولا بالشهامة ولم يكونوا يؤتمنون على الحياة ولا على العرض . وحتى الان نجد بوناً شاسعاً بين اهالي اوروبا في انحائها الشرقية والغربية اي ان اكثرهم حروباً اكثرهم كذباً وخداعاً

الا اننا اذا امعنا النظر لم نجد التكلم بالكذب نتيجة لازمة عن الحرب وسفك الدماء ولا ان الصدق نتيجة السلم والدعة . نعم ان السلم ولين الجانب يسهلان الصدق والحرب والعداوة تسهلان الكذب . وستظهر علاقة كل حالة من هاتين الحالتين باحوال الانسان بعد ان نذكر الامثلة التالية

ان امماً كثيرة طردها الغزاة من مواطنها الى مواطن حقيرة لا يطمع فيها وتُركت هناك متمتعة بالراحة التامة او غير مضطرة لتختصم مع جيرانها فنمت فيها الفضائل ولم تضطر ان تبدلها بالرذائل . قال مورس عن قبائل الكوا الذين يسكنون بلاداً ملارية فصارت الحمى مرضاً مزمناً فيهم « انهم مشهورون بالصدق وهم في ذلك قدوة المتمدنين سكان السهول » . وقال شورت عن اهالي الجبال التي في الهند الجنوبية « انهم لا يعرفون الكذب ولم يبلغوا من الحضارة مبلغاً يمكنهم من اختراعه »

وقد رايت اخرين ينسبون عدم اعتياد الكذب الى البلاهة وهو امر لا يمكن اثباته لا سيما وان الاطفال والحيوانات تكذب بافعالها كما يكذب البالغون والناطقون باقوالهم

وقال فورست في اهالي اواسط الهند الجبلية الاصليين انهم صادقون وقلما ينكر احد منهم مالاً اقترضه من اخر او جريمة ارتكبها . وقال سنكار ان قبائل الراموس (من قبائل الهند) كذابون كاكثر الشعوب المتمدنة بخلاف القبائل الساكنة الجبال فقد اخبرني احد البراهمة « انهم لبلاهتهم يصدقون دائماً بلا موجب » وقد روي ذلك ايضاً عن كثيرين من سكان جبال الهند وحراج سيلان وشمالي اسيا كالاوزيتاك والساموييد الممتازين بالصدق والاستقامة

ومن الغريب ان الصدق مرعي ايضاً عند الشعوب العائشة بالحرب وسفك الدماء كما هو مرعي عند بعض الشعوب العائشة بالسلم والطمأنينة فالموتنتوت كثير و الحروب مع جيرانهم ولكنهم لا يكذبون ولا يخلفون وعداً كما قال برووكلين . وقال مورغان عن الاروكواز (من هنود اميركا) « ان محبة الصدق من مزاياهم » ولكنهم في حرب دائمة مع جيرانهم . واهالي بتاغونيا كثيرو الحروب بعضهم مع بعض ومع الاسبانيين الذين اجتاحوا بلادهم ولكن قال فيهم سنوانهم يشمئزون من الكذب اشد الاشمئزاز . وقبائل الخند الذين يعتقدون ان الصدق من اقدس الفرائض التي فرضتها الآلهة على الناس عائشون بالحرب مع جيرانهم . وقيل عن قبائل الكولي سكان جبل دخان انهم ذوو شهامة و بساطة وصدق ولكنهم لصوص قساة

فما هو الجامع بين الشعوب المتصفة بالصدق والدعة والشعوب المتصفة بالصدق والحرب — هو عدم الخضوع في الحالين للقهر والاستبداد . فالموتنتوت المشار اليهم آنفاً حكومتهم شورويّة وحكامهم منهم وحكمهم باكثرية الاصوات . وسلطة رؤسائهم قليلة جداً . وعند الاروكواز مجلس شورى فيه خمسون عضواً ينتخبهم الاهلون و يعزلونهم حينما يشاؤون واذا اجتمعوا لغزو قدموا عليهم اشدهم بسالة . وحكومة البتاغونيين ضعيفة فيخضع الاهلون لرؤسائهم او يهجرونهم حسبما يشاؤون . وهكذا حكومة الخند فان الاهلين متساوون ولا سلطة لرؤسائهم الا ما يخولهم اياه مقامهم الادبي . والقهر والاستبداد غير معروفين عندهم

وخلاصة ما ذكره السياح ان شيوع الصدق او الكذب بين قوم متوقف على كونهم عائشين في ظل العدل او تحت لواء الظلم قال لفنستون

« ان الكذب ملجأ الضعيف المظلوم » . وهذا يصدق على اهل الحضارة الراقين مراقي العمران فان شيوع الصدق او الكذب بينهم هو بنسبة شيوع العدل او الظلم والحرية او الاستبداد . فللظلم والاستبداد اليد الطولى في جعل الناس يجنحون الى الكذب ويعتمدون على الخداع . وللعدل والانصاف اليد الطولى في جعلهم يفضلون الصدق ويتمسكون به والغالب ان السلم حليف العدل والانصاف والحرب حليفة الظلم والقهر ولذلك يكثر الصدق بين اهل السلم لانتشار العدل بينهم والكذب بين اهل الحرب لانتشار الظلم بينهم ولكن الصدق والكذب ليسا نتيجتين لازمتين عن السلم والحرب بل عن العدل والظلم فالصدق ابن العدل والكذب ابن الظلم

الفقير والغني

« للشيخ نجيب الحداد »

نقلاً عن المنتخبات

قل للغني المترف السارح في مراتع نعمائه . الساحب ذيل خيلائه على بني الانسان نظرائه . المتقلب في اعطاف النعمة والهناء لا يحسن بما في الدهر من شقائه . الراكب الخيل الجياد تجري به عنقاً . السابح في بحار الغنى والترف يكاد يشكو فيها غرقاً . النائم على حشايا الحرير والدمقس الناعم . المتنعم بما لديه من ملذات الحياة بين المشارب والمطاعم . قف هذا النظر الذاهب في السماء قليلاً . ومل بتلك النعمة التي تجر من فضول اثوابها ذيولاً . على فقير يسأل منك رحمةً ويسترحم منك سولاً . ولا تمش في الارض مرحاً انك لم تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً . وانظر الى حال

التعيس القاعد به العدم في مرابع شقائه · الساحب عليه الدهر ذيل فقره وعفائه · المتقلب في اعطاف المحن والبؤس لا يعلم بما يشعر به الغني من هنائه · الراكب رجليه يقوده زمام الحاجة خبباً · الغارق في تيار العوز لا لا يكاد يرجو الى خلاصه سبباً النائم على بساط الارض يلتحف مشقةً وتعباً · الضعيف عن طلب رزقه بمساعيه والعاجز عن ان يقول واحرَبا · ثم انظر الى من حوله من صبيةٍ صغار يتضاغون جوعاً · ونساء قاصرات يمنعهنَّ الحياء ذلاً ويمنعهنّ الذل هجوعاً · وما بين ذلك من اصل كريم تقضي عليه الحاجة تقدماً وينازعه الخجل رجوعاً · فليس الفقير من يسأل على قارعة الطريق ولا من يتعارج رغبة في الفرج من الضيق · ولا من يبسط كفه للمسئلة فينال الحاجة من كف الشفيق · بل الفقير من تقدم لنا وصف حاله يجهله الغني الغريب ويقصر عن اسعافه المعوز الصديق

فما ضر الاغنياء الذين ينفقون اموالهم على سبل لا تذكر · وفي مذاهب لا تشكر · وفي امور يحتاجون من بَعدها الى الاسعاف · واماكن يعيشون فيها رغد ايام ثم يتمنون على آثارها الكفاف · لو صرفوا بعض ذلك المال في تأليف جمعيات خيرية ينفقون عليها فضلة المال · ووقفوا بعض حنين قلوبهم الى غير ما تحن اليه من صبابة المحاسن والجمال وكفوا تلك الاسر النازل بها الدهر شر سؤالها واراحوا انفسهم من ثقل السؤال

بل ماضرَّ الغني الذي يتكبر على الفقير · والموسر الذي يحتقر العامل والاجير · لو علم ان المذلة لا تكون في لبس الكتان والعظمة لا تأتي من وراء الحرير · وان الفقير اشد لزوماً منه في مجتمع الانسان · وان العامل المتوسط هو المخترع النافع للبلاد والجندي المدافع عن الاوطان · وانه لم ينبغ من

علماء الارض وفلاسفتها الاَّ من كان متوسط الحالة او صفر البنان · وكفى بانبياء الله واوليائه حجةً واضحة البرهان

ثم ما ضرَّ بعض الاغنياء الذين يجمعون المال اكداساً فوق اكداس · ويخزن الواحد منهم دنانيره حتى تصير اكياساً على اكياس · فلا انفقها على نفسه فاستفاد منها ولا احسن بها على احد فافاد الناس · لو اجرى بعضها في سبيل الاعمال · واباحها موارد اشغال له وللعاملين وباباً للمكاسب والرزق الحلال · وشارك امثاله في نعمة الله عليه فاكسبهم ولم يخسر وكان له الفضل في كل حال

او لم يرَ الاغنياء عندنا ما صارت اليه حالة اوربا في هذه الايام وما نراه في اغنيائها وفقرائها عبرة لنا وذكرى بين فوضوية تثور · واشتراكية تدور · ونسف منازل كان الفقر من ناسفيها · واهلاك نفوس ذهبت شهيدة ظلم الاغنياء ويأس قاتليها · فان الفقر قد سرى في الدنيا حتى بلغ بها الى الدنايا · واليأس قد خامر قلوب رجالها حتى اصبحوا لا يهابون المنايا · فما نجد من مصيبة ولا خطب الا كان داعيها الفقر والفقر راس البلايا · فليتق الله من يمسك امواله في سبيل العامل الذليل · ولتكن في قلوب بعض الناس رحمة للمساكين واليتامى وابن السبيل · فانا نخاف ان تزيد اعمالهم فتجر الينا بلاء سوانا · وان تبرق في شرقنا صاعقة قنوط جديد وما عندنا قد كفانا · فان فضلة الغني لا تضره وتنفع الفقير نفعاً جللاً · ورحم الله عبداً علم فعمل والله لا يضيع اجر من احسن عملاً

الخادم والمخدوم

« له ايضاً »

متى ترى الرجل مطرقاً مهموماً يفكر في مستقبل ايامه. وحزيناً كئيباً يحسب لغده قبل عامه. ويحرص على صحته كما يحرص على راسماله. اذ لا مال له سواها وهو مع ذلك ينفقها عرقاً يسيل من ثنايا الجبين العابس ونوراً ينبعث من حدقة تلك العين الكليلة وفكراً تقسم بين عمله المندوب اليه بدافع المعيشة والاحتياج وبين عيلته المدفوع اليها بداعي الحنو والتسخير فقل هذا هو الخادم رب البيت والاولاد يعمل لطعام اليوم من شغل اليوم ويسأل السلامة للغد ليعمل في الغد ولا امل له من هذه الحياة الدنيا سوى مخدوم اوى اليه وعافية يستعين بها عليه وصبية صغار يرجو ان يقوى على قوتهم وسد حاجتهم قبل ان يرجو لهم بلوغ الشباب ويؤمل منهم النفع والاسعاف

ومتى رايت الرجل يمشي في الارض مرحاً ويختال في مشيته فرحاً ويرفع ابصاره الى العلاء كبراً قبل ان يرفعها لله شكراً ويدخل الى حانوته آمراً ناهياً يسخط على خادم لا يرضيه او يتظاهر بالغضب عليه لكي لا يطمع فيه او يدعي القلة والخسران لكي لا يزيد في راتبه ما يكفيه فقل هذا هو المخدوم — او البعض من امثاله — يحاسب على الدرهم ويخزن في الكيس ويعد مؤونة الدهر ويجمع لاخر الابد وقد انساه الغنى ان في الارض موتاً دائراً وقضاءً محتوماً وان وراءه خادماً عاملاً لا امل له بعد الله الا به ولا معوّل الا عليه ولا رجاء الا عنده ولا طمع بمستقبل العمر

والاستعانة على شدائد الدهر الا فيه وفي مكارم اخلاقه وقد لا يكون من اصحاب تلك الاخلاق كما يكون خادمه من اصحاب تلك الامال

نقول ذلك ولا نقصد به كل مخدوم على الاطلاق فان منهم الكريم تفيض نعمة الله عليه فيفيضها على من حواليه وتنبسط يد الخير لاسعافه فيسعف بها من يعيشون في اكنافه وصاحب الشفقة لاينام ويترك خادمه ساهراً ولا يقر له فكر ما دام فكر خادمه حائراً ولا يشعر انه وفى حق مولاه من الشكر الا اذا وفى خادمه ماله من الحق والاجر واولئك قوم يحق لهم فرض الثناء ولهم نصيبهم في الحياة الدنيا ولا يعدمون اجرهم في السماء ولكنا نريد بعض المخدومين الذين يحسبون الخادم عبداً ويجدون العامل رقيق الحاشية فيظنونه رقيقاً ثم يذهب بهم الوهم الى انه متاع ساقط في ايديهم وشيء صار الى ملكهم وآلة تهان في سبيل كرامتهم وتعمل من اجل راحتهم وتذل درجات لارتقاء معزتهم وهلم جراً مما يضيق دونه القرطاس . وتتلهب من حدة ذكره الصدور والانفاس . واغرب ما فيهم انهم لا يعرفون حق العامل ولا يقدرون قيمة العمل ولا يقرّون بواجب الاستحقاق ولا يعتبرون ان ذلك الخادم يستحق بعض ما يستحقون وان اعمالهم قائمة به عدا انه يتعب وانهم يستريحون بل تجد البعض منهم ياتيهم الطالب المحتاج للخدمة المضطر الى الكفاف وهو ذو العلم الوافر والادب الباهر والاصل الطيب والنفس العزيزة وانما للدهر دول تدول والايام احوال تحول فيتركون علمه في سبيل مسكنته ويغتفرون حاجتهم اليه في جنب حاجته اليهم ولا يزالون به حتى يرضى بالقليل في سبيل ما يطمعون . وحتى يقتنع من الاجرة بالدون وما هو ممن يستحقون الدون عدا عن تهديدهم اياه كل يوم بالعزل

وعن انهم يأخذون فضله منه ثم يقولون ان لهم عليه الفضل · وعن انهم يهينون نفسه ولا حق لهم الا على اعماله · ويذلونها بقوارص الكلام ولا ينبغي ان يرد عليهم كأنهم ليسوا بشرًا من امثاله

مهلاً بني الانسانية فان للانسان على الانسان حرمة · ورفقاً يا سادة الخدم فان الخدمة في شرع الكرام ذمة · واذا كنتم اولياء نعمة وفضل فاذكروا ان فوقكم ولي فضل ونعمة · وان كنتم تجدون ما نلتم جزاء خدمتكم لله فاعلموا ان للعاملين عندكم خدمة فانظروا الى خادمكم نظرة احسان ان لم تكن نظرة لما يستحق · واعرفوا انه يأخذ منكم اجرة عمل مثلاً بمثل وانه لم يكن عندكم عبد رق · ولا تغتنموا حاجته اليكم فرصة لاذلاله والجور عليه · ولا تبخسوه حقه وانتم تبصرون لانه محتاج اليكم وانتم غير محتاجين اليه · فان خير الناس من انعم عليه ربه فانعم على خدمه وخير الشاكرين عند الله من شكره باحسان يديه قبل ان يشكره بنطق فمه · وإلاّ اغنى الله عنكم اولئك الخادمين والعمال وانصرفوا من لدنكم كارهين وهم ينشدونكم بلسان الحال

سيغنيني الذي اغناك قبلي فلا فقري يدوم ولا غناكا

اعتلال القيصر

« له ايضاً »

اذا بالغ المتنبي في مديحه لامير حلب ابن حمدان فقال عند ذكر اعتلاله « اذا اعتل سيف الدولة اعتلت الارض » فقد جاءنا يوم نروي فيه قول هذا الشاعر بلا مبالغة ولا اغراق عند ذكر القيصر العظيم

ووصف ما اصاب الناس اجمع من مرضه واعتلاله · وحقاً لقد شغل هذا الملك الجليل بعلته اطراف البلاد · واحزن كل فؤاد ووردت عليه انباء مرضه كأنه يقتطع من كل فواد · فاضطربت باخباره اسلاك البرق كأنها ترجف من هوله ذعراً · ودعت له كل شفةٍ وجنان بالشفاء كانها تطلب بالدعاء لهُ اجراً · ورنت صدور المعابد بالصلاة تسأل الله قرب شفائه · واستوى في امره العدو والصديق فلا تسمع الا سائلاً عن حاله وداعياً بطول بقائه · ولا غرو فهو الملك الوالد يغار على ابنائه كرعيته ويغار على رعيته كابناء · وحريٌّ بمن احب سلامة الناس ان تحب الناس له السلامة وان يكون الدعاء خير جزائه

اعتل هذا القيصر فتواردت انباء البرق يزحم بعضها بعضاً بين واصفة احوال مرضه وخائفة من عقبى اعتلاله وذاكرة ما المّ باوربا كلها من القلق والخوف على حياته وكان اشد الناس تأثراً من امره · افراد اسرته والمطيفين به من رجاله وحاشية قصره · فقد وصلتنا الرسائل البرقية الاخيرة بما زاد القلوب حزناً عليه واسفاً من هذه المصيبة فيه اذ قد اشتد مرض ابنه حتى صار الى حالة النزع واليأس كأنه يكافيء اباه على اشتغاله به واعتلاله من اجله ومرضت القيصرة حزناً عليه واشتد عليها الداء كما انبأتنا اخبار اليوم واجهضت ابنته لعظم ما اصابها من الغم والاسف على ما صارت اليه حالة ذلك الوالد الجليل وعمّ المصاب رجال الاسرة المالكة كأنه يتطرق اليهم على مرض كبيرهم من كل سبيل حتى حسب الناس ان القيصر رأس هذه الاسرة حسياً لا معنوياً فقط وانهم اعضاء له بالفعل لا بالقول بدليل ما اصابهم من الامراض في اثر اعتلاله كأنهم اعضاؤه

تجري فيها دماء جسمه لا دماء القرابة · وكأنهم لصقوا بذلك الراس كما يتصل العضو بالعضو فصاروا يألمون لكل ألم فيه ويصيبهم كل ما اصابه · وهو نهاية الغرابة في وصلة المودة والقلوب ولكنه لا يعد مع مثل القيصر في شيء من الغرابة

ذلك وصف البعض من داء هذا الملك العظيم وما اصاب قلوب الناس من هول مرضه وسقامه ولم تكن الدول في سياستها ورجال الاعمال في اموالها باقل تاثراً من تلك القلوب ولا ادنى انفعالاً من هاتيك النفوس فقد نقلت الينا اخبار البرق وجرائد البريد ان القلق اصبح عاماً بين الممالك وان الخوف قد شمل رجال السياسة والاحكام فصاروا يحسبون لوقع المصاب كل حساب و يذهبون في شؤون السياسة كل مذهب بين قائل ان سياسة الروسية لا تتغير وان ما جرى عليه الوالد سيجري عليه الولد اذا نفذ في ذلك الراس حكم المقدور لا سمح الله وقائل ان الامر على عكس ذلك وان لكل ملك سياسة ولكل دولة رجالاً وهو مذهب بعيد لا نظنه يخال ولكنه يقال · واضطربت رجال الاموال في متاجرها فاهتزت المصارف وتقلبت الاوراق المالية وقلقت الندوات التجاريـة وذهبت الاثمان في قراطيسها ومبيعاتها من كل مكان واصبحت اوربا و كل قطر متمدن في شغل شاغل من امر هذا الداء الذي اصاب كل بلاد في فؤادها وغدت الروسية من بينها في همٍّ دائم كأن اعتلال قيصرها قد رمى كل فؤاد في بلادها وليس ذلك بكثير على ملك ضبط سلام اوربا في يديه · ووقف بين ملوكها حكماً فما يرجع لدولها امر الا اليه · وخالف سنة ابائه من قبل فلم يثر على دولتنا ولا غيرها حرباً ومنع عن اوروبا مصاب حرب

كانت تعدُّ على التمدن باسره خطباً · وتقرب الى ملوك الدنيا بحسن صفاته فما تجد الا راضياً · واحبته شعوب الارض قاطبة فما تلقى في سقامه الا داعياً · فنحن نشارك الداعين له بالسلامة من كل مكان · فقد اشترك بالدعاء له منهم كل لسان · حتى صار يحق ان يشاركهم فيه هذا اللسان

ملجأ الفقراء

« له ايضاً »

نستميح الكبار من قومنا عند هذا العنوان عذراً جميلاً · ونتنازل بهم عن شوامخ قصورهم شيئاً وعن اعراش كرامتهم قليلاً · ونمازج مسرات اعيادهم بما لا يصادف عند البعض من افرادهم قبولاً · ونجعل رنة الاحسان في آذانهم تلو رنات الالحان وان لم تكن عنها في مجال السرور بديلاً · فان النفس اذا خشعت في عنفوان ابتهاجها كان خشوعها فضلاً جليلاً · وقد سنَّ الله الرحمة في كل كتاب كريم ولن تجد لسنة الله تبديلاً · ثم نستلفت الانظار الى مكان تتهيب لمرآه النفوس · بل الى قصر تنخفض لدى عتبة داره عوالي الرؤوس · بل الى سماء افاض الله عليها من جلال مهابته وكساها من نعمة روحه القدوس · وليست هي بالمكان الذي تحف بجدرانه انواع الهناء · ولا بالقصر الذي تزينه النعمة السابغة وتبهر زائرهُ الزخارف والاضواء · ولا بالسماء التي يقر فيها النعيم الدائم وتصدر عنها السعادة والنعماء · ولكنها المقام الحقير العظيم والوضيع الرفيع والاكمد الزاهر اي انها ملجأ الفقراء

ذلك هو المكان الصغير الذي سمع به اكثر سكان القطر ولم يزره

الاّ النزر اليسير من ارباب الميسرة والفضل في هذا الثغر قائم الى جانب الكنيسة الارمنية في الثغر لبانيه الورع التقي المسيو رودولوف رفعه من مال الاحسان · وبناه من مبرات اولي المبرة والحنان · وجعله مضيفاً لكل فقير جائع وموردًا لكل غريب ظمآن · وكتب على انفس زائريه من الفقراء آية مراحم الانسان على الانسان · هنالك تجد خيال الفقر ساقطاً تحت اقدام ملاك الشفقة والرحمة وتبصر يأس الفقير المحتاج نائماً ترفرف فوقه اجنحة الرجاء والنعمة · وترى الدار التي ساوي مقام احتياجها مقام الامير في سلطانه · وتعلم ان الغني لا ينال اجر البائس الفقير الاّ اذا شاركه في احزانه وقاسمه شطر احسانه · وتدرك ان سلطان العوز في حضيض رحمته اعظم من سلطان الغني في رفعة شأنه · وهنالك تجد دارًا قوراء زينتها نظافة الايمان · وجياعاً معوزين جالسين صفوفاً على ذلك الخوان · ويدًا محسنة توزع عليهم قوت النهار كما وزعته عليها نعمة الرحمان · وقد وقف الاحسان لخدمة الفقير فلا تجد حولك الا خدمة · ودارت الرحمة برغيف الجائع وسرير المريض فلا تبصر الا رحمة · وتجلت نعمة الله على ايدي عبيده الامناء المحسنين فلا تقع العين الا على نعمة · ونعم العمل يقرض به المحسن الله ويفي به المتبرع حق الذمة

ذلك هو المكان من وضع في بنائه حجرًا فقد وضع جوهرة كريمة في تاج المدنية · وهذا هو المقام من احسن على اصحابه بدرهم فقد علق اعظم وسام من الشرف على صدر الانسانية · وتلك هي الدار من بذل على بابها حسنة فقد بنى مثلها في الاخرة · وذلك هو الاحسان الصحيح على المستحقين من ابنائه ومن يصنع مثقال ذرة خيرًا يره · فالى اغنياء

البلاد ترفع هذه الحالة عن لسان الفقير في هذا اللسان · ومن اكف اولي البرنسطو الزينة والجود من كل مكان الى هذا المكان · بلا فرق في مذهب ولا دين عنده اذ هو لا يفرق بين المذاهب والاديان · وحيث اجتمعت اصناف الانسان على احتياج فهناك يليق ان تجتمع الشفقة من اصناف الانسان · فقل للذي كانت تمطر كفه امس فضة وذهباً · والذي كان يقطع ليله بين القمار والاقمار لهواً ولعباً · والذي خرج مسروراً ينادي واطربا من الكسب او خرج كئيباً ينادي من الخسران واحربا · رويدك بعض هذا المال الذاهب في غير طريقه · وحنانيك بعض هذا الجود النافق في غير سوقه · على قوم يرون ما تاتيه من قليل الاحسان وهو الخير الجزيل · وقيل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل

وعود الكبار صغار الوعود

« له ايضاً »

الوعد شرف الانسان باسره ومقامه ووداده وحرمة شخصه واعتبار نفسه يلقيها كلها من طرف لسانه بين يدي من يعده حبلاً يجاذبه به ودينا يتقاضاه اياه وذمة يطالبه بها صداقة يمتّ بها اليه وحرمة ينظر اليه من خلالها فاذا وفى بما وعد صان منزلته وحفظ مقامه وايّد الصداقة بينه وبين غريمه واخلص الذمة بينه وبين شرفه ونفسه واذا اخلف وماطل سقطت حرمته وتعب ضميره وعادى من كان صديقه بلا موجب ولا سبب · سوى كلمة يتناولها منه ذلك الصديق كما يتناول الباب الفعل واعتمد عليها

كما يعتمد على ركن الحقيقة والعمل ثم لم يجد الا كلاماً ولم تصادف امانيه الا هباءً منثوراً وضاعت كل آماله وجميع ما بناه عبثاً باطلاً فاصبح ذا حق بالشكوى من صديقه والعداوة لواعده وهو معذور غير ملوم وعثرات الامال ليست بسهلة

وقد دعتنا الحالة الى تسطير هذه المقدمة والدخول في هذا الموضوع الذي هو وان كان شخصياً فقد اصبح اليوم عاماً شائعاً يتناول جميع افراد الناس على السواء ونخص منهم بالذكر . . . . الذين وجدنا اضرار وعودهم واخلافهم اشد من غيرها عاقبة واعظم تأثيراً وهم الذين نقصدهم على الخصوص في هذه العجالة وان كانت نتناول سواهم ايضاً ولكن المهم المقدم واحق الناس بالوفاء اولاهم بالتنديد والملام

ذلك اننا وجدنا البعض من ذوي المراتب العالية والمكانة السامية والاعمال الطائلة الذين وضعتهم ايدي الاقدار او الاجتهاد وعوامل الاسباب او الاستحقاق في تلك المناصب العظيمة يجيئهم الرجل المحتاج من اواسط الناس ذوي الحاجة والعوز يسالهم وساطة في وظيفة او سعياً في عمالة يحصل منها رزق اليوم وينفق فيها عرق الجبين فيجبونه بالايجاب السريع والوعد العاجل ويضربون له اجل الوفاء لمقاضاة الوعد فيذهب فرحاً مسروراً يبني من الوهم قصوراً ومن الاماني ابراجاً ويفتح من طرق المعيشة والراحة ابواباً مفاتيحها المزاعم واقفالها المواعيد حتى يجيء يوم الوفاء الموعود فيذهب الى واعده مؤملاً راجياً فلا يجد الا اعذاراً ملفقة ومماطلة كاذبة او وعوداً جديدة الى الغد او ما بعده فيذهب ثم ياتي ثم يعود كما يعود اول مرة

وفاؤه المطل وقضاء وعوده الاباطيل والتسويف وتدرج على ذلك الايام وتمرُّ الليالي وينقضي الشهر ويتلوه العام والرجل يمضي ويأتي ويروح ويرجع والوعد خيال باطل نصب عينيه والفقر حقيقة محسوسة يشعر بها في يديه وبين جنبيه ولا هو ذو امل فيرجو ولا ذو يأس فيسلو واولاده بين ذلك يتعالمون بمواعيده على بساط الحاجة والجوع وهو يتعلل بمواعيد سواه من كبار القوم واعيان الموظفين على بساط الخيبة والحرمان الى ان يقضي الله في يأسه امراً او يجد بعد العسر يسراً او تكاد روحه تبلغ التراق

فما ضر اعيان رجالنا اصحاب المواعيد الطويلة والمطل المستمر لو اوقفوا هذا الموعود على حد معلوم اما رابحاً او محروماً واما امساك بمعروف او تسريح باحسان فقضوا له حاجته على فورها او في غدها او في اوان ميعادها او قالوا له لا نصيب لك عندنا ولا قدرة لنا على منفعة لك فانطلق بسلام أليس ذلك اولى من ان يتقاذفوا ذلك البائس المسكين بين الذهاب والاياب والامل والياس والتعطيل والمطل وقضاء الايام على وعود فارغة وحاجة ملآنة واماني باطلة يكسب من بعدها حرقة الخيبة ويكسبون منها دعاء الخائب المظلوم وسوء السمعة وتبكيت الضمير وضياع الشرف وحرمة الاعتبار . ألا يذكر بعض رجالنا ما جرى من اشهر على يد ذلك الموظف المسكين الذي طالت وعوده وقصر وفاؤه حتى ارسل يتهدد احد الوزراء عندنا بالقتل و يجهر بالفوضوية في هذه البلاد التي لا اثر فيها لهذا الداء ولا دافع بابنائها اليه . أيفضلون ان يبيعوا شرف نفوسهم وعزة ضمائرهم وماء وجوههم وصداقة قلوبهم بكلمة مقولة ووعد غير محتوم ولا هم مطالبون به ولا مضطرون اليه على كلمة صرف وحرمان يقف بها الطالب على حقيقة

امره ويعرف مصير حكايته ويقصد بعدها سواهم من ذوي معرفته واسعافه فاما ان ينال منهم غايته واما ان يقطع آماله ويلقي اتكاله على الله

ذلك موضوع اقترحه علينا بعضهم وهو في الحقيقة مقترح الجميع ومطلب الكل نبسطه لاصحاب الوعود عسى ان يصادف منهم قلوباً واعية ونفوساً رقيقة تتأثر لمصاب الناس وتعرف ما يلاقي الموعود من مرارة الخيبة والفشل بعد طول المواعيد فيعدلوا عن هذه الخطة الى كلمة صدق هي بهم اولى او وفاء وعد هم به احرى والسلام

خمول الادب

« له ايضاً »

لم يأتِ على الشرق عصر خمل فيه الادب وماتت همم الادباء وفترت نفوس الكتاب مثل هذا العصر الذي صرنا اليه ونحن نتعلل فيه بالتقدم والارتقاء علالة الظمآن بالسراب وما ندري أذلك اخر ما وصلنا اليه من درجات الحطة والخمول ثم نهبُّ بعدها الى نهضة العلم وتحصيل ذروة الادب والكمال ام نحن لا نزال في طريق الهبوط والانحطاط حتى ياتي يوم تخمد فيه جمرة الادب فتصير رماداً . وتتكسر رؤس الاقلام حزناً واسفاً فتسود لها وجوه الاوراق حداداً . ومهما يكن من امر نهايتنا في الخمول والامل بالارتقاء او مصيرنا الى الدرك الاسفل في عالم الكتابة والانشاء فان حالتنا الحاضرة من حيث الاداب وضياعها وفتور الهمم وقوانيها وانحطاط اقدار العلم وابتذالها ولا سيما في هذه المدنية الشرقية الزاهرة التي نسميها عروس الشرق ومنتدى ابناء الفضل انما هي حالة تدمع

لها عين المدنية ويرثي لها قلب الانسانية ويحق ان تبكي لها مقلة الامة العربية بل هي حالة لو انصفها القلم لصرف مداده دموعاً في بكائها ولو انصفتها الاوراق لشقت جيوبها اسفاً في ندبها ورثائها. ولو عدل معها اولو الاقلام لخطوا ضريحها برؤس الاقلام ولو عرفتها الايام لاجفلت من حلولها الايام. ولو ادرك ابناؤها سوء مصيرها لقالوا تلك ايامنا عليها السلام

لا غروَ ان الادب قد تهدم بنيانه. والعلم قد ذبلت اغصانه. ولغة البلاد قد ضاع مقدارها. واثار السلف قد ندر انصارها. ولا تطلب على ذلك برهاناً فهو ملء العيون والمسامع والاكباد. وانما نحن قوم ضللنا عن مجد آبائنا الاولين ومن يضلل الله فما له من هاد. ترى الاديب منا يبذل جهده ويحيي ليله وينفق من قلبه ويجني على نفسه ليؤلف كتاباً مفيداً او يضع رواية نافعة ثم يحمل بعد ذلك على نفسه وينقص من حظ معاشه ويجور على الشيء القليل من ماله وقد يكون ذا بيت وعيال فينقص من واجب بيته وعياله ويطبع ذلك الكتاب برمق العيش ومشقة الجهد وفضلة الاقتصاد وثمالة التوفير املاً بربح قليل يناله او تعويض نفقات قليلة يستر بها ما ثلمه من جوانب حاله ومعاشه او نيل شهرة ادبية تسعفه على دهره او تذيع خامل قدره او تكسبه كلمة ثناء في حياته او عبارة رحمة واسف بعد مماته فيجد ان آماله قد ذهبت في طريق امواله. وان تعويض امواله ابعد مدى من نيل اماله. وانه لم ينل من تعبه غير السهر. وادمان الفكر. واتعاب القلب والبصر. فلا مال وصل اليه ولا كتاب طلب منه ولا شهرة ذاعت عنه ولا اجرة حصلها ولا كلمة ثناء سمعها ولا احد اهتم بكتابه ولا لسان لهج بآدابه الا نزراً يسيراً اشتروا من كتابه عدداً معدوداً لا يسد

خصاصة ولا يعيض خسارة و بقيت سائر النسخ تحت رحمة العنكبوت يجالها · والارَضة تحللها · واسف صاحبها يكالمها · اكواماً مكردسة لا تغني فتيلاً · ولا تروي غليلاً · ولا يجد الى تصريفها سبيلاً · وقد اصبحت على صاحبها ثقلاً على اثقاله وشغلت من منزله الضيق مكاناً كان اولى بواحد من عياله

بل ترى الكاتب النحرير والمنشىء البليغ تخطر له المقالة الرنانة والرسالة البديعة في المعنى النادر والبحث المفيد فيتناول القلم لتسطيرها ويجيل فكره في اجادة تحريرها ويكاد يهيم في كتابتها ويوطن النفس على عناء انشائها ثم تتمثل له حالة بلادنا الادبية وهبوط العلم فيها وخمول الادب بين ابنائها وضياع اقدار الاقلام في نواديها واعراض الحكومة والنـاس عن الالتفات اليها والاخذ بناصر المتقن لها او الاقرار فقط بفضل المجيد فيها ويرى ان التعب ضائع والاجادة مجهولة والاجتهاد مبخوس حقه ومنزلة الكتابة خامل مقدارها الا في طائفة قليلة المدد بصيرة العين قاصرة اليد فيرمي القلم جانباً اذا كان يكتب مختاراً · او يرمي الكلام على عواهنه اذا كان يحرر اضطراراً · وقد خفي بذلك فضل اجتهاده وذهبت حلاوة كلامه · وخسر القراء الادباء ما كانوا يرجونه من حسن معانيه ونفثات اقلامه · وتلك حالنا اليها الكتّاب في هذا العصر فلا تجهدوا خواطركم · وهذا مبلغ الادب في الشرق فلا ترموا جواهركم

وليس اللوم في ذلك على افراد الامة فقط والسواد الاعظم من ابنائها بل هو اللوم كل اللوم على كبارها الذين تهاونوا في امر لغتهم وعفت رسوم الادب والذوق السليم مدارسهم والغت طرائق الانشاء والكتابة

الصحيحة من مكاتبهم بل هو اللوم على الاجانب الذين تولوا معارفنا فلم يراعوا جانب البلاد ولا حفظوا حق الامة ولا تسامحوا في نشر اللغة الوطنية حتى صرفوا كل جهدهم الى نشر لغاتهم الغربية فصرفوا اليها جهد الطلبة واميالهم وانصرف ابناؤنا معهم فساعدوهم على بغيتهم وآزروهم في الاستمساك بالسنتهم بل انصرف وجهاؤنا يجمعون المال من فلان وفلان لمساعدة اقوام لا يكون معرفتهم للجميل الا النكران وهم لو انشأوا بمبلغ تلك الاعانة مدرسة واحدة جامعة لساعدوا على تقدم الامة ونالوا ثناء الاوطان

الحرب (1)

« له ايضاً »

انظر الى ساحة اومضت في سماء قتامها بروق الصوارم · وجرت في جوانبها سيول الدماء يسكبها سحاب الجماجم · ودوى فوقها رعد المدافع يصب صواعق كراته على الاجسام · وعصفت بها ريح المنية فما يطير لها غبار الا من السواعد والهام · وامتقعت الشمس من مرأى الارض فغطت وجهها بنقاب من الدخان · واحمرت الارض من مظالم ابنائها خجلا فاذا هي وردة كالدهان · وانف الغبار ان تدوسه قدم الانسان الظالم فارتفع استكبارا على هامة الانسان · ودارت خمرة الموت على شفرات السيوف فتساقتها النفوس · وتمشت سكرة القسوة في ايدي الضاربين فما تطلب مقيلاً غير الرؤوس · وطارت قلوب العسكرين شعاعاً فتلتها العيون حيارى

(١) راجع وصف الحرب لسليم البستاني وجه ١١٥ ولاديب وجه ١١٩ وللمرّاش وجه ١٥٢ من المجلد الاول

وطاشت عقول الجيش التياعاً فترى الناس سكارى وما هم بسكارى · واستحال القلب حديداً فما تدخله رحمة ولا حنان · وعاد الانسان حيواناً ضارياً فما يرده اخاء ولا احسان · وصمت الاذان عن صوت الانسانية فما تسمع لغة ولا تفهم بلسان · الاضربا دراكاً يطير الهام عن اعناقه · ورصاصاً فتاكاً يدخل بين الفواد واشواقه · ونارا حامية تصلي الوجوه حجارة وحديداً · وصواعق نسافة تغادر الصف هباء والرجال حصيداً · وقد ذهل الخليل عن خليله فما يرى الا دماً يسفكه عامداً · واشتغل المحب عن محبوبه فما يجد الا قتيلاً يدوسه جاهداً · وثارت الخيل غائرة ترسم سنابكها على الجباه والصدور · وتردت فرسانها ساقطة فاحتملتها العقبان والنسور · ورفرف ملاك الموت على القلب والجناحين فماتت تحته الخوافي والقوادم · ونادى منادي البين على العسكرين لا مانع لكم اليوم من امر الله ولا عاصم · وتصوركم هنالك من جراح دامية وكبد حرى · وكم ساقط خضيب يضم على جنبه يداً ويودع بالاخرى · وكم صريع رمته الايدي فاجهزت عليه الاقدام · وكم جريح كفنت جسمه الدماء ثم دفنته اكداس الاجسام · وكم فواد حيل بينه وبين اماله فهو يئن حسرة وندماً · وكم عين يئست من لقاء اوطانها فهي تبكي ادمعاً ودماً · تصور كل هذا الهول يجري وكل ذلك الويل يتجسم · واعتبر ان كل ما رسم على صفحة القرطاس لا بد ان يجري على صفحة الارض ويرسم · ثم ادخل في هذا المعترك نذيراً وقف بين الجمعين خطيباً وتكلم

« ننقل الكلام الاتي من قصيدة لفيكتور هيكو الشاعر الفرنساوي الشهير »

ايها الانسان الواقف في وجه اخيك انت السهم وانت الوتر فمن الذي

يرميك وما هو الساعد الذي ينزع فيك وما بال هولاء القوم يذبح بعضهم بعضاً وهم لا يعقلون وانتم ايها الجند باي حق تحملون السيوف وماذا تصنعون هنا وما هذا الصياح وما هذه المدافع اي بني الانسان انتم احقر من ذبابة واجهل من نملة مالي اراكم اشد من الاسود بطشاً واقداماً وبامر من انتم هكذا ولاجل من تتقاتلون . الا تعلمون ان ليس لكم الا حق واحد وهو ان تحبوا بعضكم بعضاً وليس لكم من ربكم الا امر واحد وهو ان تنموا وتكثروا وتعمروا الارض فما بالكم تعكسون الاية وما بالكم لا تطيعون

وانتم ايها الملوك انكم تلتفتون حواليكم فلا ترون الا ارضاً تريدون امتلاكها ومدناً تطمعون في اخذها وافتتاحها ومجداً تزعمون انكم تنالونه في انتصاركم ومطامع هي اخلاق الذئاب يعدو الفريق منها على الفريق ويفترس الذئب منها اخاه . وانا التفت يمنة و يسارا فلا ابصر الا امهات تبكي اولادها . وقلوباً تندب امالها . وارضاً مقفرة من عمالها وعيوناً غائرة تحت دموعها وحداداً منشوراً على اطلالها . وحياة هاربة من ابدانها . وشعوباً يلعب رجالها بالموت لعب الاطفال وهم لا يشعرون

وانتم ايها الجند الذين تسمعون . ما بالكم تبصرون ولا تعون أتكونون العدد والقوة والراس والساعد والاصل والقشر واللباب والاغصان والاثمار والاوراق بل شجرة العالم باسرها وتكون الدنيا كلها لكم لانكم كلكم لها وتكونون جبابرة الله ونوع الانسان والعامل الاكبر في عمران الاكوان ثم تقدمون على مثل هذا الذل وانتم تعلمون . وتضعون ايديكم في قيد طفل صغير هو واحد منكم اتكونون كل هذا ثم تفعلون هذا . اذن فالمستحيل موجود وقد اصبحنا نراه رأي العيون

اوإذا قام ملك فاهان ملكاً او غضب امير على امير تجمعون انتم انفسكم وتحشدون اعدادكم وتعدون سلاحكم ويلتقي بعضكم ببعض في هذا السهل وانتم لا تعلمون لماذا بل انتم لا تعرفون الامير الذي تحاربون من اجله · ولا تعرفون اخاكم الذي تسعون الى قتله · ولا يعلم الواحد منكم ايكون هو القاتل ام هو المقتول في هذا المعترك الهائل بل هـذه المظلمة الشنعاء يا عجباً للشعب يكون الكل في الكل وهو القوي القادر الآمر كيف يرضى بهذه المظالم الوحشية وكيف يقبل ان يساق الى القتال سوقاً بالعصي واخذاً بالاعناق لوهم باطل يقال له الملك وظل زائل يقال له النصر يتنعم به رجل فرد في قصره و يجنيه له الوف من بني الانسان بأثمان الارواح والدماء اليس هذا هو الخسران المبين · حاشا الله ان يكون المرء عاقلاً قادراً مجتمعاً مخلوقاً على مثال الله في رفقه وحنانه ثم يقدم على قتل اخيه بيديه ويهدم الكون الذي اقامه الله لبنائه و يتصور نفسه قهر جموعاً من امثاله وهو لا يفطن انه رهن رجل واحد وان يـداً واحدة قد قهرته باسره وقادته الى الموت عنفاً وقسوة لمطمع من مطامعها وتركت خلفه اولاداً يصبحون من بعده يتامى · ونساء يصبحن ثكلى وايامى · وعيوناً باكية يحجبها الدمع عن النظر وقلوباً مفطرة جنى عليها الفرد المالك وهي تعاتب القدر · حقاً ان ذلك لما تذوب له الاكباد حزناً واسفاً · و يكاد يثير سخط الخالق على ارضه فيجعلها قاعاً صفصفاً · وما الله بغافل عما يعملون

الوطنية

« له ايضاً »

« راجع وجه ٩٤ و١٠١ من المجلد الاول »

هي الوطنية حتى تتحد القلوب قلباً واحداً فلا تفصل بينها الاهوآء وحتى تجتمع الايدي على رفعة الوطن وعلائه كما تجتمع احجار البناء · وحتى لا يجري في الدماء حب سواها ولو جرت في سبيلها تلك الدماء · بل هي الوطنية حتى لا يكون للمرء حقيقة غيرها و يكون كل ما عداها غروراً · وهي الوطنية تقدح في القلوب نارا و يكون للعينين نورا بل هي حب الوطن حتى يحبه المرء اكثر من اولاده · لانه يقدران يحب مع اولاده سواهم ولا يقدر اذا كان صادق الوطنية ان يحب غير بلاده · ولقد خلق الله للانسان مكاناً في الارض قبل ان سوّاه انساناً ثم جعل فيه حب ذلك المكان طبعاً غريزياً بل جعل له ذلك الحب ايماناً ولا بدع فانما هو الحب الصحيح لاول هواء تنشق منه نسيم الحياة والميل الغريزي لاول ارض وقعت عليها ابصاره واول ملعب مرحت فيه جياد صباه بل هو الانس باول منظر من مناظر الدنيا تجلى لابصاره والتمتع باول زهرة من زهرات عمره تفتحت بين رياضه وازهاره واول حلاوات الصداقة والالفة التي يتفتح لها جناح القلب كما تتفتح الوردة لندى السماء واول لذاذات الصبابة والوجد تلقيها مقلة الحسناء شقاء فلا يرى بها القلب الا تباشير الهناء · فيحب ذلك الوطن كله لان تلك الحسناء مقيمة تحت سمائه · ويجد هوآءه مقدسا عزيزا لانها تنشق معه نسيم هوائه · و يستعذب ماءه ونضرة ازهاره لانها تجني زهره وتشرب من مائه · بل يحسب ان الوطن

هو الدنيا لانه جمع اماله واماني قلبه · و يراه جنة النعيم القصيا لانه انبت له اول زهرة من زهرات حبه · فهناك اول ما عرف بهجة الحياة والوجدان واول ما ذاق لذة الالفة وصحبة الاخوان واول ما طمحت ابصار اماله الى ادراك اسرار الاكوان · بل هناك اول ما تنبهت ابصاره الى ما يرق حولها من ثغور الحسان · وهناك اول ما تحرك قلبه تحت عوامل الصبابة والحب واول ما رمت فواده عينان · فانثنى وهو يقول ليس الانسان الا بالاوطان · وليس الوطن الا المحبة والاخلاص وحب الوطن من الايمان

والوطنية في عرف العقل قسمان قسم يقوم بسفك الدماء و بذل الاموال في صيانة الوطن من العدو وانقاذه من ايـدي الطامعين و بيع الارواح جزافاً في سبيل حفظه واستقلاله وهو الذي به تثور الحروب لصد الغارات عنه وتسفك الدماء لمنع الفاتحين عن دخوله واحتلاله ثم تبذل الاموال الطائلة و يباع كل مرتخص وغال لاخراجهم منه وجلائهم عنه اذا دخلوه عنوة واحتلوه اغتصاباً كما فعلت فرنسا في كلا الامرين بعد محاربتها للالمان وانتصارهم عليها بدخول باريز واحتلال البلاد · وقسم يقتصر على بذل الاموال وصرف العناية والجهد وتاليف القلوب وعقد الايدي على اصلاح الوطن ورفعة شأنه وتقدم ابنائه الى سائر ما يتبع ذلك من موجبات تمدنه وعمرانه كما هو المأثور عن شعوب المغرب في خدمتهم لبلادهم واجتهادهم في تعزيز اوطانهم ونشر المعارف والصنائع بين ابنائهم وافرادهم مما كان ينبغي لنا ان نقتدي بهم فيه ونجعلهم مثالاً لنا عليه

ولقد اصبحت مصر في عهدها الحاضر بين هذين القسمين من الوطنية يتنازعانها من كل جانب اولها ما يلزمها من جلاء الاحتلال عن بلادها مما

لا تزال تشكو منه وثانياً ما لا يزال ينقصها من لوازم التقدم والارتقاء وهو ما لا يزال يشكى من تهاملها فيه وابطائها عنه · اما الوطنية الاولى وهي جلاء الاجنبي عن البلاد وما قدمناه له من وجوب سفك الدماء والمخاطرة بالارواح فانا نرى مصر معذورة فيه لانها لا تقدر عليه وليس في وسع رجالها ان يقوموا به بل قد يكون الاقدام عليه من باب التغرير بالنفس والخرق في الرأي بما قد يجر ذلك من الفشل على القائمين به وما قد يتبعه من البلايا الجديدة التي يستفحل بها الخطب على البلاد وتزيد في طين مصائبها بلة وفي طنبور شكواها نغمة وهو ما لا نظنه يخطر للعقلاء و يرضى به اولو الالباب

بقي الوطنية الثانية وهي ترقية الوطن ورفعة شأنه وتمهيد السبل والاسباب لكماله وعمرانه وهذا الذي يمكن الكلام فيه ويمكن الاقدام عليه والاخذ باطرافه بل هذا لا يبعد اذا سعينا فيه واكملناه ان يكون مقدمة لقسم الوطنية الثاني الذي نراه الان عزيز المنال وقد يصبح غداً مع عمران البلاد وتمدنها وتعلم اهلها من اقرب الاماني والامال بل قد نناله عفواً مجاناً من يد العلم والمدنية دون ان نحتاج فيه الى منازلة او قتال · لان العلم وجهل الاستبداد لا يجتمعان والمدنية ووحشية الاستعباد لا يأتلفان وهل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور

فعلى ابناء الوطن ان عزهم الشطر الاول من الوطنية ان يأخذوا في اسباب الشطر الثاني و يعلقوا آمالهم عليه و يقفوا مساعيهم له فيتحدوا يداً واحدة على خدمة البلاد وقلباً واحداً على رفع شان الامة واعلاء منار المعارف والاداب وبث فوائد الصنائع والمعامل ومنافع الاختراعات

والمشارع وكل ذلك سهل هين اذا اتحدت القلوب والاميال واعتصمت النفوس بثياب العزائم ونهضات الاعمال ويد الله مع المجتمعين وهو وليُّ الاماني ومحقق الامال

الزهرة

« الشيخ ابرهيم اليازجي »

« عن مجلة الضياء السنة الاولى »

«راجع « القمر» له ايضاً في المجاني ـ المجلد الاول ص١٨١ »

هي ملك جند الدُجى بل قائد معسكر الانوار بل الاهة الجمال قد استوت على عرشٍ من النضار اذا برزت في ثوب بهآئها فا كفهرَّت لها الشمس من الحسد · بل غشيتها حمرة الخجل بعد ما علتها صفرة الكمد فاقبل الهلال وقد انحنى بين يديها وسجد واطافت بها حُور الكواكب كانهنّ اترابٌ كواعب فوقفنَ لخدمتها متضائلاتٍ امام عظمة جلالها وقد ارخينَ شعورهنّ من حولها فشببنَ من جمالها فما كادت تنجلي لهنّ حيناً حتى توارت عنهنّ بالحجاب وسرنَ في اثرها متتابعاتٍ حتى برقعنّ الصبح بابيض الجلباب

***

واذا رأيتها بارزةً في طليعة الكواكب وقد تجلت في فلكها حين لا يبدو طالعٌ ولا غارب فاستلت من الهلال سيفاً استقبلت به نحر الظلماء ثم نادت في جيشها فاذا به قد طبق نواحي السما فبرز الرامي فأوتر قوسه

وانتصب للنضال ووضع الجبار يده على سيفه ونادى يا للنزال واشرع السماك رمحه فخفق له فؤاد العذراء واطلق المريخ سهمه فاذا هو مضرّجٌ بالدماء وتتابع سائر الجيش بسلاحه فلا ترى الا وميضاً وبريقاً واسنةً قد غاصت في كبد الدجنة فمزّقتها تمزيقاً ثما اقبل جيش الصباح الا والافق مخضوبٌ بدم الدجى وقد بلغ سيله الرُبى بل جاوز الرُبى

***

واذا شخصت اليها العيون من اطراف الارض فاتصلت اهدابها بأشعتها حتى كأن بعضاً معقودٌ ببعض . واجتذبت اليها القلوب فطارت نحوها باجنحة الصبابة والهيام وصبَت اليها الارواح فامتزجت بروحانيتها امتزاج الماء بالمدام فاوحت اليها من اسرار الحب ما شغلها عن معرفة نفسها بعد ما تجلى لها من معاني الجمال ما ارتفعت به عن مقام حسّها فاذا هي عاشقة لكل ما يبدو لها من محاسن الصور وقد بثّت فيهـا من عوامل الفتنة ما يستعبد القلب والنظر فهي التي كحلت الجفون بالفتور وخلعت النحول على الخصور وزيّنت السوالف بالجَيَد ووشّحت المعاطف بالمَلَد وأودعت الاحداق سحر الدعج وبلجت الثغور بضوء الفلج بل هي التي امرت القلوب بطاعة النواظر واغرت العقول بمعاصاة النصيح والزاجر وجمعت بين الجفون والسهاد وحببت السقم الى الاجساد وجعلت الحب وسيلة التآلف حتى بين دقائق الجماد

***

تلك الاهة الجمال التي عبدها الاوائل واقاموا لها المساجد والهيا كل ورفعوا اليها الابصار والقلوب في أخريات الليل وقبيل الغروب . فكانت

مناط الامال ومصعد الابتهال ومستودع نجوى العاشق واسرار الابكار العوانق اذا رقبنَ ظهورهـا تحت اذيال الديجور نخلونَ اليها يكاشفنها بمكنونات الصدور ويستمحنها الخيرة في الالهام والحظوة في عيني من شئن من الانام اماني تخترق الفضاء وتسافر بين الارض والسماء فتنزل مكانها طمأنينة الاتكال بين حرارة الرغبة وبرد الامال

***

لا جرم انه اذا كان بعد الشمس والقمر نجمٌ حري بالعبادة فاحرى النجوم بذلك الزهرة لما انها اعظم الكواكب نوراً واصفاهنّ شعاعاً لا يدانيها في ذلك الا المشتري والشعرى اليمانية بيد انهما اذا قوبلا بها عن كثب كسفت بهائهما بتألق شعاعها ولا سيما عند معظم نورها فانها تظهر حينئذٍ والشمس في كبد السماء . وقد عبدها جميع امم الارض قديماً حتى لا تكاد نبحث في تاريخ أمة الا تجد لتلك العبادة اثاراً في مسطوراتها ومخلّفاتها من هياكل وتماثيل وغيرها وممن عبدها العرب وكان لهـا معبد بصنعاء اليمن وهو قصر غُمدان المشهور بناه على اسمها الضحاك ولبث بيت عبادة لها حتى هدمه عثمان بن عفان

والزهرة ولا شك اول كوكب عرف من السيارة لسرعة حركتها في فلكها بحيث انها لا تثبت مدة اسبوعين في موضع واحد من السماء . وهي تكون تارةً نجم مساء وتارةً نجم صباح تبعاً لموضعها من الشمس لانها اذا كانت الى شرقي الشمس ظهرت بعد مغيبها في الافق الغربي فكانت نجم مساء وهي تظهر اولاً لمحة ثم ترتفع يوماً بعد يوم حتى يبلغ معظم ارتفاعها ٤٨ درجة وحينئذ تلبث فوق الافق ما يزيد على اربع ساعات وبعد

ذلك تعود فتنزل كما ارتفعت حتى تمر من امام الشمس فتبرز من غربيها وتظهر قبلها في الافق الشرقي فتكون نجم صباح وتستمر في الشرق كذلك ثم تعود فتبرز من وراء الشمس في الافق الغربي وهلم جرًّا

وكانت الزهرة قديمًا كبقية اخواتها من السيارة تعتبر مضيئة بذاتها لانهم لم يروا تغيرًا في منظرها فكانت عندهم في حد سائر النجوم الثوابت واول من خالفهم في ذلك كوبرنيكس الفلكي المشهور من رجال القرن السادس عشر فانه لما بدّل هيئة النظام البطليموسي جزم بان السيارات ينبغي ان تكون كرات مظلمة كالارض وان ما ترسله الينا من النور انما هو منعكس عن اشعة الشمس · فاعترض عليه بانه لو كان الامر كذلك للزم ان يظهر كل من الزهرة وعطارد باوجه مختلفة كاوجه القمر ولما لم يسعه البرهان على ذلك من الطريق الحسي بقي قوله مهملاً حتى حققه غاليلاي في القرن التالي بعد اختراعه للمرقب سنة ١٦١٠ فانه اول ماوجهه الى الزهرة فظهرت له فيها كل روءى القمر من الهلال الى البدر

اما بعد الزهرة من الشمس فهو ٧٢٣، من بعد الارض وفلكها قريب من الاستدارة التامة لان اهليلجيته لا تزيد على ٠٠٠٦٨ وهي تتم دورتها حول الشمس في ٢٢٤ يومًا او سبعة اشهر ونصف تقطع في اليوم منها نحو ١٨٥٠٠٠٠ ميل او ٢١ ميلاً في الثانية فهي اسرع من الارض قليلا · الا انه لما كانت الارض مشايعة للزهرة في مسيرها اذ كلتاهما تتجهان من الغرب الى الشرق لزم ان لا نراها اتمت دورتها الا بعد ٥٨٤ يومًا او تسعة عشر شهرًا ونصف وهي مجموع سنتي الارض والزهرة معًا غير انها تخفى نحو خمسة اشهر من هذه المدة تكون فيها محتجبة باشعة الشمس لانها تقترن بها في

كل دورة مرتين تخفى في كل منهما نحو سبعين يوماً نصفها قبل الاقتران والنصف الاخر بعده وتظهر لنا سبعة اشهر نجم مساء وسبعة اشهر نجم صباح

واما بعدها عن الارض فيختلف كثيرًا فانها في الاقتران الادنى تبعد نحو ٢٥٠٠٠٠٠٠ ميل وفي الاعلى تبعد نحو ١٦٠٠٠٠٠٠٠ ميل وذلك انها في الوضع الاول تكون بين الارض والشمس فلا يكون بين الارض وبينها الا عرض المنطقة الفاصلة بين الفلكين وفي الثاني تكون وراء الشمس فيكون بيننا وبينها مسافة قطر فلكها مع عرض المنطقة المذكورة · ويختلف قطرها المرئي بحسب ذلك فيكون بين ٦٥ً ١٠ً الا انها في الحال الاولى تكون في المحاق اي يكون الموجه الينا منها نصفها المظلم فلا نراها وفي الحال الثانية تكون بدرًا الا ان قطرها الظاهر حينئذٍ لو امكن ان نراها يكون اقل من سدس ما يكون عليه وهي في حال المحاق ولذلك فان معظم نورها لا يكون في شي مما جاورهاتين الحالتين ولكن انور ما تكون عليه اذا بلغ تباينها اي بعدها عن الشمس شرقاً او غرباً ٥ُ ٣٩ً وذلك قبل الاقتران الادنى او بعده بمدة ٦٩ يوماً وحينئذٍ يكون المنور منها ربع قرصها فتكون كانها هلال اربع · ومتى كانت كذلك فقد ى في ابان النهار كما سبقت الاشارة اليه الا ان ذلك يختلف فيهــا بين سنة وسنة تبعاً لميل فلكها وهي تعود في كل ثماني سنين الى الاقتران بالشمس في الموضع نفسه من السماء لانها حينئذٍ تكون قد اتمت خمس دورات من دوراتها المرئية فتعود رؤيتها من الارض الى مثل ما كانت عليه في الموعد السابق

واما دوران الزهرة على نفسها فما اشتغل العلماء واهل الرصد في تحقيقه زمناً مديداً واستخدموا لذلك اعظم المراقب فلم يحصلوا من معرفته على يقين · وذلك ان ظاهر هذا السيار شديد البياض واللمعان لا يكاد يبدو عليه ظل ولا تظهر فيه سمة واضحة الحدود بخلاف غيره من الاجرام المتحركة حولنا فان كل واحد منها يرى على سطحه شيء من السواد كالمحو الذي نراه على وجه القمر فاذا تحرك الجرم على محوره انتقل ذلك السواد من موضعه حتى يخفى وراء الجرم ثم يعود من الناحية الاخرى حتى يرجع الى حيث كان فيكون قد تم هناك دورة كاملة وبمثل هذا عينوا الدورة اليومية في السيارة وعرفوا ميل محاورها على سطوح افلاكها ومنه علم ان القمر لا يدور على نفسه دورة مستقلة · وقد عني الراصدون بذلك في الزهرة منذ اخترعت الآلات المقربة وممن عانى ذلك الفلكي كاسيني فانه بعد جهد المراقبة ظهر له شيء من المحو على سطحها فبقي يراقبه على ايام متعددة فوجده كل يوم يظهر في مثل الساعة من الامس في مكانه الاول على فرق زهيد تمثل له فحكم بانها تدور على نفسها في ٢٣ ساعة و١٥ دقيقة وذلك سنة ١٦٦٦ · ثم تتبع العلماء بعده تحقيق ذلك فنظر فيه بيانكيني سنة ١٧٢٦ فاحصى لها ٢٥ دورة في ٢٥ يوماً و ٨ ساعات فخرج لكل دورة ٢٣ ساعة و ٢٢ دقيقة · وتتابعت الرصود من غير هذين فكان الخارج متقارباً على فرق ثوان قليلة وحينئذ حكموا بان سنتها تكون مؤلفة من ٢٣١ يوماً من ايامها وهي السنة النجمية وان سنتها الشمسية تكون ٢٣٠ يوماً · ثم راقبوا محور دورانها وحددوا ميله على دائرة البروج فجعله بيانكيني ٧٥° وجعله غيره ممن جاء بعده ٥٥° وهو آخر ما جروا على اعتباره · وقد بنوا

على ذلك مباحث وتفاصيل شتى في تعيين المناطق والفصول وطول الايام وقصرها وما يتبع ذلك من التفاوت في الحرّ والبرد وحالة الاحياء هناك من النبات والحيوان الى غير ذلك من الاحوال المترتبة على هذا الوضع الى ان اعلن شياپارلي الفلكي الايطالياني سنة ١٨٩٠ نتيجة مراقباته الطويلة فزعم ان هذا السيار لا يدور على نفسه الدورة اليومية ولكنه في دورانه حول الشمس يوجه اليها احد صفحيه على حد حال القمر مع الارض وعليه فيكون احد نصفيه معرضاً ابداً لاشعة الشمس والنصف الاخر في ظلمة دائمة . فكان ذلك مدعاة للفلكيين الى معاودة الرصد والتحقيق فمنهم من وافق الفكلي المذكور ومنهم من نازعه والى الان لم يقع الاجماع على رأي في هذه المسئلة الغامضة ولا سيما وان هذا السيار على ما ثبت لهم بالمشاهدة وتحليل الطيف يسبح في ضمن حجاب كثيف جوه المتلبد بالابخرة والغيوم بحيث ان اشعة الشمس تنعكس عن هذا الجو لا عن سطح السيار . وحينئذٍ فان هذا الامر سيبقى محجوباً بحجاب الريب الى ان يتلطف ما هناك من الابخرة المتكاثفة ويشف عما تحته وامل ذلك لا يتم الا في الوف من السنين والله اعلم

« اما وصف الزهرة شعر فاطلبه في المجلد الاول من مجالي الغرر القسم الشعري »

مصير الارض

« له ايضاً »

« عن الضياء السنة الاولى »

تنقلب احوال الكائنات بين عاملي الكون والفساد ويتعاقب التركيب والتحليل على كل موجود من الحي والجماد سنّة الله في المخلوقات من ارقّ السدُم الى رمة الحيوان ومن ذرات الاثير الى دقائق الصوّان اطوارٌ تتوالى بين عقد وانحلال ووجود واضمحلال وانما تضمحل الصور وتتلاشى الاشكال والمادة باقية لا تذهب منها ذرّةٌ ولا يعرض لها التلاشي في حال

واعتبر ذلك في الارض وما يؤلف اديمها من الجواهر ويشتمل عليه جوّها من العناصر وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء والحيوان السارح على وجه العراء والسابح في لجتي الماء والهواء تجد هنالك سلسلة يتصل اعلاها باسفلها ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتد اخرها على اولها بل ترى الارض نفسها عرضةً للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف والامواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تصدع صخورها متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار الى ان ياتي يوم تنحلّ فيه الجبال وترسب في درك البحار ثم لا تزال المياه تسحل وجه الارض حتى لا يبقى فيه امتٌ ولا انحناء وحتى يغمرها الماء من كل ناحية وقد عاد سطحها مستوياً تحت الماء كاستواء سطح الماء فعادت كما كانت في اوائل خلقها ماءٌ غامر وكونٌ بائر قد خلا من عالمي البرّ والهواء ولم يبق فيه من ذوات الحياة الا عالم الماء

***

هذا اذا لم تصب الارض قبل ذلك بالهرم وينضب ماؤها بعد خمود

ما في باطنها من الضرم ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نباتٌ ولاحيوان ولايجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران على حد ما تم من مثل ذلك في القمر حتى لم يبق فيه وشل لمرتاد وحتى تجرد من ثوب هوائه او كاد وحتى اصبح قفرًا هامدًا لاينبت عليه شجر ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر بل لو بقي هواء الارض وهو خال من بخار الماء لجمّد البرد سطحها تجميدًا وانقبض الاحياء من وجهه الى حيث يقع شعاع الشمس عمودًا ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقًا على توالي الحقب الى ان تموت اخر عشيرة منهم بالبرد والسغب فتدفنها الثلوج حيث لا تنكشف رممها الى يوم التلاقي وتخط يد القضاء على اديم الارض سبحان الحي الباقي

***

وهذا اذا لم يصدم الارض جرم من الاجرام السابحة في الفضاء فيتطاير ما عليها من الابنية والخلائق وتثب مياه البحر في الهواء او تلتهب بجملتها فتعود سديمًا منتشرًا في جوز السماء او يلاقها احد المذنبات فيمطرها من النيازك ما يدمر ممالكها الغناء او يبعث عليها من ابخرته ما يصير به هواؤها سماً قاتلاً للاحياء او يحدث فيها زلزال هائل يقلب برّها بحرًا ويردّ عمرانها قفرًا ويدفن احياءها تحت انقاض البلدان او في لجج البحار ويفجّر من باطنها ما يُغرِق سطحها في بحرٍ من نار حوادث كلها جائز الوقوع وان جاز ان لا يقع شيءٌ منها على الاطلاق والله واقي عباده سبحانه لا يقع امرٌ الا باذنه واليه المساق

***

وهذا اذا لم تهرَم الشمس فتنقلب نارها بردًا ولكنه بردٌ بغير سلام

فتهيم السيارات والاقمار من حولها في فضاءٍ من الزمهرير والظلام ويومئذٍ لا يبزغ الصباح فيذهب آفاق المشرق ولا يُقبل المساء فيخيّم على ارجائه بجيشه المطبق ولا يكون اذ ذاك كسوفٌ ولا خسوف ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالامس وقد التفّ بكفنٍ من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس ويومئذٍ تتجمد البحار فلا يكون ثمة موجٌ يتنفس ولا سحابٌ يتبجس ولا سيلٌ يتدفق ولا جدولٌ يترقرق وتركد حركة الهواء فلا تهبّ شمالٌ ولا صباً ولا تجري نسمةٌ على الوهاد والرُبى وأنَّى والشمس مصدر الحركة في العوالم وقوام الحياة لكل قائم فاذا هبّت الريح فالشمس هي التي تهب واذا دبّت النعم فالشمس هي التي تدبّ واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر ألا والشمس هي التي تجري في الانهار وهي التي تغرّد في الاطيار وهي التي تزهر في الرياض وهي التي يسمع حفيفها في الغياض وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها واذا ماتت الافئدة فمحالٌ ان تعيش اجسادها

لا جرَم ان الشمس ليست باول جذوةٍ من نيران السماء ادركها الخمود والانطفاء فكم من نجمٍ نص المتقدمون على مكانه وموضعه اليوم خالٍ بل منها ما دلت الدلائل على وجوده وهو غير مرئيّ في حال وانما الشمس من هذه النجوم فلا بدّ ان يدركها ما ادرك سواها اذا لم يفاجئها مفاجئٌ من مثل ما ذكرنا في الارض يعجّل منتهاها فانه لا دوام في الخلق ولكن كل ما لهُ اولٌ لهُ اخرٌ ولو بعد حين وانما البقاء لله تقدست اسماؤه وهو وارث العالمين

تآبين

١

« لبعض الجرائد السورية في تابين البابا لاون الثالث عشر »

قالت الثمرات :

كان لاون الثالث عشر موضوع اهتمام الملوك على اختلاف اجناسهم لما كان عليه من حب السلام والوئام وكانت ترد الرسائل البرقيه تترى الى الفاتيكان تستعلم عن صحته وكذلك كان لخبر وفاته رنة اسف لدى الجميع واكبرت الطوائف الكاثوليكية خطبه إكباراً عظيماً ويحق لها ذلك

« جلس على الكرسي الباباوي ٢٦ سنة برهن خلالها على عظيم ميله لتوطيد اركان السلم العام وتوثيق عرى الولاء بين الدول . وكان ذا ميل كبير نحو السلطنة السنية العثمانية وصديقاً لحضرة مولانا السلطان الاعظم حتى كان يفاخر بتلك الصداقة وبالهدايا والتحف النفيسة التي يحفظها الفاتيكان من هبات سلاطين ال عثمان خلد الله دولتهم الى اخر الدوران »

بيروت غير الرسمية

كان لخطبه في اوربة عموماً وقع عظيم لانه كان داعياً للسلام محبباً للخير والوئام يصالح بين الدول في الاختلافات ويحل مشاكلها في الملمات وقد كان من اعظم باباوات القرن التاسع عشر . وهو على جانب عظيم من الاطلاع يعرف عشر لغات وله المام باكثر العلوم والفنون ففقده

يعد خسارة على الادب وعلى الانسانية ولذلك اجمع الملوك والامبراطرة وفي مقدمتهم جلالة مولانا السلطان الاعظم على الاستفسار عن صحته عند ما كان مريضاً فنعزي العالم الكاثوليكي بوفاته ونرجو له التوفيق لانتخاب من هو على شاكلته من انصار السلام والانسانية واصحاب السياسة المعتدلة

« وليس عند هذا البابا المأسوف عليه سوى خمسة الاف ليرة تركها لورثته وكل ما اتاه من الهدايا والتقادم في ايام يوبيله وهو يزيد على ١٤ مليون فرنك تركه للفاتيكان اي الكرسي البابوي

حديقة الاخبار :

« قد كان لفقده الاليم رنة اسف في جميع الاقطار والامصار حيث لا تمحى من الافكار مناقب هذا الرجل العظيم الذي استجمع الفضائل الروحية السامية والمدارك السياسية النامية وامتاز بالعلوم والمعارف والاداب وجارى ببلاغة شعره في اللغة اللاتينية فصاحة ويرجيل

« وقد عرف الناس كافة ان البابا لاون الثالث عشر كان في عصره من اعظم السياسيين البارعين في المخابرات الدولية طالما بذل الجهد في سبيل تأييد السلام ومحبة الخير العام

« وفي مدة باباويته التي استمرت خمسة وعشرين عاماً اظهر في اسمى الدرجات اثار دقة الافكار وروح الملاطفة والاعتدال وثبات العزم والحزم في الاعمال والراي القاطع المحجوب اصراره بغشاء من اللين يفوق بتأثيره كل شدة وصرامة وشيد للبابوية نفوذاً ادبياً اكثر مما كان لها في الاعصر الخالية وبهذه الاعمال المجيدة ينقش باحرف ذهبية في صدر التاريخ

ذكره السعيد وافضاله العديدة »

المجر :

« قضى شيخاً جليلاً مملوءاً من الايام والاعمال بعد ان قام على عرش الابابوية نيفاً وخمساً وعشرين سنة خدم في اثنائها كنيسته خدماً جليلة وعززها ما يستطاع الى ذلك سبيلاً وقد كان رحمه الله حائزاً على اعتبار الملوك والامراء وصلاته مع جميع الامم والملل كانت على غاية ما يرام من التوثيق والولاء

« ولا شك ان الكنيسة الغربية فقدت بشخص هذا الرجل العظيم ركناً قوياً وحصناً منيعاً غير انها تتعزى بان الفقيد لم يترك من مهمته اقل واجب الا قضاه وانه فعل في سبيل كنيسته وخيرها كل ما يستطيع فعله في مدة حبريته الطويلة المملوءة باحسن الاثار

« فنسأل الله ان يرتب نفسه في احضان ابرهيم ويمن على الكنيسة الغربية بخلف صالح ينسج على منواله ويقتفي اثاره في طريق المحبة والسلام »

لبنان :

« هو اول بابا تولى هذا المنصب الخطير بعد انتزاع السلطة الزمنية من يده فابدى من المهارة في السياسة وسمو النظر في هذا الموقف الحرج ما اوجب له اعتبار العالم اجمع

« وكانت خطته مسالمة الكل واخذ الامور بالملاينة والتساهل وقد كانت نتيجة تساهله حمل كثير من الدول المعادية له على مصادقته حتى ان الروسية عينت سفيراً لها في الفاتيكان وجعلت تحسن احوال الكاثوليك في بولونية »

لسان الحال:

« نعي من الفاتيكان الشيخ العظيم في اعين العظماء على اختلاف المذاهب والنحل السعيد الذكر البابا لاون الثالث عشر موطد اركان البيعة الكاثوليكية والداعي الى السلام والمحرض على الوئام بدليل توافد العظماء الى كرسيه في حياته وقلقهم في اثناء اعتلال صحته واتفاقهم في ما اعربوا عنه في رسائلهم العديدة من الاهتمام لشانه

« لبى داعي باريه بعد ان انهض في قعوده على السرير عظماء المعمور اهتماماً له وما ناله من الضعف الا ليرى في حياته اثر اعماله العظيمة في جميع انحاء الممالك اذ لم يبق عظيم في الارض الا بعث بالرسائل البرقية استعلاماً لحاله وينظر منزلته من قلوب الاجانب فضلاً عن بنيه . زايل قداسته الفاتيكان بل الدنيا في الثالثة والتسعين من عمره وضميره في راحة لا يقلقه شيء من جانب واجباته على اختلاف موضوعها . نسأل للعالم الكاثوليكي السلوى ولاحباره الهداية الى من يكون خيره خلف لخير سلف . ومهما نطل الكلام في بيان مزايا هذا الرجل العظيم فاننا لا نفيه حقه من التأبين فالاولى بنا ان نعتمد في تقدير اعماله عليها . . . .

« وقد انتجت حكمة قداسته في ايام حبريته السكينة والسلام والاجلال للكرسي الرسولي ورفعة شان الفاتيكان وتعزيز كلمته »

الاحوال :

« كفى باحترام الامم له ان الوفود المؤلفة من كل الجهات والبلاد كانت تحج تباعاً الى مقام الفاتيكان للتبرك بامام الاحبار فكانوا يتحدثون

بدعته ولطفه وفضائله · ومع وجود ملايين من البشر يرفضون الاعتراف بسلطته الروحية فليس بينهم واحد الا يقرّ بما لشيخ الفاتيكان من الاوصاف والمناقب الغراء الجديرة بالملوك ورؤساء الحكومات ولذا حق لنا ان نقول بان العالم كله يندب اليوم رجل العصر ومؤيد النظام الالفي في الهيئة الاجتماعية وخادم الانسانية

« اليوم تبكيه الكنائس الكاثوليكية على اختلاف طقوسها واتفاق عقيدتها · تبكيه الطوائف الشرقية التي شدد في حياته طقوسها وقام بتعزيز امتيازاتها ورفع منارها وتوسيع نطاق كنائسها فضلا عما جاد به من التعطفات والمواهب على كل منها الى غير ذلك من الاعمال التي تنطق بعظم همته وعنايته بالطوائف الشرقية وتسعر في قلوب روسائها وبنيها لواعج الحسرة على فقده

« وقد عزز المعارف في الكنيسة فنشر لواء العلم في رومية وغيرها حيث انشأ عدة مدارس شهيرة واقام المحافل والمنتديات والجمعيات العلمية والادبية التي يضيق المقام دون تعدادها فان من يزور رومية يرى في كل حي من احيائها اثرًا من هذه الاثار المجيدة الناطقة بفضل لاون الثالث عشر · ومن انشاآته المرصد الفلكي الشهير في الفاتيكان ومرصد اخر في كربيناتو مسقط راسه واعتناؤه بالمتحف البابوي الذي يعد من اقدم وابدع متاحف العالم والمكتبة الفاتيكانية التي ابلغ عدد كتبها الى ٤٠ الف مجلد ومكتبة اخرى تتضمن صكوك الكرسي الرسولي منذ القديم حتى اليوم وتعزيزه فن الطباعة وتحريضه الكاثوليك على انشاء المجلات والجرائد العلمية والادبية لنشر المبادئ الصحية في كل اللغات »

الارز :

« تساوى العالم أسفًا لهذه النازلة الهائلة والمصيبة الفاجعة فالملوك حزنوا لفقد ملاك السلام ونضوب معين الارشادات والنصائح في وجوب احترام السلطة وهداية الشعوب الى الجادة القويمة وتحذيرهم من التهوُّر في مهاوي الضلال ٠ والديانة المسيحية جزعت لموت ابيها و باسط اجنحتها وموطد اركانها ومعلي منارها ٠ والشعوب تلهفت لخسارة الرافع صوتـه الجهوري بطلب الرحمة لها والمشير بالطرق المؤدية الى تحسين حالتها والواضع معالم الحرية الحقيقية والسانّ قانون الالفة البشرية

« ماذا عسانا ان نقول في وصف يتيمة هذا الدهر وشمس العصر نادرة الفلك ونكتة الدنيا من استظهر على جور الايام بحكمته الباهرة ونصر الكنيسة بحسن تدابيره السلمية فأرضى الملوك طرًا دون ان يتساهـل بانثلام عقائد الايمان الموكولة اليه وحل في الصميم من قلوبهم فتسابقوا الى اجلاله واحترامه فكان ذلك خير تعزية لقلبه الابوي المنفطر اسفـاً على ضلال بعض ابناء الكنيسة البكر »

الروضة :

« اذا شئنا تأبين قداسته وبيان ما امتاز به عن سواه من الناس في هذا العصر تمادى بنا الكلام الى غاية بعيدة دون ان ندرك حاجتنا المرومة ولكننا نكتفي بذكر ترجمة حياة الراحل العظيم فيتبين بها باجلى صورة ما كان عليه السعيد الذكر من الصفات العديدة التي قلما اجتمع النزر منها في انسان واحد ٠٠٠٠٠

« وهل يقف المرء على تاريخ حياة هذا الرجل العظيم رجل السلام

والمحبة رجل الفضيلة والتقوى رجل العلم والسياسة رجل الدين والدنيا ولا يقول ان فقد مثل هـذا الرجل الوحيد يعتبر خسارة عامة للانسانية والعمران والهيئة الاجتماعية طرًا »

النصير :

« مع زوال الحكم الزمني من يده كان نافذ السلطة مطاعاً بكلما شاء وأمر لا يرد له حكم ولا يناقض له راي وما كان يتكلم غير الحكم ولا يرتئي غير الصواب والحقيقة . كانت حياته المقدسة في عصر طغت فيه روح الحرية والتطرف فلم يجزع من ذلك ولم يخف من اعداء الدين ومضطهديه بل بقي بين قصف رعود الاراجيف وزعزة ارياح الاضطراب هادئ الروع ساكن الجأش لتأكده ان الصليب راية لا تقهر و بند لا يكسر فتحققت امانيه وانفرجت تلك الازمات مسفرة عن بقاء الكنيسة في سلتطها ضمن دائرة الامن والطمأنينة

« ذلك الشيخ الجليل لم يكن ابًا للكاثوليك فقط بل كان مصباح هداية ورشد للعالم كله و بدر سلم وآمن تستنير منه جميع دول المسكونة . ولاجل ذلك كان فقد قداسته مصاباً اليماً على كل الناس لانه كان عاملاً في السلم العام وخادماً عمومياً لراحة الجميع »

المصباح :

عرف القراء الكرام بهذه الصورة الشريفة رجل الدنيا الذي ملأت حسناته الدنيا السجين الفاتيكاني الذي جاهد الجهاد الحق لخير البيعة المقدسة من احرج الموقف . الشيخ الفاني الذي جدد شباب الكنيسة واحيا روح الانسانيه . الاسد العظيم الذي انس بزئيره

القاصي والداني وما زثيره الا تعاليم صالحة ونصائح سامية . الحمل الوديع الذي حمل صليبه على مثال معلمه الالهي وقدم حياته حتى اخر نفس منها ضحية في سبيل البشرية . الكبير الذي طابت به نفوس الضعفاء والمساكين . الزاهد الذي انحنت له الجباه اجلالاً وخطبت مودته الاكابر والعظماء وتنافست في اكرامه الملوك وقدرته حق قدره السلاطين فاحلته من الاعتبار محلاً رفيعاً وعرفت به الشعوب بشير الخير ورسول السلام فاكبرت شانه وأعجبت بحكمته وانصاعت لارائه السديدة واقرت انه ملاك بصورة انسان اتى دار الشقاء ليهدي البشر سبل النعيم فاجمعت على حبه واحترامه القلوب من جميع الملل والمذاهب »

٣

« ليوحنا افندي سركيس في نابين الشيخ نجيب الحداد »

« عن الضياء — السنة الاولى »

سلامٌ عليكِ يا روح نجيب الشريفه حيثما انتِ الآن مقيمة سواء كنت في ارقى فراديس الجنان تنظمين للملائكة تسابيح الرحمن ام كنتِ سابحةً في عالم الفضاء تضيئين بين هذه الداري الزهراء ام كنت طائرةً في الهواء ام كنتِ في عالم النور او في عالم الظلماء حيث تلتقي الارواح خالدةً بعد الانتقال من عالم الفناء * سلامٌ عليك يانجيب من صديقٍ وفيٍّ ودّع سرور الدنيا يوم ودعاك وشيّع الانس والصفاء يوم شيعك وكاد يقضى عليه اسى يوم قضيت وتمضي روحه على اثرك يوم مضيت * اترى عرف هذا البين ان كل دواءٍ مهما عز مبذول فيما يصيبك

من الادوآء فابتلاك بالداء الذي لا يرجى منه شفاء ام تراه كان عالماً ان من المحبين حولك نطاقاً يردّ كل اقتحام فاختلسك اختلاساً تحت جنح الظلام * يا للردي الخائن كيف سطا على ذاك الشباب الغض فأذواه واعتدى على ذاك الهيكل الشريف فارداه واستطال على ذاك المقام الرفيع فقوَّض اساسه واستحكم من ذلك الصدر الرحيب فاخمد انفاسه * ايعلم القبر ايُّ نورٍ طلع في ظلمته فحوّلها نورا وايّ كبيرٍ ثوى فيه وهو الصغير فصيره كبيراً * أَعلم المشيعون من الراحل العزيز الذي انشب البين فيه ظفرَه أعلم الواقفون على القبر مَن الثاوي الكريم الذي اودعوهُ قبره اتعلم العيون التي تبكيه من الذي ودعها ثم لن يمتعها بنظرة * ان الراحل سيدٌ من سادات البلاغة واميرٌ من امرآئها بل امير القلوب الذي كان مستولياً على اعنة اهوائها ان الراحل هو الذي كانت الفاظه تجري مجرى الماء الزلال وكانت معانيه تفعل فعل السحر الحلال ان الراحل هو الذي تبكيه الاقلام لهفةً واسفا ان الراحل هو نجيب الحداد وكفى * فلا بدع اذن اذا بكاك يا نجيب ادباء القطرين بل كل من نطق بلسان العرب ولا بدع اذا اتشحت عليك بالحداد طروس الادب وقد كنت عنوان مجده وفخاره وحامل لوآئه ورافع مناره بل لا بدع اذا عصاني القلم اليوم فيما اخطه لك من الرثآء لا لأفيك بعض حقك ولكن لأفي حق قلبي من النوح والبكاء

يا ليت اني ما قنيتك صباحاً　　كم قنيةٍ جلبت اسًى لفؤادِ
بردُ القلوب لمن تحبُّ بقاؤُه　　مما يجرُّ حرارة الاكبادِ

اجل ليت لم يكن بيني وبينك ذاك الولاء اذن لما كنت اليوم كما اراني سائل الجفن دامي الاحشاء ولما تقطعت مهجتي حسراتٍ لما

شاهدت من غصن شبابك الذابل ولا سقيت قبرك بالعبرات وقد توارى فيه بدر علمك الآفل ليت عيني تكتحل بمرآك فلم ترمد يوم نواك وليت اذني لم تستودع تلك الدرر في حياتك فلم يردها الدمع يواقيت من عيني يوم مماتك وليت نفسي لم تسرّ بصحبتك فقد احزنتها اضعاف ذلك السرور في غربتك * لا بل هنيئاً لي بما كان بيننا من صفو الذمام وطول الالتزام فقد عرفت بذلك عظمة صنع الخالق بما اراني من المعجزات في افراد الخلائق وعرفت كيف يكون الانسان في عقله كبيراً حتى نتخيله المآ صغيراً يبعث من سماء ذكائه ناراً ونوراً * عرفت فيك كيف يكون البيان سحرا وعرفت كيف تعصر الاقلام خمرا وينظم اللفظ درّا عرفت كيف تعنو جياد الالفاظ لفرسان المعاني والبيان وكيف يكون صرير القلم تغريداً حتى نخاله على الطرس طيراً على الافنان عرفت كيف يكون التصور بعيداً والفكر سديداً والخاطر سريعاً والقلم مطيعاً اجل عرفت كل ذلك فيك ولا ابالغ بل انت فوق ما اصف وفيك اكثر مما اعرف فلقد كنت الشاعر المجيـد تقيد الخيال الآبد وتصاد المعنى الشارد

ولقد رايتك والكلام جواهرٌ تُوَمٌ فبكرٌ في النظام وثيّبُ
فرأيتُ قُسّاً في عكاظٍ يخطبُ ورايت ليلى الاخيلية تندبُ
وكثير عزة يوم بين ينسبُ وابن المقفع في اليتيمة يسهبُ

هذه صفته يا قوم وما وصفته الا بما عرفته . . . . .

٣

« لنجيب افندي الجاويش في تابين اخيه خليل »
« عن الثريا السنة الرابعة »

قال مستهلاً بهذا البيت :

وخلعت الشباب غضاً م فياليتك افنيته مع الانداد

لقد رزئت فيك ياخليل الروح وشطر الفواد عالماً في شخص · امة في نفس · علماً في الذكاء · قبساً من الضياء · خليلاً للاخاء · حبيباً للاقرباء والبعداء · وفياً للعلم والعلماء · عطوفاً بلسانك وتلك على مسكنة بني الدنيا من ذوي البأساء · رحوماً لويلات المنكودين الحظ من التعساء · وكأني بك يا مليكاً في الاوصاف · ويا نسمة علوية في طيب الاعراف ما خلقت الا لتعيش بحُر مباديك الصحيحة نصيراً للضعفاء · وجندياً امينا للجهاد في سبيل العلوم الادبية · وخليلا معواناً لنصرة بني الانسانية · ان المصيبة بفقدك لمصيبة الاداب · ان الفجيعة بماتك لفجيعة القلم ان صريف الاقلام نواح ادب الخليل ان لبس الصحف اثواب الحداد دليل على ان الصحافة قد ثكلت اعز ذويها وان اليراعة فجعت بفقد احب الناس من بنيها فلتبكك الاداب يا خليل الاداب ولتبكك الانسانية ما بقي من الدمع بقية :

استشعر الكتاب فقدك سالفاً وقضت بصحة ذلك الايام
فلذاك سودت الصحائف وجهها حزناً عليك وشقت الاقلام

لتبكك الهمم العالية يا خليل الروح فانك كنت بعلمك الواسع وصدرك الذي كان اوسع من البحر شهما هماماً لتبكك المروءة وليبكك

الاجتهاد والصبر فانك كنت بهما لابناء عصرك قدوة واماماً · ليندبك القلم البارع يا اميره ولينح عليك الصدق يا اسيره · ولترثيك اقلام ثكلتك وروايات بارعة فقدتك ولتنح الاداب الراسخة والشمائل الغراء على صاحبها وخليلها في كل صباح ومساء

واني اقسم بغربتك رحمها الله وبوحشتك آنسها الاله باني لا احول عما تعاهد كلانا عليه من احياء عمل وتخليد اثر في الارض وقياماً بذيالك القسم الذي صرمت فيه حبل حياتك ونغصت العيش على اخيك في مماتك وطرحت على عاتقه مهمة العمل الخالد ولسان حالك يقول له : جالد اليوم ان كنت ممن يجالد وسيظهر لك هذا الحزين الذي تركته كاسف البال ما خفي من مسطور اعمالك وما اختزن من مقاطر اقلامك وينشرها في عالم الاقلام مثبتة على انك سابقاً لزمانك ومخلوق قبل اوانك

اما اخوك الذي قص جناحه بفقدك فلسوف يقوم بحقوق اخائك وعهدك ويرثيك ما ناح على آلائك الحمام وغرد الطير على الفنن كل صباح الى ان تجمع عظامه الى جانب عظامك ويرقد هادئاً ساكناً في منام مثل منامك وما الامد على ذلك ببعيد

خليلي دون الناس حزنٌ وعبرة		على فقد من احببتَ ما لهما فقدُ
تلج دموعي بالجفون كأنما		جفوني لعيني كل باكية خدُّ

٤

للسيد الجليل المطران جرمانوس معقد رئيس اساقفة اللاذقية في تأبين الطيب الذكر غريغوريوس يوسف بطريرك الروم الكاثوليك

« القاها في حفلة جنازه في كاتدرائية دمشق في ١٤ تموز ١٨٩٧ »

لست ادري ما اقول · ولا بدعَ اذا أُرتج عليَّ الكلام في مثل هذا المقام · فهو مقامٌ يليق به سجم العبرات لا انسجام العبارات · والنوح والبكاء لا انطلاق اللسان بالثناء · فاذا كان لكل مقامٍ مقال فمقال هذا المقام الاستعبار وتصعيد الزفرات · لان الحزين المبتلى لا يجد في شرح حاله اوفى من انهمال دموعه · فربَّ دمعةٍ واحدة اغنت عن خطابٍ طويل مستجاد · ولكن قد حُتم عليَّ ان اتكلم في مقام النوح · واستوقف سفح الدموع ريثما اصوغ جُمل الرثاء في تأبين فقيدنا المرفَّع الشأن وحبر احبارنا الجليل القدر · غير اني لا احاول بكلامي استنزال عبراتكم فهي نازلة · ولا تحزين قلوبكم فهي حزينة مكتئبة · ولا اذهب فيه مذهب المغالات هاتفاً قد ثُلَّ عرش الفضل ودُكَّ طود النبل · وأفلَ بدر الكمال · وغاب نجم العلم · لان هذه الاستعارات وامثالها وان دلت على جسامة الخطب وجلالة قدر المندوب لا تجدي في الاقناع شيئاً · وتبقي في نفس السامع رغبةً في تفصيل هذا الاجمال واثبات ذاك المقال

فحسبي اذن في تأبينه ان آتي على ذكر بعض اعماله المبرورة ومآثره المشكورة وما تحدث به الركبان من صفاته الحسان فمن تلك الاعمال انشاؤه المدرسة البطريركية وبذله في تحسينها الاموال الطائلة والعناية الشديدة المتواصلة حتى اضحت من اشهر معاهد العلم وأمَّها الطلبة من كل صوب ·

ونبغ فيها عدد كثير ممن رقوا بفضل نجاحهم المراتب العالية· وقد شيد بعدها مدرسته المشهورة في هذه الحاضرة· وانشأ في جهات اخرى مدارس عديدة ابتدائية لتثقيف ابتدائية الفتيان والفتيات

وقد بنى من الكنائس والمعابد عدداً وافراً لا حاجة الى بيانه واشهرها كنيسة الوجه المقدس في اورشليم التي هي المرحلة السادسة من مراحل الصليب· وقد بذل في مشترى مكانها المبارك مالاً جزيلاً اضطره الى بيع بعض املاكه رغبة في ان يحرز لطائفته هذا المقام المجيد الذي حوّلهُ بعنايته الى كنيسة عظيمة يتوارد اليها الزوّار لتمجيد الفادي الكريم· ومن عجب الاشياء انه كان يقدم على تلك المشروعات الجليلة الباهظة النفقات وهو قليل ذات اليد· ولذلك كنا نراهُ شديد الاقتصاد والتقتير في معيشته وخصوصياته رغبة منه في بذل ما بين يديه في جنب المصلحة العامة· وهي محمدةٌ تذكر ومكرمةٌ قلّ بين الانام محرزوها

وبفضل اقتصاده ومساعيه المتواصلة تمكن من القيام بتلك المشروعات السنية· وادخر بعض موارد الرزق لمدرسته الاكليريكية وكرسيه البطريركي الذي كان من قبل معدماً· والله يعلم ما تجشم في سبيل ذلك من الجهد الواصب والعناء الشديد الدائم· وفي هذا دليلٌ على انه كان لطائفته اباً شفيقاً اريباً يهتم في شؤونها الحاضرة والمستقبلة· ولا يدخر وسعاً في سبيل نجاحها وتقدمها· ولذلك لا نعجب اذا راينا بنيه اجمعين قد اكبروا امر وفاته وعدوه مصاباً اليماً وبلاءً جسيماً· لانهم اضاعوا بوفاته اباً وايّ اب اضاعوا

اجل اضاعوا اباً غيوراً طالما فاخروا به معتزين واستندوا الى تدابيره

السديدة عند الملمات مطمئنين . نعم اضاعوا زعيماً رفيع الهمة رابط الجأش . صبوراً رحب الذراع . راجح الدراية والعلم . يشهد له بذلك القاصي والداني والغريب والقريب . اما همته الشماء فتشهد بها مشروعاته الخيرية . واما صبره وثبات جأشه ورحابة صدره فيدل عليها تحمله بالاناة مشاق الصعوبات والمشاكل . ومعالجته ازالتها بالسكينة والهدء . حتى كان يظهر للناظرين اليه خالي البال لا همّ له ولا ضيم عليه ولم تكن تلك المشاكل قليلة . ولا تلك الصعوبات يسيرة فقد كان البريد يحمل اليه شيئاً منها يوماً بعد يوم . واسبوعاً بعد اخر من انحاء بطريركيته الكثيرة في مدى ثلاث وثلاثين سنة . لم يأخذه فيها ملل . ولا استولى عليه الضجر وفتور العزم . ولم نسمعه يوماً ينطق بالشكوى والتذمر من تلك الحال مع تفاقم دواعي الهم والغم عليه وملازمتها اياه بسبب رئاسته العليا . والرئيس اتعب الخلق قاطبةً

واتعبهم رئيس كلّ يومٍ　　يكون لكلّ ملسوع كراقِ

واما علمه الراجح فلا مشاحة فيه . لانه نال من مدرسة مجمع نشر الايمان الشهيرة علاّمة في الفلسفة . ويدلنا على ذلك مما كان يلقيه من العظات البليغة وما كان في براهينه العقلية من السداد وقوة الاقناع مما يشير الى كونه فيلسوفاً كبيراً ثاقب الذهن . اما مزية قلمه فهي الايجاز البالغ حد الاعجاز على جلاء ووضوح تام ؛

ومما لم يعدله فيه احد نزاهته عن الاغراض الذاتية وتعاليه عن الآلام النفسانية . فلم يكن اسرع منه صفحاً عن المسيء . ولا ابعد منه عن الحنق والترات . وقد جرى في جميع ايامه على خطةٍ واحدة هي خطة المسالمة يوادع الكل ويحاسن الجميع . ولا يخاشن احداً . يغضي على القذى ويقابل

السيئة بالحسنى · ولذلك قد اجتمعت على حبه وتكريمه قلوب الناس على اختلاف نحلهم وتباين صبغاتهم · وبصدق تابعيته وشديد اخلاصه للعرش الشاهاني الاسمى غدا مظهراً لتعطفات الحضرة العليــة السلطانية التي اختصته بكثير من نعمها السنية

وما هو حقيق بالذكر من صفاته الادبية شيء كثير لا يسعنا المقام تعداده · ولكني اجتزيء منه بذكر ما كان عليه رحمه الله من الثقة التامة وحسن الاتكال على الله عز وجل · فكان يطمأن الى العناية الصمدانية في جميع اموره ومهامه · وقلما رات عيناي انساناً يساميه في هذه الفضيلة العظمية الدالة على متانة ايمانه · ولذلك كنا نراه عند الملمات هماماً شجاعاً لا يدهش لها ولا يذهب قلبه شعاعاً · ولا يبلغ منه البلاء مجهوده · بل يلقــاه بجرأته المعهودة غير هيَّاب ولا وجل · ويابث كما كان وديعاً في وقار ومتضعاً في عزة نفس · اما لطف محاضرته وعذوبة كلامه وانس مجلسه فحدث عنها ولا حرج

وانا واثق ايها الحضور الاماثل بانه لا يوجد بينكم احد ممن عرفه حق المعرفة يستطيع ان يرميني في وصفه بالمغالاة والمبالغة · بل اخشى بحق ان تلوموني على تقصيري في توفيته حقه من المدح الواجب والوصف الشامل لسائر ماثره ومزاياه · فاذا فعلتم الجأتموني الى الاعتراف بصدق مقالكم والتماس العذر لنفسي من وجه ما انا فيه من الحزن الاليم والجزع الجسيم الذي انتم لي فيه شركاء

وكيف لا تنفطر افئدتنا حزناً عليه وجزعاً من هول مصابنا فيه وهو على ما وصفت من محاسن الاخلاق وكرم الطباع وجميل المآثر · كيف لا نندبه آسفين ملتاعين ذاكرين اياديه البيضاء وفضائله الغراء وما عاناه في

سبيل مصلحتنا من الاتعاب الطويلة الامد · وهل يسعنا ان لا نذرف الدموع سخينة غزيرة ونحن نراه جسماً بلا روح · وقد اوشك ان يتوارى عنا وراء حجاب الرمس الكثيف ولسان حاله يقول قد بقي لي بينكم زمن يسير ترونني فيه قليلاً ثم لا تروني من بعد · فقد قمت بينكم خطيباً على منبر هذه البيعة ذات المرار احرضكم على الفضيلة والتقوى · اما الان فاعظكم لآخر مرةٍ من فوق مرتبة الميت ناطقاً بغير لسان « باطل الاباطيل وكلما في العالم باطل »

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ　　وكلُّ نعيمٍ لا محـالة زائل

فاذكروا ذلك ولا تنسوه · اذكروا من احبكم شديداً واعلموا انكم صائرون الى ما صرت اليه · فليس حيٌّ باقياً ولا احد من قضاء المنية ناجياً

اجل ايها الاب السيد اننا نذكرك ما حيينا · ونعيد ذكرك الطيب ما بقيت الكنائس التي شيدتها · والمدارس التي اسستها · نذكرك ايها الاب الغيور والسيد الاجل ما ذُكر العلم والفضل · والورع والنبل · والغيرة والنشاط · سائلين الحي الذي لا يموت ان يجعل الجنة مأواك · ويثيبك بالسعادة الخالدة عن جهادك الطويل واعمالك الصالحة · ويلبسك اكليل المجد الذي اعده للرعاة الصالحين · فقد عشت محبوباً مشكوراً وقضيت مأسوفاً عليك · فعلى خسارتك تُشقّ الجيوب · ولفقدك تُمزق القلوب فنشيعك بالدموع · والحسرات لانك كنت فينا السيد السند والاب الشفيق · ونودعك بالتنهد والزفرات · لانك كنت موضع فخرنا ومدعاة مجدنا · فلن تبرح مصوراً في القلوب وان احتجب جسمك عن الابصار · وذكرك الحميد باقٍ على الدهر يردّده الغابرون جيلاً بعد جيل ما تعاقب الملوان وكرّ الجديدان

تهانيء

١

لجريدة لسان الحال في العيد الفضي لجلوس حضرة سيدنا ومولانا الاعظم
السلطان عبد الحميد خان الثاني على الاريكة العثمانية

« تاريخ الجريدة ٧ جمادى الاولى ١٣١٨ موافق ١ ايلول ١٩٠٠ »

لسان العثمانيين

لا بدع اذا راينا العثمانيين قاطبة على اختلاف المنازع والمذاهب وتباين المناجع والمشارب تهز معاطفهم الحمية للاحتفال بهذا العيد وتستحثهم الجامعة العثمانية الى صوغ كل عقد فريد فان هم الا عبيد مخلصون وفي حب سلطانهم متفانون وان هو الا يوم في مثله جلس مطالع انوار العدل على اريكة الخلافة العظمى · وتسنم ذروة السلطنة الشما · بل من رفع الله قدره فارتفع · وفاض في الخافقين نوره وسطع · بل من دافع الحوادث والاقدار بهمة عالية لا يدرك شأوها عواهل الامصار · سيدنا ومولانا الخليفة السلطان الغازي

 خان

ادام الله عزه وتاييده · و بسطته وتوطيده · ولا زالت رايته ابداً منصوره ونفسه ببلوغ اماله مسروره واعز به شان العثمانيين عبيده · ونوله من الاعداء غاية مقصوده · حتى لا يدع لهم جيشاً الا هزمه · ولا جباراً

الا قصمه · ولا متعززاً الا اذله وارغمه · ولا معقلا الا هدمه ولا موئلا الا اباحه واصطلمه · واطال في حياته رحمة برعيته التي صادفت من الخير في الخمس والعشرين سنة التي مضت على ايام دولته · مـا يورث اللسان الحبسة والحصر عن ايضاحه وجنت من رياض حكمته في عصر جلالته ما لا يقوى افصح خلق الله على افصاحه · الذي منذ تربع في سرير السلطنة العثمانية العالية المنار · اجال في احوالها الانظار · واعمل في رفعة شأنها الافكار جاعلا همه سواد الليل و بياض النهار السعي المتواصل في سبيل اعلاء مكانها ولواء اركانها واعداد الذرائع لازهار عمرانها · فما أبقى على وسيلة تنسم وراءها خيراً حتى وافاها · ولا ابصر طريقة للتقدم الا تعداها حتى اشرقت انوار العلوم في كل انحاء السلطنة السنية والممالك المحروسة الشاهانية · ونشرت الوية التمدن والهلال شعارها والنجم دثارها وراجت سوق الاداب ونشطت العلوم من عقالها · وافاقت النفوس من رقادها · فبات عظمته يغذيها بما يبثه من احساناته بين الرعية علماً من جلالته ان الرعية قائمة بالسلطان والسلطان فخر الرعية · فظهرت بعد ذلك الجد الطويل والاهتمام البعيد المرمى نتائج تلك الهمة الخاقانية العالية وصارت البلاد في حالة استدرت سحب الثناء من الملوك الاجانب واعترف القاصي والداني بفضلها وما هي الا مخدرات كواعب انتجتها حكمة مولانا السلطان السامي المواهب

اجل · ابتسمت الثغور وثلجت النفوس وانشرحت الصدور في عيد جلوس مولانا العلي الشان الذي بعد ان مهد للامة سبيل الراحة واباح لهم موارد العمران عمد الي تعزيز مقام الدولة السياسي فجعل البلاد المحروسة

رفيعة العماد وطيدة الاركان والاوتـاد امنع من عقاب الجو لا يدرك شأوها الا بعد ان يدرك الغراب الاعصم حتى صارت الدول تسعى سباقاً كل منها تطلب الحصول على رضى جلالته واستمالة عظمته . علماً منها بما تحت الهلال العثماني من القوات التي بلغت المقام الارفع في النظام والترتيب والاوج الاسمى من درجات القوة والتدريب

نقول ذلك ولا ندعي الالمام باثار محامده ومحامد اثاره لئلا نخطى من حيث تعمدنا الاصابة ولكننا نلمع الى محاسنه واحسانه وما وصلت اليه ايدينا من اجراءاته في الخمس والعشرين سنة وما تحلت به جلالته من بديع الصفات ونلمّ بشيء من تاريخه فنقول

قضت حكمة الله تعالى ان يترفع بعض افراد البشر على البعض الاخر بالحكمة والعدل والحزم والتدبير . ومن توفرت فيهم هذه المزايا الشريفة وزكا فرعهم واصلهم وانبث نورهم وانبسطت اشعتهم هم اصحاب السلطان في الدنيا والحكم بين الناس لصلاحهم لذلك بما اتاهم الله من الحكمة التي هي راس كل تدبير وعمل وصلاح بها يفرقون بين الغث والسمين والحسن والقبيح والجور والعدل حتى ترتاح في ظلهم الرعية وتنبسط رحاب الامن والراحة والعز وقد نبغ في كل زمان رجال اوتوا هذا الفضل ومنحوا هذه الهبة فطار ذكرهم وعظم امرهم وقوي سلطانهم واستذرى الناس بظلهم فزاد ذلك في ابهتهم ومجدهم وحفظ لهم التاريخ ذكراً لا يفنى واثراً لا يبلى بحيث كان ذكرهم وفعلهم سنناً يجري عليها امثالهم من بعدهم فكان لكل عصر رجال ولكل دولة قوم تولوا امرها فاصلحوه وزادوا في تحسينها واتى بعدهم قوم ساروا على خططهم وتتبعوا اثارهم فزادوا عليها واصلحوا

فيها ومن كبار رجال عصرنا هذا من القت اليه السياسة بمقاليدها وسلمت اليه الرئاسة زمامها فاحكم سيرها وابدع في تقويمها واجاد في تحسينها وتعظيمها وساس البلاد بالحكمة الباهرة والعدالة الزاهرة وفض المشكلات وحل المعضلات وسهل العقبات وهوّن المصاعب وخفف المتاعب فكان احق من يحفظ التاريخ اعماله واحرى من تنقل الالسنة افعاله · بل تتزين الطروس باحكامه وتزهر البلاد بايامه ركن الامة العثمانية جلالة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الاعظم ادام الله ظله واعلى محله· فقد ولي الخلافة العظمى وحبل الملك مضطرب وعماد البلاد قلق والسكون من المملكة نافر تحف بها من المشكلات المعضلة والمسائل المبهمة ما يقف عنده عقل الملوك حائراً مبهوتاً وتدبير الوزراء شارداً تائهاً فدبر الامور بحكمته ولمّ الشعث بعدله وذكائه واعمل عوامل السلم يتعهدها بنفسه ويمارسها بعقله حتى حير عقول اهل الغرب والشرق وادهش رجالها وساستها ولم يقف عند ذلك الحد ولم يكتف بهذا المنال العزيز بل جعل السلطنة في مقام رفيع ومنزلة سامية تتهافت الدول على محالفتها وتتسابق الممالك الى معاهدتها

وما على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

وهو السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان عبد المجيد خان الخامس والثلاثون من سلاطين آل عثمان العظام والتاسع والعشرون من السلاطين الذين تولوا مسند الخلافة العظمى بعد فتوح القسطنطينية ولد في ٢١ أيلول سنة ١٨٤٢ الموافق لسنة ١٢٥٨ للهجرة وجلس على السدة الشاهانية في ٣١ اب عام ١٨٧٦ الموافق لسنة ١٢٩٣ هجرية وبعد ان قبض على صولجان

الملك جعل اقامته في قصر يلدز الشهير المبني على رابية عالية تشرف على الاستانة والبوسفور حتى لقد يلوح للناظر ان هذا القصر العظيم الواسع الارجاء البديع الهندسة مدينة كبيرة

وجلالته متوسط القامة جميل الملامح حاد النظر اسمر اللون عصبي المزاج يرتدي ثوباً عسكرياً ويتقلد حسام اجداده على جنبه ومن لباسه وحديثه تظهر بساطة معيشته ولطف ذوقه وهو ينهض باكراً جداً لينظر في مسائل الدولة واشغال البلاد بحيث لا يجري شيء الا بمر تحت نظره وبين يديه واحياناً يستدعي اليه بعض رجاله ليتداول معهم في شؤون البلاد وفي امر المشروعات المرفوعة اليه ولا تصدر ارادته السنية الا متى وقف على ما بطن وما ظهر · وعظمته كثير الاهتمام بالجيش وكل ما يتعلق به لانه سياج الملك وحامي حمى الدولة فهو لا يفتر عن الاعتناء بملابسه واعداد معداته وعدده ولا يتغاضى طرفة عين عن كل ما يؤول الى راحة الرعية واصلاح شؤونها

هذا برض من عد من قطب مناقبه وقطرة من بحر من دائرة محاسنه · اما اجراءات جلالته فمن لنا بكاتب تعوّد قلمه الجري في مضمار البلاغة وألف الخوض في يم الفصاحة والبراعة يزف الينا من عرائسها ما يخجل البدر ويقلدنا من دررها ما يزدان به نحر هذا الدهر · ويكمل حسن وجنة هذا العصر · بل يهدينا الى مآثرها التي تحسدها الشمس وهي في كبد السماء · ويستمد من ضيائها الساطع ابن ذكاء · لعمري ان ذلك لأعز من العنقاء · وفوق وسع كل من دبّ ودرج على بساط الخضراء · واي قريحة جوادة · تلمّ بشيء من تلك المآثر الجوابة · التي ترنم بها الملاّح في البحار · وتغنى

بذكرها الحادي في الانجاد والاغوار . واصبحت ظاهرة للعيان ظهور الشمس في رائعة النهار . بل اني يراع يحاكي صريره صليل المارهفات يجرد من غمده لقطع اعناق العجز ووصف تلك الاجراءات النيرات . ولا يجف مداده . ويفنى عناده . ويرجع الى غمده خجلاً . وتخمد انفاسه وجلاً

اجل . ان الكتبة مهما اوتوا من التفنن بضروب الكلام . والخبرة باساليب الرصف والنظام . وكلفوا ان يجيلوا في هذا الموضوع قدحاً لما وطئوا سهلاً ولا اصابوا نجحاً . ولا استطاعوا لجماح التقصير كبحاً . ولا تنشقوا من رياضها نفحاً . بل لرزحوا تحت اعبائها رزحاً . وغدوا وجبينهم ينضح نضحاً . تلك الاجراءات التي شملت منافعها عبيده . وضمت في صدرها مطارف المجد وتليده . واعلت شان التمدن ورفعت بنوده . بل تلك الرياض التي فاحت وروده . والمناهل التي عذب ورودها والكواعب التي برزت نهودها وماست قدودها فتغزل بها عميدها . بل الاغراس التي وشجت اعراقها . وبسقت اغصانها وتهدلت ثمارها . فاستذرى بظلها الوارف . كل من انبسطت نفسه الى تحصيل المعارف . ورغب في استبدال اديم الرداء بخز المطارف

بل تلك الصروح الباذخة . والاطواد الشامخة الراسخة . والابراج الوطيدة الاركان المحكمة البنيان التي تناطح السحاب علاؤها الاثيل . وارتد صرف الدهر عنها وهو كليل . بل الدرر الغوالي التي نظمت في سلك الخمس والعشرين سنة نظم اللآل . فغدت عقداً واسطته الكمال . بل هي قالب العلوم ووشاحه . ونبراس الهدى ومصباحه . وتمام الكمال وصلاحه . يلوذ بها اولو الفضل ويسترشدها ذوو النبل . على ان ما لا يدرك كله لا يترك جله

اطلق نظرك الى رياض تلك المدارس المنشاة · التي يؤمها العثمانيون قاطبة من سائر الارجاء فتغذيهم من يانع ثمارها · وتسقيهم من سلسبيل انهارها · وتحنو عليهم حنو الوالدات على الفطيم · وتقيهم رمضاء الجهل اللافحة وتنشقهم من اكنافها عرف النسيم · فينشأون ويشبون لاهجين بالشكر لجلالة متبوعهم الاعظم الذي اعد لهم الذرائع الفعالة ومهد امامهم سبل التقدم والنجاح وغذى عقولهم بلبان المعارف والاداب الى حدّ ان تمكنوا من مباراة الاوربيين والجري معهم في مضمار العلوم · وخطب مخدرات المنطوق والمفهوم · فرفعوا اكف الضراعة يستدرُّون سحب حسن الدعاء · من سمك الزرقاء ودحا الخضراء · ببقاء إركنهم وعتادهم وجذوة نجاحهم ومولاهم الساهر على راحتهم وتقدمهم سهر الام الحنون على صغارها · واعلام النصر فوق اريكته السنية خافقة · وكؤوس عزه دافقه · والشهادات على عدله وفضله متطابقة متناسقة

ثم سرح طرف الطرف في تلك المياتم العامرة التي تعطف جلالته فاقام اركانها ووطد بنيانها رحمة بمن عضهم الزمان بنابه وجرعهم اكؤس صابه واناخ عليهم بكلكله يلتجأون الى اكنافها ويلوذون بحماها بعد ان كانوا يضربون في الارض شاردين يلتحفون الزرقاء ويتوسدون الغبراء · فلا غرو اذا رايناهم يشاركون اهل الخافقين في الدعاء ببقاء الذات المقدسة محفوفة بالعز والنصر ما ائتلف الفرقدان وطلع النيران ·

ثم مل الى المستشفيات التي اقيمت بامر جلالته ودور العجزة المشيدة بايعاز من ذاته · فترى منها كل فسيح الارجاء منبسط الباحات يضم المئات ممن ساورهم السقام واحنت ظهورهم الايام · من عليل يشكو المـا

يقض العظام · وعجوز رشقه الدهر بأسد السهام · فاصمته العاهات وتراكمت عليه الافات حتى اوشك قلبه ان يتقطع حسرات وكبده ان تذوب زفرات لو لم يشم في تلك المستشفيات بروق الشفاء ويتنسم من تلك الدور ما يجدد زمن الهناء ويعيضه من ذلك الضرام برداً وسلاماً · ومن بخل الزمان بالابلال مناً وانعاماً · فيثوب اليه رشده · ويعود اليه نعيم الزمان ورغده · وينفض عنه غبار الحمام · وتتفتق ازاهير صفائه من الاكمام · اليس من الواجب على من كانت هذه حاله ان يقر باحسان ولي نعمه وممزق مواكب نقمه · ويبتهل الى الله عز وجل ان يطوق بعنايته حمى جلالة متبوعنا الاعظم ما قطع سرب تنوفة · وبلّ بحر صوفة

ثم ارخِ عنان الطرف واطلقه في ذاك البر الفسيح فترى اسلاكاً برقية · وقطارات نارية · تلك تستمد الاسراع من عزمه · وهذه تنهب القفر نهباً غير مبالية بحزنه يتصاعد منها البخار كأنها زفرات شج احماه الفراق او حنين ملتاع لعبت في فؤاده نيران الاشواق بل كأن انقادها جذوة من حزم سلطان الافاق · تنقل القصاد من بلد الى اخر باسرع من لمحة ناظر او حسوة طائر · أليست هذه مأثرة لجلالة الذات المقدسة تذكر بالشكر · وينقش ذكرها على صفحات الصدر · ما لاح بارق وهلّ شارق · ثم مل الى تلك الجواري الحسان والمدرّعات التي تزري بالحدثان وهي تمخر العباب · فتترك فيه ثلمات كانها مشق الكراب · بل الى تلك المسالح التي تضم من المدافع ما يملأ الفضاء هزيماً · ويدمر قلاع كل مستكبر فيعود بعد تلك القوة فدماً جهوماً · ومن السيوف كل مرهف تقراء ايات الردى في فرنده · ويلقي في قلوب الاعداء الرعب وهو بعدُ في غمده · ومن

الرماح كل حاد السنان · يغادر الخصوم صرعى معفرين على بساط الصحصحان

وماذا عساي ان اذكر من اجراءاته التي اقل ما يقال فيها انها حلية العصر · وشامة وجنة هذا الدهر فكفى بما ذكر دليلاً على ماهو عليه جلالته من الادراك الفائق الوصف والحكمة والحزم فهو لا يترك شارده ولا آبده الا تعهدها بذاته المقدسة واتاها بوافر حكمته غير تارك من امر الرعية دقيقاً ولا جليلا متبعاً جادة العدل متنكباً طرق المظالم آمراً فى تعميم الانصاف وقطع الاعتساف واسعاف الفلاح والزارع ورعاية المهاجرين الى الممالك المحروسة من جميع الانحاء وامدادهم بالنظر السامي وبذل النفقات الطائلة عليهم وعلى الفقراء المنكوبين من الخزينة الخاصة · بل كفانا بذلك برهاناً على احاطته بجميع المسائل بين خارجية وداخلية واعمال الراي المصيب فيها والفكر الثاقب في حلها فهو دائب السهر على حفظ المملكة المحمية من كل طاريء يدراء عنها الشر ويقرب اليها الخير ويمهد لها الاكناف ويوسع لها ابواب السعة والامن والراحة والعدل بما يصدره من اوامره السامية الى جميع ولاة الامور بوجوب الرفق بالرعية ومنع المظالم عنها واتباع سنة العدالة في احكامها مع شفقته على رعيته وغيرته الزائدة عليها وحبه الصادق لها

ولجلالة سلطاننا حفظ الله سلطانه غير هذه المآثر التي لو تتبعناها لضاق بنا مجال الكلام وكلّت دونها سوابق الهمم والاقلام بل ضاقت عن استيعابها الصحف والرسائل واستنفدت القرطاس والمحابر فنكل تعدادها الى لسان الدهر المنشد بفضلها · والى صحف التاريخ التي لم تات بمثلها من قبلها · وقصارانا ان نسال المولى تعالى حفظ جلالته ركناً للدين والدنيا

وعماداً للسلطنة العليا وشمساً تنبث عنها اشعة العدل وبدراً يفيض منه نور الفضل . واروومة تزهو فروعها بمحاسن المآثر . وينطق بمدحها لسان الناظم والناثر . ويمتد على الرعية ظلها الوارف . وتنبع منها موارد الاداب والمعارف . حتى تكون فريدة في عنق العصر . وغرة في جبين الدهر . ومشكاة يستنير بها . ولو البصائر والابصار . ومثالاً تتحداه ملوك الاقاليم والامصار . ولا زال لواؤها بظل جلالته خافقاً منصوراً وبيتها بركن فضله آهلاً معموراً بحول الله ومنه

فالى عاصمة الامة العثمانية نوجه الابصار . والى صرح يلدز العامر نشد رحال الافكار . نؤدي بملء الاحترام الاحترام والخلوص والوقار وفروض العبودية والتبريك ولو على بعد المزار ونرفع اكف الضراعة الى ابي الانوار . ان يديم عظمته قرة لعيون العثمانيين . وان يمتعنا بان نهنئ جلالته بيوبيله الذهبي . وهو خير مسئول

٣

للشيخ سعيد افندي الشرتوني في تهنئة غبطة الياس بطرس الحويك بطريرك الطائفة المارونية بارتقائه الى السدة البطريركية

في ٦ ك ٢ سنة ١٨٩٩

ليس اغتباط الشعب بجلوس هذا الحبر العريق في الفضل وعلو الهمة على الكرسي الانطاكي بأدلّ على جدارته ولا أدعى الى تهنئته من اتفاق كلمة مطارنة الامة المارونية المشهورين بالعلم والصلاح على اصطفائه خلفاً لمن ابقى من الآثار ما يحفظ له احسن تذكار

فلله درّ هولاء السادة ما ارعاهم لنجاح رعاياهم وارسخ التواضع في نفوسهم فلقد استوجبوا لانفسهم ثناء العالم باسره وملكوا من الامة قلوبها كفاء انهم وفوا الفضيلة حقها وانتقوا لهذا المقام الرسولي الرفيع من جملته معارفه وفضائله خيرا كفائه فقد عالنوا الكون باجماعهم على انتخابه انهم من الحكمة وصالللاح وحب الامة بحيث لا تزعزع فضائلهم عواصف الهيام بمجد الرئاسة ولا يحجب انوار بصائرهم ظلام الميل الى ابهة المقام · فمن ثم يتلاقى كلام التهنئة لغبطته اعزه الله بكلام الشكر لسيادتهم · فبطريركيته ثمرة اتفاقهم كما ان اتفاقهم ثمرة مزيته البينة وجدارته الثابتة

فما احسن في عين الفضيلة روية هذا الحبر المفضال الحامي ذمار الاداب والمطلع ضياء الالباب الرافع منار المروءة والوفاء الحامل علم الصدر وصحة الولاء بطريركاً جالساً على الكرسي الانطاكي الماروني ومن حوله اولئك الرعاة المعروفين بالامانة على من ائتمنهم الله عليه من خلقه الشديد والحرص على سلامة رعاياهم من كل وباء يفشو في الآداب وكل علة تنتشر في الاخلاق

فما ادري من اهنيء السيد المنتخب بانه اختير لمقام رفيع القدر وللنهضة بعبء كبير الاجرام السادة المنتخبين بتلبيتهم داعي الضمير فاحر بي وبالطائفة كلها جمعاء ان تهنيء الفريقين المنتخب والمنتخبين فهم في خدمة الله وخلقه اعوان متضافرون واخوان متوافقون يوءلم الواحد منهم ما يوءلم الاخر ويريح الواحد ما يريح الاخر · سنة الله في رجاله والقوّام على شريعته وخطباء منابره

فلا ريب ايها السادة الاجلاء ان رئيس البيعة الكاثوليكية سيدنا

البابا لاون الثالث عشر يفتر ثغره وتنتعش جوارحه لاتفاقكم و يرتاح فؤاده الى من اطمأنت نفوسكم ان تلقوا اليه مقاليد البطر يركية

ثم لو كان المقام شخصا متكلماً لافتتح كلامه بالثناء على ساداتنا الفضلاء لانهم قدّموا له خادماً لاتشغله الدنيا عن خدمة الاداب العامة واقاموا له مدبراً ذا رأي ابانت الايام انه يقع مواقع الصواب ورجلاً رسولياً كل حاجات العصر قائمة امام عينيه وجميع الطرق التهذيبية ماثلة تجاه ناظريه وحبراً يعلم ان رئيس الامة لا يجد اساساً لفلاح امته امتن من تسليط الصدق على نفوسهم ولا اضمن لسعادة قومه من العناية بتربية احداثها على مراسيم الشريعة الالهية والقواعد المتبعة في تهذيب الاخلاق

وفي الختام نسأل الله الرحمة لمن سلف والعون وطول العمر لمن خاف حتى يرى من ثمرات تدبيره ما يكافيء حسن الظن به ووقوع الاختيار عليه بمن الله و كرمه

٣

لجامع الكتاب في تهنئة الطيب الذكر المطران جرمانوس الشمالي
« المأسقف على الملة المارونيــة في حلب »
« في ٢٥ ك ١ سنة ١٨٩٢ »

ايها السيد الجليل والراعي النبيل

هو يوم سهلت فيه العادات سبل الهدايا فلو استطعنا لتجرأنا على تهنئتك ولكنها للاكفاء . او بسطنا الكلام في وصف ذاتك ولكن المقام مما تلكن له

ألسن الفصحاء · او اهدينا اليك النفوسَ ولكنها لك · او الرجاء ولكنه موقوفٌ عليك · فانا لم نجد منزلة من الشكر تفي بمنزلتك من الفضل · ولكنك اشرعتَ لنا نهجها فاستضأنا به وأملتْ علينا عُلاك · فانشأْنا ثناك · وان الاقرار بمثل فضلك لواجبٌ نقضيه · ولكننا لا نستقصيه · فلا نصفه · ولا نحصيه · فلا نصفه · وأنى لنا ذلك وانت الخطيب تهتز لذكره المنابر فيسخرَ له الخطاب والّسن يطّرِد سياق كلامه فيمهد له الصواب · والمرشد يلقي نفثات هدايته فتحل بها عقدة اولي العيّ · واشعة تعليماته فتشرق بها قلوبُ اولي الضلالة والغيّ ·

غير انا نهنيء بك قوماً لم تعقد خناصرهم على انتخابك الاّ وقد نهلت قلوبهم من كوثر محبتك · واجمع رايهم على علو مكانتك ولم تكن ضالتهم المنشودة الا وقد ردد صدى مناقبك في اذانهم فطمحتْ اليك ابصارهم فاجبت ملتمسهم · شانك في كل ما يؤول الى خدمة الملة والدين · على ان غبطته « ابقاه الله » لم ينط بك تدبير شؤونهم الا بوحي من الله والهام روح قدسه الامين

ولقد تيّمن فدعاك « جرمانوس » ولا غروَ فان معنى الاسم اصل الشجر · على ان مسّماهُ ارومة الورع تتفرّع منها اغصان الرشاد بل دوحة الهداية تتهدّل فوق افنانها حمائم السداد · ورجاء الحلبيين ان يُمثل لهم بك ذات سلفك المثلث الرحمات · سميك (1) الذي شدهت بذكره الامم وتمشي حبه في النفوس تمشي البرء في السقم · فتتلو تلوه وتستنهج سبيله وانك

(1) اعني به المطران جرمانوس فرحات مطران حلب صاحب التآليف العديدة الشهيرة (توفي ١٧٣٢)

لفاعلٍ ما يوازي محتدك ويضاهي مجدك فتأتي بما يشبه الامل فيك سرِ اليهم ايها السيد الجليل فستلقى من الهناء ما انتَ خليقٌ به ومن الاكرام ما هو أولى بك وبفضلك فانك لم تسر اليهم لتربح مجداً عالياً بل لتعمل مشيئة الرب وارادة مريديك فيظل ذكرك العاطر حلواً على لهواتهم كما هو في افواه مفارقيك ٠ على انك ايها السيد لم تطلب الكرامة لنفسك بل دعاكَ الله اليها كما دعا هارون من قبلك (عب ص ٥ ع ٤) ٠ وانهم لقومٌ طبعوا على دماثة الاخلاق فسيرون منك ما رايناه وسيقدرون فضلك كما قدرناه ٠

غير انا نودّعك فنودعك نفوساً طالما حنت الى لقاك ٠ وقلوباً لا تختلج بغير ذكراك قلوباً انت منها بحيث يمثلك الشوق فتلاقيك وتدعوها الى الرشاد فتوافيك ٠ تذكرك كنائس خلد ذكرك بها انذارك ٠ ومدائن دلت بها عليك آثارك ٠ تذكرك رياضاتك بمصر ونواحيها ٠ تذكرك تعاليمك في الشام وضواحيها ٠ واخيراً يذكرك وطنٌ اعليت بفضلك مناره ٠ وقضيت بواسع علمك اوطاره ٠ وطن يسألك بنوه صالح بركتك ودوام رضاك ٠ وهم يدعون لك الله فلا تزال رضي العيش ناعم البال ٠ موفور النعمة في ظل وليّها المتبوع الاعظم السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان ايده الله وبعناية غبطة بطريركنا العلامة الشيخ الجليل ماري يوحنا بطرس الحاج الكلي الشرف والفائق الاحترام

فيما اني ارجو في الختام ان تكلأ بعين عنايتك ولد سيادتك الذي لا ينساك　　　　يوسف صفير

رسائل

« كتب الشيخ ابرهيم افندي اليازجي جواباً الى صديق له »

وافاني كتابك العزيز فاهلاً باكرم رسولٍ جاء ببينات الاخلاص والوفا مصدقاً لما بين يديه من ذمة الوداد والاخاء يتلو عليَّ من حديث الشوق ما شهد بصحته سقمي وهتف مؤذنهُ في كل مفصل من جسمي ويذكرني من عهدك ما طالما اذكرنيه البرق اذا لمع والبدر اذا طلع والقمريُّ اذا سجع وانما عداني عنك ما انا فيه من مجاذبة الشواغل ومساورة البلابل

وفي القلب ما في القلب من شجن الهوى　　تبدلت الحالات وهو مقيمُ

وانا على ما بي من غل البنان وشغل الجنان ما زالت أنباؤُك عندي لا يخطئني بريدها ولا ينقطع عني ورودها أُهني النفس منها بما أتمنى لك من سلامة لا يرث لها شعار واقبال لا يعترضه ادبار وقصارى المأمول في كرمك ان تعاملني بما سبق لك من جميل الصلة الى ان يمنَّ الله بالاجتماع ويغني بالعيان عن السماع وما ذلك على الله بعزيز

وكتب عبدالله افندي البستاني الى اصحاب لجنة اليوبيل

« التي ازمعت ان تقيم له تذكاراً في هذا الثغر »

« نقلاً عن لسان الحال »

ايها الفضلاء الذين حباهم الله بكرم الخلال وزانهم بالادب الرائع

سرى اليَّ من كرم شمائلكم ما صادف فؤادي باشراك العواطف واعجز

لساني عما يتقاضاني اياه فضلكم من القيام بواجب الشكر · وبعد فقد انتهى اليَّ ان كرم العنصر وزكاء الاصل أدَّيا بكم الى ان تتوهموا فيَّ ما ترونه في فضلاء لهم في البلاد طيب الاحدوثة والذكر المنشور · فتداعيتم تتعهدونني بمكافاةٍ يدقُّ شانها اذا هبطت على مثل هذا الحقير · فمن وثاقة الرأي انكم تثنون الاعنة عن النزوع الى هذا المدى البعيد لاني لا ارى من لباب الصواب ان اكون مستأثرًا بهذه المكرمة وقد طوتها الناس عن العلماء المعاصرين وغيرهم ممن طوت الدنيا صحائف ايامهم وهم يبيضون وجوه البلاغة بما يسوّدون ويحلون عقود الفصاحة بما كانوا يقيدون · ولقد يحسب الناقد من ذوي النظر ان اختصاصكم اياي باكرام يتقاصر عنه من كان مثلي اباحه لكم محض الود وان لم اكن من ذوي الفضل المتطولين · واما تحدثكم للافاضة في اني ابرزتُ الى ارجاء المعمور محصلين لهم نباهة الذكر ورصانة النظم والنثر فذلك اذا نهض بي الزهو الى الابتهاج به فلسان العدل يوسعني عذلاً وتانيبًا لاني ما خففت يومًا الى حلقة التدريس الاَّ وقد ندبتني اليها عائدةٌ طالما نشدتها · فلا ارى ان من كان ذلك من ديدنه وشأنه تلجئه الدعوى الى المجاهرة بانه غرس في القلوب جميلاً يجنى منه ثمرًا هو المكافاة · فدعوني رعاكم الله اتخير لنفسي ما هو اجمل بها وازكى في الانتشار عنها فان مثلي لا يرتقي الى اسمى مما هو فيه ومهما يكن من الامر فقد انشقني نسيم مناقبكم عرف المسك السحيق والعنبر الفتيق وأهاب فضلكم بلساني الى الاشادة بذكركم فراه عيًا فاعلموا غير مأمورين ان اجمل مكافاة تهزُّ من معاطفي ايثاركم اياي اخيذًا لودكم واعتصامكم باسباب الذمام التي اطير النفس شعاعًا قبل اخفارها · فذلك ما اماتن به نفيس

الجوهر · وانتفض في سبيله الابيض والاصفر · وليس ايثاري بالتكريم احب الي من رؤيتي فضلاء تخرجوا علي فبرعوا على ميعة الشباب في وجوه الفضائل وانتشروا في الارضين يضحكون الافاق ببكاء يراعهم و يرخصون غوالي الارواح والمهج في سوق الحب لولي نعمتنا مولانا ذي الشوكة والجلالة سلطاننا الاعظم الفاتح للعلم في كل صقع منهاجا ايده الله بالسؤدد والنصروادامه تاجا تزدان به هامة هذا العصر فبذلك ارى الاجلال وخفوق بنود الفخر في كل مصر

فعزمت عليكم الاتشغلوني عن مجدي الحق بمجد اخر لايواضعكم عليه سواد المتادبين · ومن ذا يحيل علي بالتثريب اذا ذهب بي التيه لصدق فراستي في من خرجتهم وقد كان كل منهم فتيَّ السن في حصافة الكهول · فنبغوا في فنون الادب واخذوا يطارحونني من غرر الحكمة ما هو نهزة اذهانهم وعرضة خواطرهم وهل يرفع نظري شيء من التكريم كما يرفعه اعجابي بذي السعادة من اعتصمت اهواؤكم بزعامته الا وهو فرع الدوحة الكريمة ذو الحسب الناصع العالم الناظم الناثر الذي يطرفني من راجح علمه ومرهف ذهنه ما يتالق به جبيني ويريني من سجاحة اخلاقه وصفاء نفسه ما ينهض بي الى حمد الوهاب به اليكم في غدوي ورواحي فبمثله ومثلكم لي مندوحة عن كل تكريم فاود اعزكم الله ان تصرفوا انظاركم عما عقدتم عليه نياتكم ولا اكتمكم ان مجاهرتكم بالعزم عليه اخلق عندي من مصيركم اليه نشر الله بكم في الارجاء ألوية الادب · وانا لكم مما يتعهد مخلوقيه من فيض السخاء وجزيل الآلاء منتهى الارب

كتب صاحب الفضيلة الشيخ محمد افندي عبده مفتي الديار المصرية
الى سليمان افندي البستاني صاحب الالياذه — (عن المقتطف)

دعاني اصدقاؤك واصدقائي الى الانس بك ساعة تهنئتك بالنجاح في ذلك العمل الادبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين · دعوني الى الاشتراك معهم في شكرك لما دأبت في السعي واخذت نفسك بالبحث والعناء في اختيار مسالك التنظم لتهدي الى ابناء لغتك العربية من احاسن الصناعة العربية ما يُعد زينة للناظرين

وكنت اكون اسرع الناس الى اجابة الدعوة لولا مانع ذنبه اليّ ذنب العاذل الى عاشق الحسان منعني الانس بك ولكن لم يمنعني ان اشاركهم في شكرك

تمت لك ترجمة الايلياذة لنابغة شعراء اليونان هوميروس المشهور نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة فاذا هو ميدان غذت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية فسبت خرائدها وغنمت فرائدها وعادت الينا في حللٍ من آدابها تحمل الى الالباب قوتاً من لبابها وما اجمل ذلك الغلب في زمنٍ ضعف فيه العرب حتى عن الرغب في نيل الادب ما ينال منه عن كثبٍ فضلٍ ما يكسب بالتعب · فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ما وفقت لاكماله من العمل فقد سددت ثلمة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون اغار قومنا على دفائن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده فنثروا منها ما كان مخزوناً ونشروا منها بين الناس ما كان مدفوناً · ولم يدعوا غامضاً الا حلوه ولا بعيداً الا قربوه ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك لم يكن في حسبانها

فقد صارت لسان العلم والصنعة كما كان لسان الدين والحكمة . لكن اولئك الاساطين الاولين كانوا يرون ان ذلك ما يفرضه الحق عليهم في جانب العلم الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ولا يتخالف على حقائقه الاعجم والمعرب وظنوا ان ما وراء العلم من اداب القوم ليس مما يتناسب مع ادابهم لبعد ما بين انساب اولئك وانسابهم فلم يمدوا نظرهم الى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء وما صاغته قرائح البلغاء فلم تنل اليونانية ما نالت الفارسية والهندية وكان مؤمل اللغة منهم ان لا يحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون كما زينوها بزينة ما ابدع الهنديون والفارسيون وبقي ذلك المؤمل في غيب حتى اتيت ترفع عنه الستر وجئت تقول للناس انني اتمم في دلة عباس[1] ما نقص في ملك بني العباس فما اقر عين العربية بنيل طلبتها وظهور ما كان منتظراً لشيعتها ارجو ان ينال كتابك من عليه والانتفاع به ما يكافىء تعبك ويبعث همم العاملين على ان تتبعك والسلام

كتب حافظ افندي ابرهيم الى صاحب الفضيلة محمد افندي عبده

كتابي الى سيدي وانا من وعده بين الجنة والسلسبيل . ومن تيهي به فوق النثرة والاكليل . وقد تعجلت السرور . وتسلفت الحبور . وقطعت ما بيني وبين النوائب

وبشرت اهلي بالذي قد سمعته فما تحتني الا ليالٍ قلائلُ
وقلت لهم للشيخ فينا مشيئةٌ فليس لنا من دهرنا ما نازل

---

(١) يعني خديوي مصر السابق

وجمعت فيه بين ثقة الزبيدي بالصمصامة · والحارث بالنعامة · فلم اقل ما قال الهزلي لصاحبه حين نسي وعده · وحجب رفده * يادار عاتكة التي اتعزّل * بل اناديه نداء الاخيذة في عمورية شجاعَ الدولة العباسية · وامد صوتي بذكر احسانه · مدَّ المؤذن صوته في اذانه · واعتمد عليه في البعد والقرب · اعتماد الملاَّح على نجمة القطب

وقال أُصيحابي وقدهالني النوى　　وهالهم امري متى انت قافلُ
فقلت اذا شاء الامام فأَوبتي　　قريب وربعي بالسعادة آهلُ

وها انا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة · وينطوي اجل تلك الفترة · وينظر لي سيدي نظرة ترفعني من ذات الصدع · الى ذات الرجع · وتردني الى وكري الذي فيه درجتُ ردَّ الشمس قطرة المزن الى اصلها · وردَّ الوفيّ الامانات الى اهلها

فان شاء فالقرب الذي قد رجوته　　وان شاء فالعز الذي انا آملُ
والا فاني قافٌ رُؤْبة لم ازل　　بقيد النوى حتى تغول الغوائل

فلقد حللت السودان حلول الكليم في التابوت · والمغاضب في جوف الحوت · بين الضيق والشدة · والوحشة والوحدة · لا بل حلول الوزير في تنور العذاب · والكافر في موقف يوم الحساب · بين نارين نار القيظ · ونار الغيظ

فناديت باسم الشيخ والقيظ جمرُهُ　　يذيب دماغ الضبّ والعقل ذاهل
فصرت كاني بين روض ومنهل　　تدب الصبا فيه وتشدو البلابل

واليوم اكتب اليه وقد قعدت همةّ النجمين · وقصرت يد الجديدين عن ازالة ما في نفس ذلك الجبـار العنيد · فلقد نما ضب ضغنه عليَّ

وبدرت بوادر السوء منه اليَّ فاصبحت كما سر العدو وساء الحميم · وآلامي كانها جلود اهل الجحيم · كلما نضج منها اديم تجدد اديم · وامسيت وملك آمالي الى الزوال · اسرع من اثر الشهاب في السماء · ودولة صبري الى الاضمحلال · أحث من حباب الماء · فنظرت في وجوه تلك العباد · واني لفارس العين والفؤاد · فلم تقف فراستي على غير بابك ·

واني أُهديك سلاماً لو امتزج بالسحاب · واختلط منه باللعاب · لاصبحت تتهادى بقطره الاكاسرة · وامست تدخر منه الرهبان في الاديرة · ولا غنى ذات الحجاب · عن الغالية والملاب

ولا بدع اذا جاد السيد بالرد فقد يُرى وجه المليك في المرآة · وخيال القمر في الأَضاة وان حال حائل · دون امنية هذا السائل · فهو لا يذم يومك · ولا ييأس من غدك · فانت خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً والسلام

وكتب عيسى افندي اسكندر معلوف الى بعض اصدقائه
وكان الشقاق قد القى بينهم عصاه

واذا تألفت القلوب على الولاء   فالناس تضرب في حديدٍ باردِ

انتهى اليَّ نبأ لم يكن في الحسبان · ان تمخضت بمثله ارحام الزمان · نبأ مشاحنة تعاظم امرها · ومشاحنةٍ كشف للحساد سرها · فتفرّق لفيفكم المقرون ايَّ تفرُّق · وتمزّق شملكم المنظوم اي تمزق فاستظهر عليكم العدوّ وشمت بكم الحاسد · وأرغمت معاطسكم بسعي ذوي المفاسد · وعهدي انكم متحدون قلباً وقالباً · ومتواطئون على ان يكون عدوكم مغلوباً لا غالباً ·

فاذا بكم اليوم قد نكثتم عهداً . ونقضتم ما ابرم بينكم وداً . فطرحكم تفريق الكلمة مطارح الهوان . واستثمرتم من زرع المفاسد كل خسران . كأنكم لم يدر في خلدكم ما قاله موءيد الدين الطغرائي لبنيه . فلم اجدندحة ان اذكركم برقيق معانيه :

كونوا جميعاً يابنيَّ اذا اعترى　　　خطب ولا تتفرقوا آحادا
تابى القداح اذا اجتمعن تكسراً　　　واذا افترقن تكسرت افرادا

فكفى بقوله وازعاً ونذيرا . وذكرى لمن احتاج تذكيرا . ولكنما الانسان محلّ النسيان . ورحم الله من قال لا يكن حبك كلفا . ولا بغضك تلفا

على انني اشعر الان بموقفكم في معترك النزاع . وحدة الطباع . وتنفيذ الكلام . ورشق اسهم الملام . والنزوع الى الاستظهار . والتنكيب عن الادبار . ونيران الخصام مضطرمه . وبواعث الحقد محتدمه . فاعذركم على ماجنيتم . وما اجتنيتم . ولا امهد لكم للعذر سبيلاً في الاستمرار على هذه الحال . مع معرفتكم ما وراء هذا التنافر من شر المآل . وان كان الساعون بينكم قد حسنوا لكم العاقبة . فاحذروا « ان تلك الا اماني كاذبه »

فالناس اشبه بالمادة عند الحكماء اذ فيها قوتان احداها التدافع وهي تحفظ الجسم من زيادة الضغط . والثانية التجاذب وهي تقيه من التطاير في الفضاء . ومن احسن ما تمثل به القوّة الاولى التنافر والثانية التآلف فكما ان الجسم باعتبار هاتين القوتين يكون اما جامداً وهو ما زادت فيه قوة الجذب على الدفع . واما سائلاً وهو ما تساوت فيه القوتان . واما

غازًا وهو ما زادت فيه قوت الدفع على الجذب · هكذا الناس باعتبار الالفة والتنافر ثلاثة انواع :

فالذين تقوى فيهم عوامل الالفة على التنافر وتتوثق دعائمها بينهم هم المتماسكون بالحب والوئام المتعاضدون على كل عمل بسلام · فلا يستطيع النمام ولا الواشي ولا الحاسد ان يتخلل تلك الجواهر الفردة التي هي فيهم عبارة عن الافراد فتستمر هيئتهم الاجتماعية الى ما شاء اليه متالفة لا تؤثر فيها مساعي المبغضين ولا تتقاذفها امواج المفرقين · لكنها على كثرتها تتضام اجزاؤها وتتماسك افرادها وتتجاذب دقائقها فتؤلف جسماً واحداً شأن الجوامد

والذين تتعادل فيهم عوامل الالفة والشحناء ترى عراكهم متجدداً وخصامهم مستمرًا اذ ان دقائقهم تتقارب ثم تتدافع على التساوي فمعتركها دائم شأن الماء وغيره من السوائل اذا ترك غير مظروف يطلب اسفل الاماكن ويجري الى مستقره

والذين تقوى بهم عوامل البغض على الحب يتفرّقون طرائق ويتمزقون مزائق حتى لا يبقى لهم اثر في عالم الوجود شأن الغازات وما شاكلها مما تتطاير اجزاؤها هباءً منثورًا فيبيد ذكرهم مع الدويّ كما قال النبي

بقي ان لتاثير الحرارة والبرودة يداً في تمييز المواد وتقوية احدى قوتيها او اضعافها فيتحول الجسم الى اخر باعتبار تلك الفواعل

فالساعي في تفريق الجماعات اشبه بالحرارة التي تقوي الدفع وتضعف الجذب وهكذا يفعل النمام في زرع بزور الخصام بعد حرث ارضها بلسانه السليط وتعهدها بالسقي من كلماته النافثة سماً حتى اذا استحصدت كانت وبالاً على المجتمع الانساني اعاذنا الله من كل واشٍ

والساعي في تأليف القلوب وانتظام عقد الجماعات اشبه بالبرودة التي تقوي الجذب وتضعف الدفع فعليه يتوقف التئام الشمل وانعقاد القلوب وتواطؤ الآراء

ومن رأى ان هذا من احسن ما يمكن ان تتمثل به الفلسفه · فليجهد سحابة العمر في فل السفه · والتفادي من شر الخصام · والاخلاد الى الالفة والوئام · والله يتولى من اموركم الاصلاح · ويلهمكم التواطوء لتجنوا ثمر الفلاح · فهو السميع المجيب · واليه ننيب (اه)

وكتب ابرهيم بك عقل مقدماً كتابه لهجة الحق لغبطة السيد الياس بطرس الحويك بطريرك الطائفة المارونية

مولاي

ان اهديتُ اليك فؤادي · فكأني اهديتُ اليك مثواك · او اسديت اليك محض ودادي · فذاك مبذولٌ منذ نشأتي في سبيل رضاك · او رفعت اليك طارفي وتلادي · فمن السفه ان ارد اليك نعماك · وان شكرتك بلساني · فالشكر يقصّر عن القيام بحرمة الصنيعة · او دأبت في اذاعة مناقبك طول زماني · فان فضائلك في اقاصي الآفاق مسموعة · فما تكون هديتي وانا الناشيء في وارف ظلك · والمتقلب على مهاد عارفتك وفضلك · والمنظور بعين رعايتك · والمحفوظ في حجر كفالتك والمرموق بعين رأفتك صغيرا · والموموق بجنانك كبيرا · فلقد مننت عليّ من معروف الفضل ومألوفه · بما تقصر الارقام عن الوفه · فلم أرَ اثمن من درّ صفاتك ينظمه الشعراء عقودا · وانفس من ديباج صلاتك ينسج منه الادباء للعقول برودا · وما

مثلي باهدائه اليك الا مثل من يهدي الدرّ الى البحر· والبهاء الى البدر· والتمر الى صنعاء· والنشر الى الكباء· ومع ذلك فقد اقدمت على جمعه اقداماً يلابسه التهيبّ والوَجل· ورفعته الى مقامك متقنعاً بقناع الخجل· لعلمي ان تواضعك يجالك عن قبول الاطراء· وزهدك لا يحفل بعبير الثناء· ولكنّ لي في اناتك وحملك تعمّداً لجرأتي· وتجافياً عن مزلتي· فاقبل فديتك انفس هديتي· وهي سفرٌ سأُطيلُ فيه هذيذي ما بقي من مدتي· وما هو الا لمجة الحق· في اطراء بطريرك الشرق· وحسبي ان يقرّ باجتلائه نظري· واحيي بممارسته لذيذ سهري· بعد ان رصدتُ النجمَ طول نواك برقب بصري· وهتفتُ في الليالي السود فيك «سلْ يا أَخا البدر نجم الليل عن سهري»· اطال الله اسباب عزّتك· وزاد في غبطتك وبهجتك· وانعم بالك· وادام كمالك· بمنه وفضله

✻ تم المجلد الثاني من مجالي الغرر ويليه المجلد الثالث ✻

فهرست الكتاب

رسائل